



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أحمد دراية - أدرار -



قسم العلوم الإنسانية

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية

**هجرة سكان بني ميزاب إلى تونس ودورهم السياسي
والفكري في الحياة التونسية خلال الفترة (1956/1881)**

**مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الاجتماعي والثقافي
المغربي عبر العصور**

إشراف الدكتور:

خير الدين شترة

إعداد الطالب:

عبد القادر عزام عوادي

اللجنة المناقشة:

أ.د عيسى قرقب	رئيساً	قسم التاريخ/ جامعة أدرار
د. خير الدين شترة	مشرفاً ومقرراً	قسم التاريخ/ جامعة المسيلة
د. محفوظ رموم	عضواً	قسم التاريخ/ جامعة أدرار
د. محمد دبوب	عضواً	قسم التاريخ/ جامعة أدرار

السنة الجامعية: 1436-1437 هـ . 2015 - 2016 م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى روح أمي الطاهرة التي غرست فينا

أبجديات الوطنية الأولى، وغادرتنا ذات يوم على حين غفلة، ولم تترك لنا فرصة لتوديعها،

وإنني أقف عاجزاً اليوم عن إيفائها حقها ممما كتبت وعبرت وتألّمت.

إلى من دعوته ذخري في حياتي ونور قلبي، إلى من تعب وضحي من أجلي، إلى الذي

كان فانوساً اخترق زينةً لأكون قمرًا مضيئاً في سماء العلم راجياً مولاي إحاطته ببالح عنايته،

وأن يمنّ عليه بكامل الصحة ودوام العافية وأن يجعل شفائه..." أبي الغالي".

إلى روح الشيخ والشاعر صالح إبراهيم باجو عليه رحمه الله، الذي كان أحد المساهمين في

هذا العمل وتمنى أن يحضر ختامه، ولكن الأجل سبق فرحمة الله على روحه الطاهرة.

شكر وعرفان

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ الآية 152 - البقرة

إن الحمد لله نحمده ونشكره على توفيقه لي وإلهامه هبة الصبر وتحمل عناء هذا المشوار إلى نهايته.

إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور "خير الدين شترة" الذي بصّرني بنور بصيرته وصفاء فؤاده ووجهني توجيه الأستاذ لطلبته ولم يخل علياً يوماً بنصائحه وتوجيهاته رغم كثرة التزاماته ومسؤولياته ومتابعته للبحث من بداية نشأته حتى إتمام ميلاده.

أتقدم له بخالص الشكر وعميق الامتنان وفائق التقدير والاحترام متمني له دوام الصحة والعافية والمزيد من النجاحات والإصدارات التاريخية في المستقبل.

ولا أنسى أن أتقدم بفائق التقدير لمجهودات أساتذتي الكرام خلال دراستي الجامعية فيما بعد التدرج: الدكتور عيسى قرقب، الدكتور الطاهر ذراع، الدكتور محفوظ رموم، والدكتور عبد الكريم بوصفصاف، فقد كان لهم نصيب وافر من النصح العلمي والتوجيه الأكاديمي، الذي أعتبر جهدي ثمرة من ثماره.

كما أتقدم بالشكر الجزيل لكل الأساتذة الكرام الذين ساعدوني في إنجاز هذا الموضوع وأخص بالذكر: الأستاذ: الشيخ ناصر بلحاج، والدكتور: ناصر بلحاج، والدكتور: يحيى بن بھون، والدكتور: مصطفى حمودة، والأستاذ الدكتور: محمد الأمين بلغيث، وإلى الأستاذ يحيى أبي اليقظان، الأستاذ أحمد عوادي، والأستاذ عمار غرايسة، والدكتور مبارك جعفري، الأستاذة سهيلة بن عمر، الأستاذة مريم حفصي، الأستاذة دلال وشن، الأستاذ فوزي احفيظ.

إلى من كان لهم فضل كبير في إنجاز هذا الموضوع وكانت مساعدتهم دافع كبير لي في إتمام هذا البحث: عائلة الحاج عاشور الفاضلة وخاصة ناصر ومصطفى وعادل، والطبيب أحمد الوارث، والأستاذ عبد المجيد بن عمر، والصدیق محمد مبسوط، والصدیق إلياس بولدون، وزكرياء بن الشيخ، ياسمين مناعي، مروة بنين.

المقدمة

1. الإطار العام للموضوع:

تُعد حركة الهجرة الجزائرية نحو البلاد التونسية من أهم الظواهر الاجتماعية التي شهدتها المنطقتين منذ فترات زمنية متعددة، ولعل أبرزها هي الفترة التي طغى فيها الوجود الاستعماري لكلا البلدين، فقد كان لهذه العلاقات أوجه متعددة ومختلفة مستتجلاً الجوانب السياسية والفكرية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ذلك أن تونس ورغم الوجود الاستعماري بها إلا أنها كانت تعيش حالة من الحرية السياسية والفكرية خلافاً على ما كان عليه الأمر في الجزائر، حيث ساد الظلم والجور والتعسف في حق الجزائريين وعمّ جميع المجالات، فالاستعمار الفرنسي حارب الجزائريين في دينهم ولغتهم وهويتهم وحتى في مالهم وأرضهم وأعراضهم، وهو ما اضطرّ الجزائريين إلا أن يعيشوا في حياة البائسين في وطنهم، أو أن يفكروا في مغادرة البلاد والبحث عن مكان يجدون فيه سبيلاً من الحرية والعيش الكريم الذي افتقدوه في وطنهم.

وكانت أقرب الأقطار إليه من حيث الحدود الجغرافية، و الهوية الانتمائية من دين ولغة وعادات وتقاليد، هو القطر التونسي فالتجأ إليه هروباً من القهر والذل الذي كان يعيشه في بلاده، فاحتضنت البلاد التونسية المهاجرين الجزائريين، فتمازجت مظاهر التواصل الفكري والعلمي والسياسي بين الشعبين، ليمتد الحضور الجزائري إلى الحياة النضالية التونسية.

لقد هاجر الجزائريون نحو البلاد التونسية من مختلف المناطق، ولعل أبرزها هي المناطق الحدودية أو التي كانت قريبة من الحدود الجزائرية التونسية، ومن بين أهم مناطق انطلاق هذه الهجرات نجد منطقة وادي ميزاب التي كانت منطقة هامة بالنسبة للهجرة نحو تونس، وذلك في إطار العمل والتبادل التجاري الذي كان رائجاً بينهما أو في إطار طلب العلم بجامع الزيتونة المعمور، ونجد أن الميزابيين في عاداتهم وأعرافهم لا يعتبرون الرجل رجلاً إلا إذا تغرّب بعيداً عن الأهل والأقارب، فلذلك نجدهم يهاجرون ويغادرون محال إقامتهم، فمنهم من يهاجر الهجرة الداخلية في مختلف أنحاء الوطن، ومنهم من يختار الهجرة الخارجية؛ وفي هذا الاختيار كانت تونس الوجهة المفضلة.

إن الهجرة الميزابية إلى تونس تعدّ من بين أهم الهجرات الجزائرية بالنظر إلى ما خلّفته من آثار عميقة في مختلف نواحي الحياة السياسية والفكرية التونسية، ثم إن الفترة من بداية فرض الحماية على تونس عام 1881م إلى غاية استقلالها عام 1956م، شهدت حركة غير مسبقة من الهجرات والبعثات العلمية والطالبية الميزابية المتجهة صوب الحواضر التونسية، يضاف إليها التغيرات السياسية والاجتماعية الطارئة على القطرين التونسي والجزائري بسبب تأثيرات الهجمة الاستعمارية الفرنسية وسلباتها، واعتماداً على ما سبق جاء عنوان الموضوع على النحو الآتي: هجرة سكان وادي ميزاب إلى تونس ودورهم في الحياة الفكرية والسياسية التونسية خلال الفترة 1881-1956م.

2. دوافع الموضوع:

لقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع عدة أسباب، ولعل من أبرزها رغبتني الشخصية في البحث عن تاريخ هجرة سكان أقاليم الجنوب نحو تونس، وذلك بعد أن تناولت «هجرة سكان منطقة وادي سوف إلى تونس» في إطار مشروع مقدم لنيل شهادة الليسانس، يضاف إلى ذلك دوافع ذاتية وموضوعية أخرى:

- التعرف أكثر على منطقة وادي ميزاب والميزابيين بصفة عامة وبالنظر إلى النقص الوارد في الدراسات التي كتبت تاريخهم وأدوارهم نجد أن جلّ هذه الدراسات قام بها أهالي المنطقة أو كتبها الغربيون بنظرتهم ولغتهم الخاصة.
- إبراز أهمية الهجرة الميزابية إلى تونس، وتبيان دور المهاجرين من خلال إسهاماتهم المتعددة الحياة السياسية والثقافية والفكرية التونسية، ومدى تأثير ذلك على الجزائر وعلى منطقة وادي ميزاب بصفة خاصة.
- استغلال فرصة البحث في المواضيع المحلية من أجل إخراج بعض الوثائق المخزونة في المكاتب الأهلية، واستغلالها في كتابة تاريخ المنطقة، وحمايتها من التلف والإهمال.
- جمع الروايات الشفوية، خاصة من الذين عايشوا هذه المراحل التاريخية المهمة، والحفاظ عليها باعتبارها مادة تاريخية خام تساعد الباحثين والمهتمين مستقبلاً.
- إثراء المكتبة الوطنية بهذا الموضوع المهم وفتح مجال البحث مستقبلاً للدارسين والباحثين المهتمين بمثل هذه المواضيع.
- الخوض في جانب من جوانب تاريخ الميزابيين في الجزائر، باعتبار أن جلّ الدراسات التي قُدمت حولهم كانت جلّها من أصحاب المنطقة نفسها، أو من خلال الكتابات الغربية عنها.
- توضيح الأهمية التاريخية التي أداها الميزابيون في الحركة الوطنية الإصلاحية، من خلال تتبع مراحل البعثات العلمية الميزابية، التي كان لها الأثر العظيم في ظهور و بروز الزعامات الإصلاحية التي قادت النهضة في الجنوب الجزائري، وكانت جنباً إلى جنب مع الحركة الإصلاحية في الشمال بزعامة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

3. إشكالية الموضوع:

من خلال المطالعة المتأنية للعديد من المصادر والمراجع التي تتحدث حول الحركة الإصلاحية الميزابية، وحول الترجمة للعديد من الشخصيات في هذا الميدان، وتطرق البعض منها إلى تاريخ البعثات العلمية الميزابية، تشكّلت لدينا العديد من التساؤلات حول هذه الهجرة وأهميتها ونتائجها.

ولكن لحصر موضوع الدراسة في المجال الأكاديمي والعلمي اخترت إشكالية رئيسة لهذا الموضوع وتفرّعت عنها بعض التساؤلات الفرعية، وكانت الإشكالية الرئيسية هي: أين تكمن الأهمية الحضارية والتاريخية

لمختلف الأدوار والإسهامات التي قدمتها مختلف موجات المهاجرين سواءً في موطن الهجرة أو على مستوى بلدانهم الأصلية؟

وتندرج تحت هذه الإشكالية الرئيسة بعض التساؤلات الفرعية الأخرى وهي:

- ما هي الظروف الرئيسة التي دفعت بالسكان إلى الهجرة واختيار الوجهة التونسية؟
- ما هي المراحل الرئيسة التي مرّت بها الهجرات والبعثات الميزابية نحو تونس؟
- ما هي مناطق استقرار هؤلاء المهاجرين في تونس؟
- ما هي أهم الأنشطة والأعمال التي مارسها المهاجرون الميزابيون خلال وجودهم في تونس؟ وكيف كانت وضعية طلبة البعثات العلمية هناك، وأهم أنشطتهم و أعمالهم؟

4. الخطة المتبعة في معالجة الموضوع:

للإجابة على هذه الإشكالية ومجموع التساؤلات الفرعية، بنيت خطة الدراسة على النحو الآتي:

الفصل التمهيدي: تطرقت فيه إلى التعريف بمنطقة وادي ميزاب، سواء من الناحية الجغرافية والمناخية، وأيضاً التطرق لتاريخ المنطقة وأهم خصائصها التاريخية، التي ساعدت في تكوين البناء الحضاري لها على مختلف العصور، والتطرق للمجموعات البشرية التي تقطن بالمنطقة وأصولهم ووصولهم إليها، وتطرقنا أيضاً إلى توافد المذهب الإباضي إلى المنطقة باعتبار أن سكان وادي ميزاب من أتباع المذهب.

وفي الفصل الأول: حاولت وصف جميع الأوضاع التي كانت تعيشها منطقة وادي ميزاب، خلال الوجود الاستعماري، ودخول القوات الفرنسية على المنطقة، وكيف تعامل الميزابيون مع هذا الاستعمار، سواء من خلال عقد معاهدة الحماية، أو من خلال الدعم الذي قدمه الميزابيون لقادة المقاومات الشعبية في الجنوب الجزائري بصفة خاصة، وفرض قانون التجنيد الإجباري على السكان وردود أفعال الميزابيين حيال هذا القانون أما اقتصادياً فلقد تطرقت إلى العديد من الجوانب في هذا المجال التي كانت تميز منطقة وادي ميزاب، سواء في الفلاحة أو التجارة أو بعض الصناعات، أما اجتماعياً فقد تطرقت إلى خصائص ومركبات المجتمع الميزابي، وأيضاً إلى حالة السكان العددية في إقليم وادي ميزاب خلال تلك الفترة، وتأثير ذلك على الحالة المعيشية للسكان بصفة عامة، وأما ثقافياً فلقد ركزت على جانب التعليم، سواء ما تعلق منه بالتعليم الحر أو التعليم الفرنسي، ودور هيئة العزابة في هذا الجانب، ويُعد هذا الفصل مهم نظراً لطبيعة الموضوع المدروس، لأن ظاهرة الهجرة كانت نتيجة الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي كانت يعيشها الفرد الميزابي في وطنه.

أما في الفصل الثاني: فقد تناولت فيه ظاهرة الهجرة المتبادلة من الناحية التاريخية بين المنطقتين، في محاولة لتأصيل جذورها، ومناقشة التواصل الحضاري بين المنطقتين خاصة ما يرتبط بجزيرة جربة والجريد التونسي بحكم التقارب المذهبي بينهما، منذ أواخر العصور الوسطى إلى غاية الفترة التاريخية المعنية بالدراسة، مناقشين في ذلك أهم الدوافع والأسباب التي كانت وراء هجرة سكان وادي ميزاب إلى تونس، وفي آخر هذا الفصل تطرقت إلى نوعية الهجرات التي كانت تميز الهجرة الميزابية إلى تونس، وأشارت إلى عدة أنواع من الهجرات سواء الهجرات الفردية أو الجماعية، أو الهجرة من حيث القصد والغاية، حيث نجد الهجرات العمالية التي كان يبتغي أصحابها البحث عن العمل في تونس، وأيضاً الهجرات العلمية والتي قادها طلبة العلم.

أما الفصل الثالث: فقد تضمن الإسهامات الفكرية والسياسية التي قدّمها الميزابيون للحياة التونسية، والأماكن التي قطنها الميزابيون في تونس، وأهم الأنشطة والأعمال التي مارسوها هناك، وكيف كانت العلاقة بينهم وبين التونسيين من خلال هذا الوجود وهذه الإسهامات المتنوعة، في مرحلة مهمة من المراحل التاريخية للعلاقات التونسية الجزائرية.

5. المناهج العلمية المتبعة:

ولدراسة هذا الموضوع بطريقة علمية أكاديمية، تجيب عن التساؤلات المطروحة وفق الخطة المرسومة، اعتمدت على **المنهج التاريخي** الذي يهتم بتتبع الأحداث وتقديم وصف شامل ودقيق عنها، وأيضاً استعملت المنهج التحليلي في تفسير وتحليل بعض المعطيات والعوامل التي أثرت على حركة الهجرة من خلال تتبع مراحلها مؤثراتها خلال الفترة المدروسة في الموضوع.

6. الدراسات السابقة للموضوع:

أما عن أدبيات الموضوع فهي متنوعة بين المصادر والمراجع المختلفة فمن أهم المصادر هي: كتابات محمد علي دبور عليه رحمه الله خاصة كتابيه: (أعلام الإصلاح في الجزائر) وأيضاً كتاب: (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة)، حيث يُعد الشيخ دبور أحد أعلام النهضة بمنطقة ميزاب، ومن طلاب البعثات البيوضية، ونجد في كتابيه مادة مصدرية خيرية استقاهها من صناعات الفعل الثقافي والاجتماعي في منطقة وادي ميزاب خلال الفترة المدروسة، ولعل من أبرزهم الشيخ أبي اليقظان الذي أخذ عنه مادة تاريخية جد مهمة في تاريخ البعثات العلمية الميزابية إلى تونس منذ بداياتها، بحكم أن الشيخ أبي اليقظان كان هو المشرف عن هذه البعثات منذ انطلاقها الأولى.

كما اعتمدنا على كتابات الشيخ أبي اليقظان، مثل كتابه: (إرشاد الحائرين)، و(تاريخ صحف أبي اليقظان)، و(ديوان أبي اليقظان)، وأغلب كتبه هي محققة من طرف الدكتور محمد ناصر، حيث تحتوي على

مادة علمية مهمة لكون الشيخ أبي اليقظان من رواد الحركة الإصلاحية بميزاب، ومؤسس البعثات العلمية بها، وخاصة كتاب (إرشاد الحائرين) الذين أصدره كرد على معارضيه من أنصار حركة الجمود أو التيار المحافظ ممن أنكروا عليه نظام البعثات العلمية إلى تونس، فجاء هذا الكتاب لتوضيح العديد من النقاط على البعثات بتونس، أما عن المراجع المستعملة فهي أيضاً متعددة ومتنوعة ومنها (دراسات وأبحاث) الدكتور قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج، الذي أصدر عدداً من الدراسات تمس جانب هذا الموضوع، ولعل أهمها كتابه: (معالم النهضة الإصلاحية عند إباضية الجزائر)، الذي يعد دراسة أكاديمية جد مهمة عن الحركة الإصلاحية بمنطقة وادي ميزاب، واستعنّ بها في هذا الموضوع بحكم أن دراستنا تمس بشكل مباشر، زعامات النهضة الإصلاحية بالمنطقة، ومدى تأثيرها وإسهاماتهم في الحياة التونسية، ومن أهم المراجع التي اعتمدت عليها: دراسة عبد الكريم الماجري حول الهجرة المغاربية إلى البلاد التونسية، والتي جاءت تحت عنوان: (هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجاونة إلى تونس 1831-1937م)، وفي الفصل الأخير منه خصص جانب من دراسته حول الوجود الإباضي الميزابي بتونس، وأبرز نشاطاتهم الاقتصادية هناك، كما استعنا أيضاً بكتاب: (معجم أعلام الإباضية) الذي أصدرته جمعية التراث، وقد استفدنا منه كثيراً في التعريف بالشخصيات التي وردت في هذا الموضوع.

7. صعوبات البحث:

واجهتنا العديد من الصعوبات أثناء مراحل هذا البحث، لعل من أبرزها:

- قلة المصادر والوثائق التي تتحدث عن هذا الموضوع بشكل مباشر، خاصة ما يخص الجوانب الاجتماعية والاقتصادية منه، وهذا ما دفعنا إلى التنقل إلى غرداية عدة مرات من أجل استقاء المعلومة الموثقة من بعض الشخصيات العلمية والدينية التي عايشت ظروف وأحداث هذا التواصل بين المنطقتين بالإضافة إلى بعض الباحثين المهتمين بذات الموضوع، كما استثمرنا هذه التنقلات أيضاً في البحث عن الوثائق والرسائل من الخزائن الخاصة والمكتبات العامة بقصور وادي ميزاب.
- الظروف الأمنية الغير مستقرة بمنطقة وادي ميزاب جعلت التواصل مع الزملاء هناك صعب في كثير من الأحيان، وجعلت مهمة التنقل أيضاً مضطربة، وهذا ما جعلنا نتأخر في كثير من المرات عن العديد من المواعيد المبرمة.
- الأخطاء الإدارية التي حرمتني من السفر نحو تونس، ومنعتني من الانتفاع بوثائق الأرشيف الوطني التونسي، ومكتنزات المكتبة الوطنية التونسية، اللذان يضمّان العديد من المصادر والوثائق التي تؤرخ لهذه الفترة.
- عدم تطرق الدراسات السابقة لموضوع الهجرة الميزابية إلى تونس، إلى الهجرات العمالية، فأغلبها على الأرجح يُركز على البعثات العلمية والطلابية.

● جل الكتابات التي تناولت الموضوع هي كتابات ميزابية، مما جعلني أعتمد على الموضوع من وجهة نظر واحدة، وهو الأمر الذي حاولت أن استدركه بالبحث عن مصادر أخرى.

لكن ورغم هذه الصعوبات التي واجهتني في الموضوع إلا أنني حاولت تجاوزها والتغلب عليها، وكل ذلك بفضل الله أولاً وتوجيهات وتصويبات المشرف ونصائحه الدائمة من أجل إكمال العمل في الأوقات المحددة له، ومساعدة العديد من الأصدقاء والزملاء في هذا الميدان وخاصة الأصدقاء من منطقة ميزاب الذين كانوا حريصين على تتبع مسار البحث ومساعدتي في بعض الصعوبات التي اعترضني خاصة فيما يخص بعض المراجع والمصادر.

وفي الأخير بعد كل الجهد المبذول طوال هذه السنتين، أتمنى أن يلقي هذا الموضوع الاهتمام من طرف الباحثين، والمهتمين بمواضيع الهجرة والتواصل الحضاري بين أقطار البلاد المغاربية، وأن يكون نقطة بداية عدة أعمال أخرى، وأقول أن كل عمل ينجزه صاحبه يعتز به الخطأ والنقصان، فإن أخطأت وقصرت فذلك ضعف من نفسي، وإن أصبت فهو توفيق من الله سبحانه وتعالى الذي سدّدي وأعاني في كل مراحل إنجاز هذا الموضوع، فله الشكر والثناء الحسن في الأولى والآخرة.

الفصل التمهيدي:

التعريف بمنطقة وادي ميزاب

- 1- الواقع الجغرافي والطبيعي لوادي ميزاب.
- 2- التطور التاريخي والسياسي.

1. المواقع الجغرافي والطبيعي لوادي ميزاب

أ- الموقع الفلكي والجغرافي:

تقع منطقة وادي ميزاب أو بلاد الشبكة كما تعرف، في شمال الصحراء الجزائرية وتمتاز عن بقية المناطق المجاورة لها بطبيعتها القاسية، فهي صحراء ضمن صحراء¹، وتبعد عن العاصمة بمسافة (600 كم) ناحية الجنوب، و(800 كم) عن قسنطينة شرقا و(800 كم) عن وهران غربا و(1500 كم) عن تمنراست جنوبا، ويحد بلاد ميزاب من الشمال والشمال الشرقي واحة الأغواط، وصحراء أولاد نائل، ومن الشرق واحات حجرية ولعلية وغيرها، ومن الغرب وادي زرقون، ومن الجنوب واحة وارجلان²، وتوجد منطقة وادي ميزاب على ارتفاع (515 متر) من سطح البحر³، وتوجد عاصمة الولاية غرداية في تقاطع خط العرض الشمالي (38.30) وخط الطول الجنوب (30.45)⁴، وتبلغ مساحتها حوالي (38 ألف) كم² يحدها شمالا وادي بوزير، وغربا وادي زرقون، وتمتد شرقا فتشمل زلفانة والقرارة وتحتل جنوبا مع بلاد الشعابنة⁵.

وسميت ببلاد الشبكة إلى تشابك أوديتها بين قراها⁶، وهذه الشبكة تتخللها الأودية الرئيسية للمنطقة وهي: وادي ميزاب، وادي زقير، وادي متليلي، وادي النساء، وادي بلوح⁷، وهذا الأودية كلها لا يتجاوز عمقها (100 متر)، وتتجه كلها من الشمال الغربي نحو الجنوب الشرقي، لتنتهي عند بحيرة تكتنفها الرمال شمال غرب ورقلة⁸، ولذلك تعتبر بلاد الشبكة ذات أهمية كبيرة حيث هي بمثابة العمود الفقري للصحراء بتوجيه مياه الأمطار نحو الشرق والغرب بعيدة عن استغلالها من طرف سكان ميزاب، حيث تقوم الأودية ذات الخصائص الصحراوية بإبعادها، مثل وادي ميزاب ووادي متليلي ووادي سبب، إلى نواحي بعيدة، أما وادي زقير المنحدر من هضبة الضاية بنواحي الأغواط فإنه يتجه بمياهه الغزيرة إلى واحة القرارة⁹، وبلاد ميزاب هي الجزء الأكبر من بلاد الشبكة وتضم اليوم المدن السبع: غرداية، مليكة، بني يزقن، بنورة، العطف، بريان و القرارة، أما بنوا ميزاب فلا يسمون

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط2، المطبعة العربية، غرداية، 2006م، ص1.

² - محمد علي دبو: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص160.

³ - بكير بن سعيد اعوش: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية دينيا تاريخيا، اجتماعي، المطبعة العربية، غرداية، 1991م، ص20.

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند اباضية الجزائر 1157هـ/1744م إلى 1382هـ/1962م، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 2011م، ص56.

⁵ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص01.

⁶ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص57.

⁷ - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص20.

⁸ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص1.

⁹ - صالح بن عمر سماوي: العزابة ودروهم في المجتمع الإباضي بميزاب، ج2، ط1، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، 2008م، ص-ص (592-593).

بلادهم في لغتهم البربرية إلا (أغلان) ويطلقون على وادي ميزاب اسم (اغزر أوغلان)، علماً أن (إغزر) كلمة ميزابية معناها وادي¹، ويطلق أيضاً عليها مدن سهل مزاب الست وهي من الشمال الغربي إلى الجنوب الغربي: الضاية وغرداية ومليكة وبني يزقن وبنورة والعطف، وهناك من يضيف إليها مدينة متليلي في الجنوب وزلفانة في الجنوب الشرقي².

ب- الطقس:

تتميز المنطقة بالمناخ الصحراوي الجاف بطبيعة الحال، وهو مناخ قليل الرطوبة إلا في حالة نزول الأمطار في الشبكة أو حولها، وتختلف درجات الحرارة بين الشتاء والصيف، وأيضاً بين الليل والنهار، أما في الشتاء فإن أقصى درجة تبلغ 30 درجة وأما أدناها فتبلغ 1 درجة، وأما في الصيف فإن أقصى درجة تبلغ 48 درجة وأدناها فتبلغ 20 درجة³، لذلك فهواء المنطقة جاف جداً، ومما يزيد جفافاً الرياح المثيرة للرمال القادمة من الجنوب الغربي خاصة في نهاية الشتاء وبداية الربيع، ومن نتائج هذا الجفاف قوة إشعاع الضوء بالنهار وتباعد الحدين الأدنى والأقصى لدرجات الحرارة خلال اليوم الواحد⁴.

أما عن التساقط فهي منطقة قليلة الأمطار لا يتجاوز معدل سقوط الأمطار فيها 67 ملم سنوياً، وهذا ما جعل وديانها قليلة السيالان عموماً⁵، وقد تزيد نسبة التساقط عن هذا العدد في بعض السنوات وكذلك قد تشح السماء أحياناً وينزل المعدل إلى معدلات منخفضة جداً قد تصل إلى 10 ملم في السنة⁶، ومع هذا تتمتع المنطقة بالمنطقة بالمياه الجوفية ولكنها ليست قريبة من السطح، فالعمق العام للآبار بالنسبة للسطح يتراوح ما بين ثمانية و خمسين متراً، ويبلغ سمك الطبقة السائلة ما بين (0 - 17 متر)، وتبلغ درجة حرارة المياه ما بين (20 إلى 24 درجة مئوية)، فهي لا تتأثر بالحرارة الخارجية⁷.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص3.

² - مجموعة من الباحثين: معجم مصطلحات الاباضية، ج2، ط2، دار الوعي، الجزائر، 2012م، ص526.

³ - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص21.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص1.

⁵ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص56.

⁶ - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص21.

⁷ - صالح بن عمر اسماوي: المرجع السابق، ج2، ص593.

ج - التسمية وأصل السكان

ج- 1. أصل تسمية وادي ميزاب:

لقد تعددت الروايات في أصل التسمية التي ترجع إليها هذا المنطقة، فمنهم من أرجعها إلى نسب أهاليها، أو إلى الطبيعة الجغرافية للمنطقة في حد ذاتها، وبعد أن علمنا سبب تسمية المنطقة ببلاد الشبكة، فإن التسمية المعروفة والمشهورة هي وادي ميزاب فلماذا هذا التسمية؟ وكيف أتت؟

يذكر الشيخ علي يحيي معمر¹ في كتابه الإباضية في موكب التاريخ حول سبب التسمية مايلي: «يبدو لي أن التسمية الأصلية لهذه الأرض هي بادية "بني مصعب"، لأن "بني مصعب" هم الذين كانوا يعمرن هذه المنطقة، وينتقلون بين أجزائها، فكانت لهم منتجعا ومرتعا، ولما كانت هذا البادية تخترقها وديان ثلاثة على شكل جبال طويلة، وتعرضها سلاسل ممتدة من الجبال شابهت في صورتها الشبكة، فأطلق عليها أيضاً أرض الشبكة.... فأنا أرجح بدون استناد إلى أدلة كافية أن كلمة "ميزاب" محرفة عن مصعب أو مصاب أو مضاب، وهذه الكلمات الثلاثة ترد كثيراً في المصادر التي تتكلم عن تلك المنطقة، أو عن الأشخاص الذين ينتسبون إليها، مما يدل أن أصلها واحد، فأصل الكلمة يبدو "مصعب"، ثم حرفت إلى مُصَاب بإبدال حرف العين همزا، وحروف الحلق عن البربر ينوب بعضها على بعض، فكثيراً ما ينطقون الحاء بدل الحاء، والهمز بدلا من العين، بل ربما كان حرف العين من أعسر الحروف نطقاً عليهم، ولذلك فتجري السنتهم بالهمز بدلا عنها، ثم سهلت الهمزة فقرأت الصاد ممدودة، ثم أن هذه الصاد حرفت مرة أخرى فنطقها بعض ضادا، ونطقها بعض زايًا لتقارب مخرجي الضاد والزاي»²، ومما يؤيد هذا الرأي إبدال بني ميزاب للصاد زايًا مفخمة في بعض الكلمات مثل الصلاة والصوم اللتين أصبحتا تزايت وازمي³، ويؤكد ابن خلدون هذا الأمر إلى أن أصل التسمية مُصَاب نسبة لبني مُصَاب من بني واسين؛ وهم الذين سكنوا المنطقة بعد أن اختطوها، وأصلهم من قبائل زناته البربرية من شعوب باديين كثيرة العدد، وازدادوا تفرعاً من أولاده الأربعة: بنو مصاب، بنو عبد الوادي، بنو توجين، بنو زردال، ومن ثم فإن بني ميزاب هم أبناء باديين بن محمد بن زرخيك (زهيق) بن واسين بن ادين بن جانا وهذا الأخير هو الجد الأعلى لقبيلة زناته

¹ - الشيخ علي يحيي معمر: من مواليد مدينة بنالوت بليبيا خلال سنة 1919م، حفظ القرآن الكريم ومبادئ الفقه في مدينته على جملة من شيوخ المذهب الإباضي، ثم انتقل جامع الزيتونة ليأخذ العلم من علماء الأجلاء، وغادر تونس سنة 1937م متوجها إلى الجزائر وبالضبط إلى معهد الحياة بالقرارة بوادي ميزاب، وحط الرحال هناك وأقام بها سبع سنوات تتلمذ خلالها على مشايخ المعهد ومنهم الشيخ بيوض والشيخ شرفي سعيد، ولقد كان طالبا ومدرسا في نفس الوقت، وكان الشيخ يحيي معمر كثير النشاط والحركة والتأليف وكان علماء بارزا من علماء المذهب الإباضي. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج3، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 1999م، ص- ص(619-620).

² - علي يحيي معمر: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة الاباضية في الجزائر، ط3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2008م، ص301.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص7.

البربرية¹، وهناك رواية أخرى حول سبب التسمية ولو أن المؤرخين لا يعتمدون عليها كثيراً بسبب احتمالها الضئيل، وهي أن سبب تسمية وادي ميزاب نسبة إلى "ميزاب" الكعبة الذي قطرت قطرة من قطرات ماء في يوم مشرق الشمس، على أحد أئمة الإباضية وهو الإمام أبي بلال مرداس² استجابة لدعوته، وأمارة على هداه، ويذكر يحيى معمر هذه القصة وينفي أنها سبب في تسمية وادي ميزاب إليها، لكونها لم تعرف في القدم ولو كانت لكان إباضية المشرق أولى بها³.

و يمكننا القول أن أصل الكلمة يعود إلى بني مصعب ولو تغيرت في النطق مع مرور الزمن، ومن الأدلة الهامة حول هذا الأمر ما تذكره المصادر التاريخية ولعل أهمها ما أورده زكرياء يحيى بن أبي بكر⁴ المتوفي سنة 471هـ، لفظ مصعب في كتابة (كتاب سير الأئمة وأخبارهم)، إذ قال: «وكان الشيخ يشي في أريغ، و يربع في البراري عند بني مصعب، وغيرهم وكانوا إذ ذاك واصلية فرد بعضهم إلى الوهيبية»⁵، وإن تعدد الألسنة من غربي وبربري وافرنجي جعل الكلمة تختلف من مصدر إلى آخر ومن كتاب إلى آخر فذكرت "مزاب"، "ميزاب"، "مصاب"، "مضاب"، "مصعب"، لتدل جميعها على منطقة واحدة.

ج-2- أصل بني ميزاب:

من خلال ما أورده في سبب التسمية يتبين لنا أن أصل بني ميزاب هم البربر بالتحديد من قبيلة زناته، وهذا ما يؤكد العديد من علماء منطقة ميزاب وشيوخهم حيث يذكر الشيخ اطفيش⁶ أن هذا الاسم متواجد في

¹ - مجموعة باحثين: معجم مصطلحات الإباضية، ج3، ص951.

² - مرداس بن حدير بن عامر بن عبيد بن كعب الربيعي الحنظلي التميمي المتوفي 61هـ/680م، من عظماء الشراة، تابعي، زاهد، ورع، مجاهد وشجاع، لا يخاف في الله لومة لائم، يقول الحق ولا يبالي، يناقش بالرأي والحجة والدليل، صاحب مبدأ، زاهد وعفيف وناطق بالحكمة، وصاحب كرامات وأقوال مأثورة. ينظر: صالح بن عمر اسماعي: المرجع السابق، ج1، ص-ص(135-136).

³ - علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص312.

⁴ - أبي زكريا يحيى بن أبي بكر الورداني، مؤرخ من أهل ورجلان- ورقلة- درس في واد ريع، وكانت وفاته على الأرجح في ورجلان، وبها قبره سنة 471هـ/1078م، وكان من الأفاضل المقتنفين لآثار الأوائل، وله في علوم أطول باع بأدلة ذات إقناع، وحجج تملأ القلوب والأسماع، من آثاره كتاب "سير الأئمة وأخبارهم"، وهو أقدم اثر تاريخي للإباضيين في المغرب العربي حتى عصر المؤلف، وبقي الكتب مخطوطا إلى سنة 1878 لما ترجمه ماسكراي إلى الفرنسية تحت عنوان "تاريخ أبي زكريا". ينظر: صالح بن عمر اسماعي: المرجع السابق، ج1، ص63، عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان، 1980م، ص341، أبي زكريا يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1979، ص13.

⁵ - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص64.

⁶ - الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش المشهور بقطب الأئمة، أطلق عليه هذه اللقب الشيخ عبد الله بن حميد السالمي من أشهر علماء عمان في العهد الحديث، ولقد الشيخ اطفيش في مدينة غرداية لما انتقل إليها والده في سنة 1820م، ولقد كان والده من الشخصيات البارزة في ميزاب، ولقد توفي والده ولم يتعد الرابعة من عمره وتكفلت أمه بتربيته وتنشئته تنشئة الصالحة، فدخل إلى كتاب المسجد في سن الخامسة، فحفظ القرآن الكريم في سن الثامنة حفظا متقنا، ولقد كان يظهر فيه النبوغ الذكاء الخارق منذ صغره، وأخذ مبادئ النحو والفقه والمنطق على علماء تلك الفترة، وخاصة من طرف أخيه الشيخ الحاج إبراهيم الذي اغترف من معينه العديد من العلوم والمعارف، وكان الشيخ اطفيش عصاميا معتمدا على نفسه

المصادر الإباضية للميزابيين ولا يعدو أن يكون تعريفاً لاسم بربري أمازيغي لا غير، أما الشيخ عبد الرحمن بكلي¹ يرى أن قبيلة بني مصعب البربرية هم السكان الأصليون لمنطقة وادي ميزاب²، ولقد قدم ابن خلدون نسب هؤلاء الميزابيين عندما ذكر أنهم من قبائل زناته البربرية وبالضبط من شعوب بادين الكثيرة العدد ومن ثم فإن بني ميزاب هم من أبناء بادين بن محمد بن زرخيك (زهيق) بن واسين بن ادين بن جانا³، وأيضاً من ناحية ثانية إذا أخذنا اللغة التي يتكلم بها أهالي منطقة ميزاب فهي قريبة من اللغات البربرية كالشاوية والقورارية والشلحية والنفوسية، وهي ذات أصول زناتية، ولقد لاحظ ذلك القنصل الأمريكي بالجزائر خلال الفترة العثمانية وليام شالر بحيث شبه اللغة الميزابية بلغة القبائل وأدرك الفرق بينهما فقال: «هم يتحدثون نفس اللغة التي يتحدثها القبائل

في طلب العلم فسافر إلى مختلف المناطق وطاف العديد منها من أجل طلب العلم وجلب العديد من الكتب النادرة، فكان نابغة زمانه وجلس للتدريس والتأليف وهو في سن السادسة عشر، فكان قبله لطلبة العلم من مختلف المناطق خاصة من قصور واد ميزاب، ولقد انشأ معهداً للتدريس في منزله وكان ذلك في سنة 1837م، وتخرج على يديه العديد من الطلبة، وترك العشرات من التأليف في شتى العلوم والفنون والمعارف، ولقد توفي الشيخ اطفيش في مارس سنة 1914، عن عمر يناهز 96 سنة قضاها في طلب العلم وتربية النشء والتأليف. يحي بن بحون: رحلة القطب، تح: يحي بن بحون، ط1، غرداية، 2007، ص-ص (22-27).

¹ - الشيخ عبد الرحمن بن عمر بن عيسى بكلي الشهير ب: البكري، ولد في 3 أكتوبر 1901م، عالم جليل وشخصية مرموقة ولد بالعطف وعرف بالبكري نسبة إلى أبي بكر الصديق الذي ينتهي إليه نسبه، تعلم القرآن ومبادئ التوحيد في المسجد العتيق بالعطف واحذ مبادئ اللغة الفرنسية بالمدرسة الرسمية، وحفظ القرآن الكريم في مقتبل العمر، ودرس علوم الشريعة على عمه الحاج عمر بن حمو، وبعد وفاة عمه انتقل إلى تونس في أواخر سنة 1922م، والتحق هناك بالبعثة الميزابية التي كان يشرف عليها الشيخ أبو اليقظان إبراهيم، ودرس في جامع الزيتونة على الشيخ الطاهر بن عاشور التفسير والأدب، والبلاغة على الشيخ الطاهر سيالة ودرس العديد من العلوم على جمع من العلماء الأفاضل في الزيتونة، ودرس أيضاً بالمدرسة الصادقية بتونس واخذ على علماءها من أمثال: عثمان الكعاك والشيخ الصادق النيفر العلوم العصرية، ولقد كان طيلة فترة مكوثه بتونس مساعداً للشيخ أبو اليقظان في تسيير شؤون البعثة هناك، وبعد رجوع الشيخ أبو اليقظان إلى الجزائر بقي رفقة الشيخ قاسم بن الحاج عيسى ابن الشيخ مابين 1929/1926م، وكان أيضاً فترة مكوثه بتونس له علاقات وثيقة مع الحزب الحر الدستوري التونسي، ومع زعماءه السياسيين، وعند رجوعه إلى الجزائر عينه الأهالي قاضي محكمة العطف ولكن السلطة الفرنسية لم ترد هذا الأمر نظراً لعلمها بنشاطه السياسي في تونس رفقة الحزب الحر الدستوري، وعند تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان الشيخ عبد الرحمن بكلي من ضمن لجنة الصياغة التي صاغت القانون الأساسي للجمعية، وعين في سنة 1934م عضو حلقة العزابة بالعطف، ولقد كان تاجراً ناجحاً ومساعداً لأبناء وطنه خلال الأزمة الاقتصادية للجزائريين، وكان مسانداً للشيخ أبو اليقظان في نضاله الصحفي ونشرت له العديد من المقالات في الصحف، وكانت له نشاطات بارزة في الميدان الإصلاحي والتعليمي بميزاب، وتفرغ للتعليم في مدرسة بريان، وعند اندلاع الثورة التحريرية شارك مشاركة فعالة في العمل السياسي حتى تم القبض عليه، وبعد الاستقلال عين عضواً في المجلس الإسلامي الأعلى، وتولى رئاسة مجلس عمي سعيد أكبر هيئة دينية واجتماعية بوادي ميزاب، ولقد ترك الشيخ عبد الرحمن بكلي العديد من المؤلفات المهمة والمتنوعة، ولقد وافته المنية في بريان وشيعت جنازته يوم 15 جانفي 1986م. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص 528.521، عبد الرحمن بن عمر بكلي: تقارير البكري حول مدرسة وجمعية الفتح للتربية والتعليم في بريان، المطبعة العربية، غرداية، 2009م، ص-ص (1-4).

² - صالح بن عمر اسماعي: المرجع السابق، ج2، ص568.

³ - مجموعة من الباحثين: معجم مصطلحات الإباضية، ج3، ص951.

ولكن لغتهم أنقى وأكثر أناقة وهذا بدون شك يرجع إلى عاداتهم الهادئة¹، ولها عدة خصائص لسانية ونحوية وصرفية².

أما محمد علي دبور³ فيذكر في أصل الميزابيين ما يأتي: «واصل الميزابيين من العرب والبربر ففي عروقهم دماء العرب والبربر جميعا، ولا صحة لما يدعيه الاستعمار ومقلدوهم من أنهم بربر خلص، فالبربر الخالص إذا أمكن وجودهم في المغرب ففي رؤوس الجبال المنقطعة التي لا تعرف دولة وحضارة، أما الميزابيون فمتحضرون وأبناء أكبر دولة إسلامية نشأت في الجزائر، اختلطوا فيها بالشعوب الإسلامية، لا سيما العرب، فالدماء العربية فيهم أكثر، يدل على ذلك فصاحتهم في العربية وخلوهم من اللكنة الموجودة في بعض أنحاء البلاد»⁴.

ومما يدل أيضاً على امتزاج العرب بالبربر قديما في هذا المنطقة هو حذق سكانها للغة العربية والبربرية معا، مما يبين توارثهما منذ القدم، وازدادت اللغة العربية انتشارا بانتشار الدين الإسلامي وتغلغله في النفوس وتحمس الأمازيغ لهما، فمازالت الكثير من أسماء الفلاحة والنباتات وبعض أدوات الإنسان الرئيسية تسمى باللغة البربرية، مما يؤكد على تأصلها وبقاء إنسانها، وهي تتشابه لحد كبير مع لهجات منتشرة في بلاد المغرب العربي، هذا فضلا عن التشابه في العادات والتقاليد والأمثال والحكم والأهازيج الشعبية والأشعار والأزجال⁵، وهذا الكلام يؤكد

¹- محمد وقاد: جماعة بني ميزاب وتفاعلاتها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الجزائر اواخر العهد العثماني (1112هـ - 1246هـ/1700م-1830م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، اشراف الدكتور: فلة موساوي القشاعي، جامعة الجزائر، 2010/2009م، ص35.

²- مجموعة من الباحثين: معجم مصطلحات الاباضية، ج 3، ص 951.

³- محمد بن الحاج علي بن عيسى بن كاسي بن عيسى حمو بن داود بن امحمد بن داود بن منصور بن إبراهيم دبور، ولقد كان والده الحاج علي من أعيان مدينة بريان، فكان من مؤسسي الجمعية الخيرية في سنة 1927م، وكان عضواً فعالاً بها، وكان أبوه من رجال الحركة الإصلاحية التي قادها الشيخ بيوض، ولقد رزق أبناء قبل محمد ولكنهم كلهم لم يعيشوا ولذلك نذر أن جاءه أبناء سوف يهبه لطلب العلم، وبالفعل جاءه محمد في فيفري من سنة 1919م، ولقد اعتنى والده بتربيته بتربية فاضلة إسلامية أصيلة، لما بلغ سن الخامسة تلقى مبادئ الكتابة والقراءة للقران الكريم، ولقد كان محمد علي منذ صغره تشع منه مخايل النجابة والذكاء والفطنة، ثم توجه إلى معهد الشيخ بيوض بالقرارة بعد حفظه للقران الكريم، وتلقى في معهد الشيخ بيوض ابرز العلوم والفنون وفقه فيها، وكان طالبا نجيبا ونشيطا، وعند تخرجه من معهد الحياة قرر الذهاب إلى تونس من أجل عمال دراسته هناك، وجازف رفقة بعض الطلبة في رحلة سفر خطيرة ومغامرة نظرا للظروف الأمنية في تلك الفترة خلال الحرب العالمية الثانية وغلق الحدود ولكنهم تمكنوا من الوصول إلى هناك وكونوا أول نواة للبعثات البيوضية هناك في تونس، ودخل إلى جامع الزيتونة والخلدونية وبقي هناك في التحصيل وطلب العلم إلى غاية سنة 1944م، ثم قرر الذهاب إلى مصر من أجل الاستزادة أكثر في طلب العلم والاعتراف من معين علماءها المعروفين في تلك الفترة، ولكن كانت رحلته في مصر لا تقل خطورة ومغامرة عن رحلته الأولى إلى تونس، ولقد بقي هناك إلى غاية سنة 1948م، وعند رجوعه إلى وادي ميزاب في سنة 1948م، تقلد مهمة التعليم وقام بتدريس الأدب العربي والبلاغة والصرف والنحو والتاريخ الإسلامي، وتاريخ المغرب العربي والعديد من العلوم الأخرى، ولقد ترك الشيخ محمد علي دبور العديد من الكتب خاصة في مجال التاريخ، وترك أيضاً مكتبة ضخمة ثرية وغنية بمختلف الوثائق المصورة والمسجلة، انتابه مرض عضال وانتقل إلى رحمة الله بمسقط رأسه بريان يوم 13 نوفمبر 1981م. بيوض إبراهيم: حياة وآثار الشيخ محمد علي دبور، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013، صص 49، 25. جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص- ص(812-815).

⁴- محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 1، ص 168

⁵- صالح بن عمر اسماعيل: المرجع السابق، ج2، ص- ص (570-571).

ويقهره أحمد توفيق المدني¹ حيث يقول: «والميزابيون ليسوا كلهم من قبائل نفوسه، بل أن أغليبيتهم فقط نفوسه، وفيهم الكثير من العرب الأقحاح والقليل من القبائل العربية الأخرى²، وهذا الأمر من الناحية التاريخية يعد أمراً طبيعياً ومحملاً جداً، لأن المنطقة جاءت في مكان منيع وبعيد يلتجأ إليه كل من يريد الأمان و الاستقرار خاصة في فترات الحروب، وهناك العديد من القبائل العربية التي جاورت الميزابيين في هذا المنطقة ومنهم من خالطوهم وامتزجوا بهم، وهناك قبائل عربية أخرى لم تمتزج بالميزابيين وبقيت مجاورة لهم إلى يومنا هذا منها قبيلة بني مرزوق وقبيلة المذاييح وقبيلة الشرفة وقبيلة الشعانية والمخادمة³، وفي الأخير نستنتج أن أصل سكان وادي ميزاب هم من البربر ولكن مع مرور الزمن اختلطوا في بعض الفترات بالقبائل العربية التي جاورتهم وخالطتهم وبهذا وقع امتزاج فيما بينهم.

2 - التطور التاريخي والسياسي.

تتمتاز منطقة وادي ميزاب بعمقها التاريخي وعراقه آثارها المادية، فلقد شهدت المنطقة على مر العصور والأزمان تقلب العديد من الأجناس والحضارات التاريخية.

أ - وادي ميزاب خلال العصور القديمة:

كانت منطقة ميزاب عامرة منذ أقدم العصور، حيث ذكر الدكتور بيير روفو في مؤتمر ما قبل التاريخ المنعقد بفرنسا في سنة 1934م، أنه توصل من خلال بحوثه الميدانية في منطقة وادي ميزاب، بأن المنطقة شهدت فترات تاريخية قديمة جداً، وذكر بالتفصيل إحدى عشرة محطة من العصر الحجري الأول، وصف خلالها ما جمعه من أدوات ذلك العصر والتي بلغ عددها: (2959) أداة، بالإضافة إلى ذلك فإن المنطقة غنية بالرسوم على الصخور، تثبت أن إنسان ما قبل التاريخ استقر حيناً من الدهر بهذه البلاد قبل أن تؤول إلى صحراء قاحلة بعد التغيرات المناخية على مر العصور⁴، وهذا الأدوات والصخور المنقوشة والمرسومة، تثبت وجود حضارة إنسانية قديمة، رغم

¹ - أحمد توفيق المدني (1983/1899) ولد بتونس من أصول جزائرية، تخرج من جامع الزيتونة، لكنه لم يحز على شهادة لأنه كان بدون دفتر، ذو ثقافة واسعة، عرف منذ بداية حياته بنضاله الوطني وبنشاطه السياسي، كان من مؤسسي الحزب الحر الدستوري التونسي، ثم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بنادي الترقى بالجزائر العاصمة، كان الناطق الرسمي لجهة التحرير الوطني، وعضوا في الحكومة المؤقتة، وبعد الاستقلال تقلد عدة وظائف دبلوماسية، وله العديد من المؤلفات. ينظر، خير الدين شيرة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م، ج3، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2009م، ص90.

² - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص61.

³ - قاسم بن أحمد الحاج: المرجع السابق، ص59.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص - ص (2-3).

أنها فنيت بعد ذلك، وهي عبارة عن رموز وجروم أمازيغية بربرية، وأعداد وأشكال للحيوانات تدل على حضارة الجنس البربري والبشري لهذه الربوع، وأيضاً تبرز على بعض من مهنة وحرفه كالرعي وتربية المواشي¹.

ب - وادي ميزاب خلال الفتح العهد الإسلامي:

لقد كان الفتح الإسلامي لبلاد المغرب منذ بدايات القرن الأول للهجرة حيث وعلى عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بدأت سرايا الفاتحين تتجه نحو غرب الجزيرة العربية، ففي سنة 27هـ أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه واليه بمصر عبد الله بن أبي السرح بالتوجه بجيشه نحو إفريقية فقدمها عبد الله بن أبي السرح في جيش يتقدمهم الكبار من الصحابة من أمثال عبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن العباس وعقبة بن نافع²، ووقعت معارك كبيرة بين المسلمين الفاتحين والبربر من سكان إفريقية، واستمرت الفتوحات والإرساليات إلى بلاد المغرب إلى غاية أن تم الفتح الكلي للبلاد والحقيقي، وكان ذلك على عهد حسان بن النعمان³ وموسى بن نصير⁴ حيث استتب على عهدهما الوضع في بلاد المغرب وأصبحت البلاد تابعة إلى الخلافة الإسلامية⁵، لكن هذا الاستتباب لم يستمر طويلاً في بلاد المغرب وذلك لطبيعة الإنسان البربري وأيضاً نظراً لطريقة الحكم التي تميز بها بعض الولاة عن بلاد المغرب هذا الطريقة التي لم تعجب سكان المنطقة، لذلك ظهرت الثورات البربرية ضد حكام وولاة بلاد المغرب وظهرت مع هذا الثورات دعوات مذهبية تدعو للثورة ضد الاستبداد والظلم والتعسف الأموي على بلاد المغرب⁶.

ب - 1 - ظهور الحركات الخارجية ببلاد المغرب:

مع السياسة التعسفية التي حكم بها ولاة الدولة الأموية ببلاد المغرب، رفض البربر هذا السلوك المشين والحكم القاسي الذي ميز بعض الولاة على غرار الوالي عنبسة بن سحيم الكلبي الذي سلك مع مسلمي المغرب سياسة أغضبتهم كثيراً، فأتخذ منهم حرساً وبطانة وطالبهم بدفع الجزية وكثيراً من الأساليب الأخرى التي لم ترضي السكان، وظهرت الحركات المضادة للحكم الأموي وكانت الحركة الصفيرية أولى هذا الحركات الخارجة عن سلطة الأمويين والداعية للثورة ضدهم، وقد نشطت هذه الحركة في بلاد المغرب وقامت بعدة ثورات وكان من أشهر زعمائها ميسرة المطغري الذي قاد معارك عدة وأنتصر فيها على العرب من جنود القوات الأموية، ولكن ذلك لم

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية، ص57.

² - مبارك بن محمد المليي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق، نص: محمد المليي، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص22.

³ - استمرت فترة فتوحاته ببلاد المغرب (85/74 هـ).

⁴ - استمرت فترة فتوحاته ببلاد المغرب والاندلس (95/86 هـ).

⁵ - مجموعة من الباحثين: الجزائر في التاريخ العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص (26،25).

⁶ - محمد علي دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ط1، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص - ص(231-232).

يستمر طويلا حيث تدارك هشام بن عبد الملك الموقف حين عين حنظلة بن صفوان على إفريقية سنة 125هـ، وهكذا استطاع حنظلة من القضاء على الحركة الصفيرية وذلك في معركة كبيرة بمكان يسمى الأصنام وهزمهم شر هزيمة، وهكذا لم تقم للصفيرية بعد هذا الهزيمة قائمة، وتشرذ بقايا أتباع الحركة الصفيرية في مناطق متعددة من المغرب و لم يصبح لهم قوة ولا نفوذ يذكر عدا بعض الفترات القليلة¹.

ب - 2- ظهور الإباضية في بلاد المغرب:

إن الحديث عن ظهور المذهب الإباضي وانتشاره يجرنا أولا إلى الحديث عن أسباب ظهور الفرق والمذاهب الإسلامية، وكيف نشأت هذه المذاهب التي تستقي كلها أحكامها وأدلتها من القرآن الكريم والسنة النبوية، وتعتبر موقعة صفين هي الحلقة التي انبثقت منها العديد من المشاكل التي واجهت الأمة الإسلامية في تلك الفترة، وظهور الانقسامات في صفوف المسلمين، وهذا ما أحدث بروز الكثير من الآراء التي أدت إلى ظهور فرق مسلمة لها توجهات خاصة ومن هنا بدأت نشأة الفرق الإسلامية².

وأما عن ظهور الإباضية كمذهب إسلامي، فهي تنسب إلى أحد فقهاء هذا المذهب وهو عبد الله بن اباض التميمي³، أحد رجال المذهب المعروفين في اجتهداهم وحماستهم ونضالهم في مدينة البصرة، وفي بداية النصف الثاني من القرن الأول للهجرة ظهرت الإباضية، ولكنها انتظرت حتى نهاية القرن الأول للهجرة لتظهر على أصولها، على يد إمام المذهب الإباضي التابعي جابر بن زيد⁴ الذي يعتبر إمام المذهب ومؤسسه الحقيقي، وقد

¹ - موسى لقبال: المغرب الإسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص-ص (155-162).

² - محمد بن عميرة: "الصفيرية منذ ظهورها إلى انقراضها"، مجلة الثقافة، العدد 61، السنة الحادية عشر، يناير- فبراير 1981، ص30.

³ - عبد الله بن اباض بن تميم بن ثعلبة، (توفي 86 هـ/705م) من بني مرة بن عبيد، فهو من قبيلة تميم التي كان لها دور هام في الأحداث السياسية في صدر الدولة الأموية، نشأ في مدينة البصرة، وعاصر فترة افتراق المسلمين بعد حادثة صفين، وكانت له مواقف حاسمة من تلك الأحداث، فقد شب في زمان معاوية، وأدرك عبد الملك بن مروان، ويعد عبد الله من التابعين لإدراكه كثيرا من الصحابة، واليه ينسب المذهب الإباضي، كما تذكر المصادر الإباضية، ولقد كانت له مواقف علنية من مخالفي الإباضية، ومناظراته الظاهرة للخوارج ورؤسائهم من أمثال نافع بن الأزرق، لاستحلالهم دماء المسلمين وأموالهم، كما ناظر القادرية والشيعة، واشتهر برسائله إلى عبد الملك بن مروان، التي تضمنت نصائح له وبين فيها آراء جماعته ومواقفها من انحراف السلطة الأموية، وكان يصدر كل ذلك عن مشورة إمام المذهب جابر بن زيد، وكان بن اباض شجاعا ومقداما وشارك في الدفاع عن مكة مع بن الزبير ضد الأمويين، ولهذا عرف أصحابه باتباع عبد الله بن اباض، أما هم فلم يكونوا يطلقون على أنفسهم إلا أهل الدعوة أو أهل الحق والاستقامة، ولكنهم رضوا بهذه النسبة بعد ذلك. ينظر، جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص-ص (551-552).

⁴ - جابر بن زيد اليحمدي الأزدي العماني البصري (ولد 18هـ/639م توفي 93م/711م)، ولد بقرية فرق ولاية نزوي بعمان، ونشأ في أحضان عائلة علم ورواية، وكان أبوه عالما ولعله كان صحابيا، ولما بلغ أشده واستوى قصد البصرة، وهي يومها من بين عواصم البلاد الإسلامية في العلم والأدب والسياسة، واتخذها دار مقام ومدرسة علم، كان ينتقل بينها وبين الحجاز، لاستزادة معرفة أو لتحقيق مسألة أو لملاقة شيخ، ولقد روى الحديث النبوي على ثلة من الصحابة الكبار منهم: عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم أجمعين، ولقد عرف بالزهد والورع، قنوعا، هم الدعوة إلى سبيل الله، لا يخاف في الله جبارا ولا لائما، همته طلب العلم وكثرة الأسفار في سبيله، ولقد ترك جابر أثرا علمية جلية، بعضها في التعليم والإفتاء والأخرى في التأليف والرواية، ولقد كان جابر بن زيد مفتي البصرة، ومن تلامذته أبو عبيدة

أخذ العلم على جمع من الصحابة الكبار كابن عباس وعائشة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أجمعين¹، وكان الإمام جابر بن زيد يعمل في سرية وسلك بأصحابه مسلك الكتمان والعمل بالتقية نظرا للأخطار التي كانت تحرق بهم بسبب تبنيهم هذا المذهب واعتناقهم هذه الآراء، ونظرا لهذا القمع والشدة التي كان يتلقاها أتباع المذهب انتفضت طائفة منهم لتجابه العنف وتتخلى عن الكتمان وترغم هذه الفرقة نافع بن الأزرق²، وأما الإمام جابر بن زيد وأتباعه تمسكوا بمبدأ الكتمان وبهذا حصل الانقسام بين الفرقة الواحدة إلى متشددين ومعتدلين، فأما المتشددون فسموا بالأزارقة وأما المعتدلين فسموا بأهل الدعوة أو الإباضية في وقتنا الحالي³.

ب - 3- انتشار المذهب الإباضي ببلاد المغرب:

ينسب نشر المذهب الإباضي ببلاد المغرب إلى مجموعة من المتحمسين من أصحاب هذا المذهب والذين يسمون بالدعاة ويعتبر "سلمة بن سعد"⁴ هو أول الدعاة الذين نقلوا مبادئ المذهب إلى إفريقية⁵، ولقد كان هذا الداعية يجوب بلدان شمال إفريقية من جهة إلى جهة معتمدا على نفسه ولا يرافقه جيش ولا حرس ولا حتى رفيق، ولقد استطاع بفضل قوة تحملته وصبره أن يصل إلى أماكن بعيدة لم يصل إليها هذا المذهب، واستطاع أن يكون بعثة علمية توجهت إلى البصرة، ولقد اختار أفراد هذه البعثة من مناطق مختلفة في بلاد المغرب ليكونوا فيما بعد هم دعاة ومصاييح نور وعلم في كل جهة من جهات إفريقية، وهكذا سميت هذه البعثة "حملة العلم إلى المغرب"⁶، وعند عودة هذه البعثة إلى موطنها ظهرت بوادر إقامة إمامة الظهور للمذهب الإباضي وهو حلم كل أصحاب

مسلم ابن أبي كريمة، وضمام بن السائب، عمرو بن دينار، وكان إماماً في التفسير والحديث والفقه، وترك موسوعة علمية نفيسة تعرف بـ/ ديوان جابر، وجابر ابن زيد هو إمام أهل الدعوة والاستقامة وواضع قواعد الاجتهاد للمذهب الإباضي، وعنه كان يصدر عبد الله بن اباض موافقه، ولقد قال فيه مالك بن أنس بعد موته «مات أعلم من على ظهر الأرض». ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج 2، ص -ص(217-220).

¹-موسى لقبال: المرجع السابق، ص164.

²- نافع بن قيس الحنفي البكري الوائلي الحروري أبو راشد، ترأس مجموعة من المحكمة التي اقتنعت بآرائه ومواقفه فاننسبت إليه، فهو أمير قومه وفقههم، ومن أهل البصرة، ظفر بصحبة الإمام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وروي عنه، وكان مع مجموعة من أصحابه من أنصار الثورة على عثمان، وكان من صف الإمام علي ووالوه ونصروه ولكنهم رفضوا التحكيم، وناصر عبد الله بن الزبير على الأمويين، ولقد شارك في اجتماع المحكمة بالبصرة سنة 64/683م، فخرج عنهم متزعماً الخروج ومقاتلة الأمويين والاستعراض ولم يوافق عبد الله بن اباض وجماعته، ولقد قتل قرب الاهواز سنة 65/685م. ينظر: صالح بن اعمر اسماوي: المرجع السابق، ج1، ص139.

³- صالح بن عمر اسماوي: المرجع السابق، ج1، ص -ص(139-140).

⁴- سلمة بن سعد ابن علي بن أسد الحضرمي اليمني، عالم عامل وداعية، صنفه الدرجيني في طبقة تابعي التابعين، ولقد اخذ العلم على إمام المذهب الإباضي جابر بن زيد، وعن عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وهو يعتبر أول من جاء من البصرة إلى بلاد المغرب الإسلامي لنشر المذهب الإباضي، ولقد أرسله الإمام أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة، وجاء إلى المغرب رفقة عكرمة مولى ابن عباس، ولقد كان من آثار دعوته إلى بلاد المغرب هو توجه ثلة من المغاربة إلى البصرة من أجل طلب العلم ومن أشهرهم حملة العلم وهم إسماعيل بن درار الغدامسي، وأبو دادود القبلي النفاوي، وعبد الرحمن بن رستم وعاصم السدراتي، ولقد نجحت جهود سلمة بن سعد في نشر المذهب الإباضي ببلاد المغرب، وكان حريصاً في دعوته، ومؤمناً به ومجتهداً له، وانتشرت الإباضية منذ ذلك الحين بفضل. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص -ص(391-392).

⁵-موسى لقبال: المرجع السابق، ص165.

⁶- يحيى معمر: المرجع السابق، ج1، ص -ص(145-146).

هذا المذهب، هؤلاء الطلبة كانوا مزودين بتعليمات مرشدهم ومعلمهم الإمام " أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة"¹ المنظم السري للإباضية في الشرق أو المغرب، فتحرك طلبة العلم بثقة وتفاؤل من أجل محاولة إقامة هذا الأمر وبايعوا " أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري"²، وبايعوه بالإجماع وذلك تحقيقا لوصية شيخهم "أبي عبيدة"، وهكذا تمت مبايعته ودخل طرابلس واستقر هناك³.

وصل خبر قيام إمامة أبي الخطاب إلى الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، الأمر الذي لم يتقبله الخليفة فأرسل إلى واليه بمصر ابن الأشعث لمحاربة أبي الخطاب، وهكذا سارع ابن الأشعث لمحاربة أبي الخطاب، وكانت المعركة الفاصلة بين الجيشين في صحراء السرت الحارقة، وتواجه الطرفان في معركة دامية وقدر عدد جيش أبي الخطاب بـ: (12000) مقاتل وأما جيش ابن الأشعث فقدره بـ: (70.000)، وكانت الغلبة للقوة العددية وهكذا تمكن بن الأشعث من القضاء على أبي الخطاب وقتله وقتل جيشه كاملاً⁴، وضمن العباسيون السيطرة عن ولاية طرابلس وإفريقية وانسحب كثير من الإباضيين إلى الصحراء جنوب طرابلس وتونس والمغرب الأوسط، والتحق ستون شيخاً من شيوخ الإباضية من طرابلس إلى عبد الرحمن بن رستم⁵ بجبل سوفجج ليعينوه في مهامه

¹ - عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي: أصله من فارس، كان آية في الذكاء وأوتي المقدرة والكفاءة في التنظير، وحسن التدبير وسياسي محنك، وعالم جليل، عرفت الإباضية على يديه أكبر إنجازاتها السياسية في المشرق والمغرب، أخذ العلم عن جابر بن زيد ولقد روى عن الكثير من الصحابة من أمثال بن عباس وأبي هريرة وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين، ولقد وهب نفسه لطلب العلم والاستفادة منه، وقد مكث في التعلم طالبا لمدة تزيد عن الأربعين سنة، ومكث في التعليم أستاذاً للمذهب أربعين سنة أخرى، ولكونه نشيطاً وعالماً متفرداً في زمانه كانت أعين الحجاج قد مالت إليه وادخله السجن ولم يخرج منه إلا عند وفاة الحجاج في سنة 95هـ/713م، وتولى بعد ذلك إمامة المذهب الإباضي بعد وفاة الإمام جابر بن زيد فقاد المذهب الإباضي بكل جهد واجتهاد وعزيمة وشهد المذهب الإباضي في حياته نجاحات وإنجازات وانتشاراً كبيراً، وللتمويه على بني أمية ادعى صنع القفاف حتى اشتهر باسم القفاف، وأنكر أي عمل ضد الدولة الأموية ولكنه كان يخفي أعماله ونشاطاته السرية التي كان يقوم بها، ولقد أنشأ مدرسة السرداب في البصرة والتي تخرج منها مشاهير أئمة المذهب الإباضي من أمثال: الربيع بن حبيب، وسلمة بن سعد، وأبي الخطاب بن الأعلى بن السمع، وعبد الرحمن بن رستم وغيرهم، ولقد ترك العديد من المؤلفات والآثار العلمية في المذهب الإباضي، ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج 4، ص- ص (873-875).

² - أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع ابن عبيد المعافري الحميري اليمني (توفي 144هـ/761م)، من علماء اليمن في القرن الثاني للهجرة، أخذ علمه على أستاذ المذهب الإباضي أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، ولقد التقى بالطلبة المغاربة هناك، وبعد خمسة سنوات من التلقي والتزود في العلم انضم أبو الخطاب عبد الأعلى إلى حملة العلم المغاربة، فانتقل معهم إلى المغرب لمواصلة الدعوة هناك ولقد طلب منهم إمام المذهب أبي عبيدة عند مغادرتهم إلى المغرب إذا أصبحت لديهم القوة والتمكين في بلاد المغرب أن يعلنوا الإمامة وأشار عليهم بعقدتها لأبي الخطاب، ولما ذهب حملة العلم إلى المغرب استقروا بطرابلس وعقدوا الإمامة لأبي الخطاب سنة 140هـ، وسار في المغرب بزيارة الخلفاء الراشدين وسلك بالأمة مسلك المسلمين، واحي ما أميت من أمر الدين، ولقد انتصر على جيش العباسيين في معركة مغمداً سنة 142هـ، وانتصر في العديد من المعارك الأخرى ولكن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور خشي من الحكم العباسي في بلاد المغرب، فبعث بجيش ضخم بقيادة محمد بن الأشعث الذي قضى على أبي الخطاب وإمامته في معركة تاورغا سنة 144هـ، ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج 3، ص- ص (505-507).

³ - صالح بن عمر اسماعيلي: المرجع السابق، ج 1، ص- ص (231-233).

⁴ - محمد علي دبور: المغرب الكبير، ج 3، ص 18.

⁵ - عبد الرحمن بن رستم ابن بهرام بن كسرى، علم من أكبر أعلام الإباضية، أوتي الذكاء والطموح والإصرار، فكان عظيماً من عظماء التاريخ، ولد ولد بالعراق في العقد الأول من القرن الثاني للهجرة، ويرجع نسبه إلى الأكاسرة ملوك الفرس، فهم أجداده، إلا أن بعض المؤرخين يعيدون نسبه إلى

ويناصروه، وهكذا ظهرت إمامة الظهور وقيام الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط¹، بعد هروب عبد الرحمن بن رستم وعدد كبير من أهله ومناصريه من يد العباسيين، التجأ عبد الرحمن بن رستم وأنصاره إلى تيهرت وهناك اجتمعت عنده الإباضية وقدموه إماما عليهم، واتفقوا على بنيان مدينة تجمعهم فكانت تيهرت عاصمة دولتهم وكان ذلك في سنة 144 هجرية 762 ميلادي²، وهكذا تأسست الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط، واستمرت إلى غاية سنة 296 هـ وهي السنة التي سقطت فيها عاصمة الرستميين تيهرت بيد الفاطميين الشيعة³.

وعندما قام الفاطميون بتتبع الفارين من الرستميين بالقتل والتشريد، فر أغلبهم إلى المناطق النائية والبعيدة التي لا يطمع الفاطميون في بلوغها ولا احتلالها ففروا إلى وارجلان وإلى جبل نفوسة وجربة وغيرها من المناطق المنيعة البعيدة عن أنظار الفاطميين⁴، ويذكر مفدي زكرياء⁵ في كتابه أضواء على وادي ميزاب أنه قبل وصول الإباضية الرستميين الفارين من الفاطميين إلى وارجلان كان هناك فيها طائفة من نفس المذهب الإباضي فاستقبلوهم

اللدائرة ملوك الأندلس قبل الإسلام، وسافر به والده من العراق نحو الحجاز لأداء فريضة الحج، إلا أن الأب توفي وترك يتيما وأرملة، ثم تزوجت أمه من مغربي أخذها وابنها إلى القيروان، ولقد نشأ عبد الرحمن بن رستم في القيروان أول مدينة إسلامية بالمغرب الإسلامي، وتعلم مبادئ العلوم وصادف نشر الدعوة الإباضية في تلك الربوع، فتعلق بتعاليم المذهب فنصح أحد الدعاة بالسفر نحو المشرق من أجل الاستزادة أكثر فسافر عبد الرحمن بن رستم رفقة حملة العلم المغاربة إلى المشرق، ولقد عين واليا على القيروان بعد إعلان إمامة الظهور بقيادة أبي الخطاب عبد الأعلى، ولقد قاد عبد الرحمن بن رستم جيشا من اباضية القيروان لمساندة أبي الخطاب في معركة تاورغا فسمع بخبر هزيمة إمامه فرج إلى قابس والقيروان، ومن هناك فر إلى المغرب الأوسط بعيدا عن أنظار العباسيين وهناك في منطقة تيهرت اعتصم عبد الرحمن بن رستم رفقة أتباعه بتلك المنطقة المنيعة، وهناك كونوا أول مدينة لهم والتي سوف تصبح عاصمة الرستميين فيما بعد تيهرت، واختير عبد الرحمن بن رستم إماماً للدولة الرستمية في بلاد المغرب الإسلامي، وهكذا حقق عبد الرحمن بن رستم في سنة 160 هـ، ما كان يطمح إليه الإباضية منذ زمن نشأة المذهب، وهكذا التجأ كل الإباضية خاصة من بلاد المغرب الإسلامي إلى الاحتماء بهذه الدولة ومساندتها، وسار فيهم سيرة الحاكم العادل والرشيد، ولم يكتف عبد الرحمن بالإمامة والسياسة وقيادة الجيوش بل كان عالما وفقهيا واشتغل بالتأليف وترك مؤلفات، ولقد توفي سنة 171 هـ/787 م. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص -ص(515-518).

¹-صالح بن عمر اسماوي: المرجع السابق، ج1، ص -ص(235-236).

²-مجموعة من الباحثين: الجزائر في التاريخ، ص 77.

³-صالح بن عمر اسماوي: المرجع السابق، ج1، ص 274.

⁴-محمد علي دهبوز: المغرب الكبير، ج3، ص 618.

⁵-زكرياء بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان المعروف بمفدي زكرياء، المولود في جويلية سنة 1908م، شاعر الثورة التحريرية، ومن المع أقطاب الأدب الجزائري والعربي في العصر الحديث، ولد في بني يسجن بواد ميزاب، وابتداءً مشواره العلمي بأخذ المبادئ الأولى في مسقط رأسه، ولما بلغ السابعة من عمره واصل دراسته بمدينة عنابة، حيث أم حفظ القرآن الكريم، وفي سنة 1924م، انتقل إلى تونس ضمن بعثة علمية طلابية ميزابية، وتعلم في مدرسة السلام القرآنية والمدرسة الخلدونية وجامع الزيتونة، حيث تفتقت مواهبه الأدبية والسياسية وذلك لاحتكاكه وتواصله مع أقطاب وأعلام الحركة الوطنية هناك: مثل الشيخ أبي اليقظان والشيخ اطفيش وصالح بن يحيى وعبد العزيز الثعالبي، وفي سنة 1926 رجع إلى الجزائر وشارك بدور فعال في الحركة الوطنية، وانخرط في حزب نجم شمال إفريقيا والذي نظم له نشيده الرسمي في سنة 1936م، ثم تولى رئاسة تحرير جريدة الشعب لسان حال الحزب، ولقد شارك في الثورة التحريرية منذ انطلاقها ماديا ومعنويا، سواء بالداخل أو الخارج، ولقد سجن بسبب عمله الثوري بين سنتي 1956/1959 وفر بعدها إلى المغرب ثم إلى تونس، وبعد الاستقلال رجع إلى الجزائر، ولكنه لم يدم بها طويلا نظرا للمضايقات التي تعرض لها فاختار تونس والمغرب مكانا لنشاطاته، ولقد ترك مفدي زكرياء تراثاً أدبياً وتاريخياً ضخماً منها ما رأى النور ومنها ما لم يزل مخطوطاً يحتاج للخروج، نال من عاهل المغرب وسام الكفاءة الفكرية من الدرجة الأولى والعديد من الجوائز الأخرى ولقد توفي في تونس في شهر رمضان سنة 1397 هـ/1977م ودفن بمسقط رأسه ببني يسجن بالجزائر. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص -ص(328-331).

وسكنوا في أطراف قراهم ولم يستقروا معهم في وارجلان، لأنه لم تتمازج الأهواء بينهم بحكم أن الفارين كانوا أصحاب حضارة وأهل وارجلان غلب عليهم طابع البداوة، وأنشأ هؤلاء الفارين مدينة سميت ب: سدراته أو اسدراتن¹، وهي تقع على بعد (14 كم) غرب وارجلان، ولقد قام بتخطيطها الأمير يعقوب بن أفلاح²، ولقد كانت سدراته مدينة راقية في ظرف وجيز ومدينة علمية وحضارية³، انتشر بها العلم والعلماء وذاعت روح التعاون والإخاء بين سكانها، واجتمعوا ضد كل عضو خارجي يمس وحدتهم أو أمنهم واستقرارهم⁴.

ولكن هذا الوجود واسترجاع الأنفاس والقوة لم يدم طويلا وذلك لعدة أسباب، من أهمها العدد الهائل من العائلات والأسر الوافدة جعلت مصادر العيش الرئيسية تتضاءل عليهم خاصة من ناحية الكأ والعشب ومجاري المياه، وهو ما جعلهم يفكرون في البحث عن مناطق جديدة للنزوح واللجوء إليها، وأيضاً سقوط دولة بني مدرار ووصول قبائل بني هلال وسليم إلى بلاد المغرب والتخريب الذي شهدته مدينة سدراته في سنة 1051م على يد أمير قلعة بني حماد المنصور بن ناصر، ثم التخريب الثاني سنة 1228م على يد يحيى بن إسحاق المعروف بابن غانية أثناء ثورته ضد الدولة الموحدية، كل هذا الظروف والمشاكل جعلت الإباضية يفكرون في منطقة أكثر أمنا واستقراراً⁵، لذلك أنعقد مؤتمر في واد اريغ سنة 420هـ، للنظر في مسائل تم الإباضية ومشاكلهم وانتدبوا العلامة العلامة أبي عبد الله محمد بن بكر⁶ لكي يجوب الصحراء ويبحث عن موطننا يكون مناسباً للإباضية، فوقع اختياره

¹-مفدي زكرياء: اضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، تح: إبراهيم بحاز، ط1، منشورات الفاء، الجزائر، 2010م، صص(100.99).

²- يعقوب بن أفلاح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (توفي 310هـ/922م)، من أعلام الدولة الرستمية يبدو انه اخذ العلم عن علماء تيهرت آنذاك، اشتهر بذاكرته القوية، وغزارة علمه، ولقد بلغ الغاية في العلم والزهد والورع، فهو معدود في عائلة الرستميين مع أئمة العلم والدين وله إسهام في الحكم والسياسة، وكان شجاعاً حشي الفاطميون منه إحياء الأمة، ولقد تولى إمامة الرستميين سنة 282هـ/895م، ودام فيها أربع سنوات، في ظروف صعبة حيث كثرت الفتن، ولقد اعتزل السياسة وانعزل عنها ولكن بعد أن أقصى أخيه من الحكم وعرض عليه الإمامة قبلها، وبعدها تم عزله أيضاً لصالح ابن أخيه، فرجع إلى العزلة، ومع هجوم العبيدين وسقوط الدولة الرستمية، ففر بأسرته وأتباعهم إلى وارجلان حيث استقبلوهم هناك، وطلبوا منه الإمامة ولكنه رفضها ومكث بسدراته بوارجلان بقية حياته ينشر العلم والدين، وتوفي بها ودفن بها. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج4، ص- ص(992-993).

³- بكر بن سعيد اعوش: وادي ميزاب في ظل الحضارة الإسلامية، ص58.

⁴-عبد القادر موهوبي السائحي: ومضات تاريخية واجتماعية لمدين وادي ريف وميزاب و ورقلة والطيات والعلية والحجيرة، دار البصائر، الجزائر، 2011م، ص35.

⁵-عبد القادر موهوبي السائحي: المرجع السابق، ص117.

⁶- أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطاني، كان أبوه وجده من علماء جبل نفوسة، درس على مشايخ الجبل ثم سافر إلى جربة بتونس فأخذ العلم عن بعض علمائها، ثم انتقل إلى القيروان، وكانت حينئذ عامرة بعلماء الاباضية، وبعد ذلك قرر أن يرجع إلى الإمام أبي نوح سعيد بن زنگيل فعاد إلى جبل نفوسة، وبنى هناك مسجداً في بلدة فرسطاء، فلما انتقل إلى مناطق اريغ أرسل إليه أبو زكرياء فصيل ولديه للتعليم ثم للتحريض على انجاز نظام الحلقة، وعكف أبو عبد الله على إتمامه أربعة أشهر، فلما أتمه عرضه على المشايخ والتلاميذ فاستحسنوه، وكان ذلك في مسجد تقيوس عام 413هـ، ثم رحل بحلقته من تقيوس إلى تنسلي على بعد عشرين كيلومتراً جنوب بلدة تقرت، وكان كثير التنقل بحلقته ولقد كان يشق بأريغ ويربع ببادية بني مصعب، يدعوا الناس إلى المذهب الإباضي وينشر تعاليم الإسلام، وبنى مقامه بالعطف سنة 422هـ، توفي سنة 440هـ، في تنسلي وهي بلدة اعمر اليوم، وهو كفيف البصر بعد ان ترك نظام العزاية الذي خلد ذكره. ينظر: يوسف بن بكر الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص37.

اختياره على منطقة وادي ميزاب التي كانت آهلة في تلك الفترة بسكان من أتباع المذهب المعتزلي، وبعد أن تم الاتفاق على الذهاب إلى وادي ميزاب رجع الإمام عبد الله محمد بن بكر إلى وادي ميزاب وردّ الكثير منهم إلى المذهب الإباضي بعد أن كانوا معتزلة¹، وبدأت الهجرات السكانية نحو وادي ميزاب تتوالى من أوائل القرن الخامس الهجري إلى الثلث الأول من القرن السابع الهجري، وكانت بلدة العطف أول منطقة لهم والتي تأسست سنة 1011م، ثم توالى المدن أو كما تسمى بالقصور السبعة المعروفة للميزابيين²، وتشكلت مراكز العيش الرئيسية للإباضية بوادي ميزاب ونزح إليها عدد هائل من السكان الإباضية من مختلف المناطق كأريغ ووارجلان وجبل عمور وقصر البخاري وقصر بني حفيان قرب المنيعه، ومن جبل نفوسة بليبيا وجربة بتونس والساقية الحمراء وسجلماسة³، ولكي يعيش المجتمع الإباضي بوادي ميزاب حياة الاستقرار والسكينة، بدأ في وضع معالم رئيسية لمجتمعه وطريقة عيشه وتعامله مع الآخرين، فقام بالعديد من معاهدات الصلح والسلم مع القبائل التي كانت منتشرة في تلك المنطقة من أجل سلامة الهدوء فيما بينهم والتعايش السلمي والتعاون الاقتصادي ومن بين تلك المعاهدات نجد المعاهدة التي عقدت مع قرية متليلي التي تبعد عنهم حوالي (30 كم)، وأيضاً المعاهدة التي أقيمت مع قرية الارباع الراحلة وغيرها من المعاهدات الأخرى⁴، وأيضاً من أهم الجوانب التي جعلت الإباضية بوادي ميزاب يعيشون حياة السلم والاستقرار والتعايش فيما بينهم، هو ذلك النظام الديني والاجتماعي الذي أسسه الشيخ أبو عبد الله محمد بن بكر سنة 471هـ/1079م، وهي عبارة عن هيئة دينية وتربوية واجتماعية هدفها نشر الإسلام والدعوة إلى المذهب الإباضي وتطبيق مبادئه ميدانياً⁵، وكان هذا النظام في بادئ الأمر عند تكوينه على شكل حلقة من حلقات العلم والتربية، ثم ترقى إلى نظام اجتماعي يهتم بكل الشؤون الاجتماعية إذ قنن قوانينه فيما بعد العلامة أبو عمار عبد الكافي⁶، وهكذا أصبح هذا التنظيم بمثابة الدستور المكتوب الذي يحدد أشكال الأجهزة المديرة لهذا المجتمع الناشئ وظائفها ومسؤولياتها وواجباتها⁷، وبالفعل استطاع أن يحافظ على سير المجتمع الميزابي وتواجهه رغم كل الظروف الطبيعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها هذا المجتمع، وهكذا استقر الإباضية بوادي ميزاب وأصبحت المنطقة معروفة بهم مذهبياً وإسمياً، إلى حد اليوم، ومع استقرارهم هناك منذ تلك الفترة أصبحت أوضاعهم الاقتصادية أو السياسية والثقافية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً مع متغيرات المنطقة بأكملها على

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(19-20).

² - ويقصد بها القصور السبعة التي أسسها بني ميزاب واستقروا بها، وهي العطف وبني يسجن، وملبكة وبونورة، وتغرايت والقرارة وبريان، ولكل قصر من هذه قصور مجلس عزابة خاص به، ويجمعهم مجلس عمي سعيد كأعلى هيئة لوادي ميزاب. ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص3.

³ - عبد القادر موهوبي السائحي: المرجع السابق، ص-ص(118-119).

⁴ - مفدي زكرياء: المرجع السابق، ص106.

⁵ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص25.

⁶ - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص93.

⁷ - مفدي زكرياء: المرجع السابق، ص103.

حسب الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية وهو ما سنعرفه في النقطة الموالية من خلال الوجود العثماني في الجزائر وعلاقة وادي ميزاب مع هذا الحكم الجديد في الجزائر.

ج - الوجود العثماني بالجزائر وعلاقته بواد ميزاب.

بدأ الوجود العثماني في شمال إفريقيا منذ أن بدأ المهجوم الصليبي على بلاد المغرب، وكان الإخوة بربروس¹ هم من قاد هذه الحملة منذ البداية، ونظراً للهجمات الإسبانية على السواحل الجزائرية اضطر الأهالي بالجزائر لطلب المساعدة من الإخوة بربروس لحمايتهم من الإسبان²، ولقد استجاب الإخوة لهذا الطلب وكان هذا النداء بمثابة نقطة بداية الوجود العثماني بالجزائر.

ومنذ أن تقلد العثمانيون مقاليد الحكم بالجزائر، كان إباضية الجزائر بوادي ميزاب مستقلين عن أي حكم أو دولة في تسيير شؤونهم الداخلية التي كان يتولاها مجلس العزابة ومختلف هيكله الاجتماعية والدينية التي تسيير المجتمع الميزابي³، حيث وقع تشاور ونقاش في كيفية التعامل مع الإدارة العثمانية والحكم العثماني بالجزائر، وفي الأخير تم الاتفاق عن عقد معاهد أو اتفاقية بين سكان وادي ميزاب والإدارة العثمانية بالجزائر⁴، وفي سنة 1516 تحرك إباضية الجزائر لإبرام تلك المعاهدة مع السلطة في الجزائر العاصمة، وتضمنت المعاهدة بنوداً من أهمها ترك السلطة للميزابيين في تسيير شؤونهم الداخلية، والاعتراف بمذهبهم الإباضي واحترام أعرافهم، وحماية ممتلكاتهم وتجارتهم حول مختلف مناطق الجزائر بصفة عامة، وحماية قوافلهم التجارية، وذلك مقابل ولاء الميزابيين للدولة العثمانية وتقدّم خراجاً أو ضريبة سنوية مقدرة باثني عشرة عبداً واثني عشرة أمة⁵، ومن بين الأمور التي ساعدت على توقيع هذه المعاهدة أيضاً هي مجهودات الميزابيين رفقة الإخوة بربروس على تحرير سواحل الشمال المغربي من الغزو الصليبي، وذلك من خلال جهود الشيخ بيجو بن موسى العطفراوي⁶ الذي كان يقود فرقة فرسان

¹ - الإخوة بربروس: هم أبناء يعقوب أحد الجنود الانكشارية للدولة العثمانية، وهم أربعة إخوة إسحاق وعروج وخير الدين والياس، وولدوا في فترة ظهر فيها العداء للإسلام من طرف القوى الصليبية وحركة الجهاد البحري التي قادتها القوات العثمانية، وهكذا نشأ هؤلاء الإخوة في جزيرة رودس التي كانت حافلة بالأحداث التاريخية بين القوات العثمانية والمسيحية، وقادوا فيما بعد حركة الجهاد البحري تحت غطاء الدولة العثمانية واشتهروا في شواطئ الشمال الإفريقي، وخاصة الأخوين عروج وخير الدين، ينظر: مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تح: عبد الله حمادي، دار القصة، الجزائر، 2009م، ص-ص (5-10).

² - مبارك الملي: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص44.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند اباضية الجزائر، ص31.

⁴ - علي يحي معمر: الاباضية في موكب التاريخ، ص241.

⁵ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند اباضية الجزائر، ص31.

⁶ - بيجو بن موسى العطفراوي وقيل أصله أيضاً من بني يسجن، كان من أهل الحرب والبيان، أوتي قوة وفصاحة دافع بهما عن الحق، وقد استدعاه خير الدين بربروس إلى قصره، بعد إحساسه الخطر المحدق بالعاصمة، فكانت له المهمة الرئيسية في تكوين مجموعة من الفدائيين الميزابيين، وهزموا الإسبان بحيلة بتاريخ 24 أوت 1518م، ولقد أبو اليقظان انه كون جيشاً من الصحراء الجزائرية، وقاده للمشاركة في الحرب ضد الإسبان لما استولوا على جزيرة

من الميزابيين و كانت له اتصالات مع الرئيس عروج بتونس، حيث كانت فرقته من بين الفرق المدافعة من الغزو الصليبي لجزيرة جربة في سنة 1510م، وأيضاً من المجاهدين الأوائل الذين شاركوا الإخوة بربروس في جهادهم ضد الإسبان هو أمين الميزابيين بمدينة الجزائر بكير بن محمد بن بكير المليك¹، والذي قاد بفرقة الفدائية هجوماً محكماً وشجاعاً ضد القوات الإسبانية، وذلك عندما استتروا بجنازة وهمية وأوقعوا القوات الإسبانية في فخ لم يستطيعوا الخروج منه وحققوا انتصاراً عليهم²، ومن بين المواقف التي كانت للميزابيين في عهد العثمانيين هو ما كان في فترة ولاية حسين باشا سنة 1630م، عندما قرر مجموعة من الكراغلة طرد الأتراك من الجزائر، واكتشفت خيوط المؤامرة من طرف السلطة العثمانية وقاموا بخطة لإفشال هذا المشروع من خلال تنكر مجموعة من عمال بني ميزاب بملابس نسائية وإخفاء الأسلحة تحتها ودخلوا للحصن الخاص بمؤلاء بسهولة وبمجرد دخولهم إلى هناك هاجموا المتمردين فأخضعوهم وأحبطوا مشروعهم³، كل هذه الأعمال التي كانت من طرف الميزابيين جعلت السلطة العثمانية تقدر لهم جهودهم ولذلك احترمت خصائصهم ومميزاتهم، وأيضاً كان لهم تمثيل داخل الجهاز الإداري العثماني من خلال منصب يسمى "أمين الميزابيين" ويتولى تعيين هذا الأمين مجلس يتألف من سبعة أعضاء يمثلون قصور ميزاب السبعة، ويكونون له مستشارين في جميع قراراته التي تخص التمثيل الدبلوماسي الحسن للميزابيين لدى السلطة العثمانية⁴.

منحت السلطة العثمانية للميزابية بالجزائر العاصمة احتكار المجازر ومطاحن القمح التي بلغ عددها خلال القرن الخامس عشر خمسا وعشرين، وأيضاً المخازن والحمامات، وذلك مقابل إمداد الانكشاريين بما يحتاجونه من اللحوم مجفئة، ولهذا كان الميزابية ملتزمين في أعمالهم من خلال الجدية والالتزام بعملهم فنجد في المذابح، فإنهم كانوا لا يسندون هذه المهنة إلا لمن يحسنها منهم أو من غيرهم⁵.

جربة عام 1520م، ولقد نظم قصيدة في وقائع هذه الحرب أورد منها أبي اليقظان في ملحقة تسعا وعشرين بيتاً، وفي مدينة العطف يوجد مسجداً يحمل اسمه يزار للعبادة والذكرى. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج2، ص-ص(169-170).

¹ - بكير بن محمد بن بكير هو من مليكة بميزاب، كان أمين الميزابيين بالجزائر العاصمة ورئيس جماعتهم هناك، وقد استدعاه خير الدين بربروس العثماني إلى قصره في مهمة سياسية، وذلك عند الهجوم الإسباني وإحاطتهم بالجزائر العاصمة، فساعده بكير بن محمد من خلال تكوين فرقة من الفدائيين الميزابيين، وحقق النصر من خلال الحيلة التي قاموا بها. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج2، ص 191.

² - الحاج موسى بن عمر: القضايا الوطنية والعربية الإسلامية من منظور أعلام ميزاب 1902/1962، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور: شاوش حباسي، جامعة الجزائر، 2007/2008م، ص-ص(13-17).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص-ص(68-69).

⁴ - مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب ماضيها وحاضرها، ص 110.

⁵ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: تاريخ بني ميزاب، ص 69.

ولكن كل هذه الظروف لم تمنع من وقوع بعض الأحداث والمشاكل بين بني ميزاب والسلطة العثمانية ومن تلك المشاكل هو ما وقع في سنة 1792م، من طرف والي قسنطينة صالح باي¹، وذلك في عهد حسن باشا، عندما قام صالح باي بإخضاع مناطق الصحراء للحكم العثماني، ووصل إلى الأغواط وعزم على التحرك نحو وادي ميزاب من أجل إخضاعها بالقوة العسكرية كبقية المناطق، ولما بلغ هذا الخبر إلى أسماع الميزابيين فبدؤوا بالتحرك الجدي والحديث من أجل التواصل مع السلطة المركزية في الجزائر، وإبلاغ الداي حسن باشا بنصوص المعاهدة المبرمة وأن هذا الأمر مخالف لبنود تلك المعاهدة، وذلك بعد الجهود الكبيرة التي قادها الشيخ إبراهيم بن بيحمان² باسم المجلس الأعلى لوادي ميزاب، واتصاله بأمين الميزابيين في تلك الفترة إبراهيم بن صالح من أجل التوسط لدى الداي حسن³، ولقد تفهم الداي حسن هذا الأمر وصادر الأمر إلى صالح باي بعدم التحرك نحو وادي ميزاب⁴.

كان الميزابية خلال العهد العثماني بشكل عام يعيشون في ظروف مستقرة وسلمية، ولقد كان موقف الدولة التركية من الاباضية فيه كثير من التقدير والاحترام والتفهم، ومحاولة الإنصاف، ويظهر ذلك من خلال حضور علماء الاباضية في المجالس العلمية التي كان يعقدها الولاية العثمانية، ولقد كان العلامة أبو يعقوب يوسف بن

¹ - صالح باي بن مصطفى المولود في ازميز بتركيا سنة 1725م، دخل إلى الجزائر سنة 1741م، والتحق بسلك الجندية واخذ يترقى في الوظائف العامة والإدارية حتى ولاه عثمان باشا على قسنطينة سنة 1771م، وبقي باياً عليها حتى مصرعه سنة 1793م، ينظر: يحي بن بهون: رحلة المصعبي، تح: يحي بن بهون، ط1، غرداية، 2006، ص 19.

² - إبراهيم بن بيحمان ابن أبي محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الثميني اليسجني (توفي 1232هـ/1817م)، من علماء بني يسجن البارزين، أخذ العلم عن خاله الشيخ عبد العزيز الثميني، وعن الشيخ أبي زكريا يحي بن صالح الأفضلي، ويعد من أنصار النهضة الإسلامية الحديثة والدعاة لها بالخطب والوعظ والإرشاد، فكان يتنقل بين مدن وادي ميزاب يدعوا للعلم ومحاب الجهل والبدع، له تلاميذ كثيرون وكان له تواصل مع علماء الجزائر والمغرب وعمان، وكان يرأس العلماء والحكام باسم مجلس عمي سعيد الذي كان كاتب تقاريره، وهو شاعر تمتاز قصائده بقيمتها التاريخية وإن لم ترق إلى مستوى الشعر الجيد من الناحية الأدبية، ولقد ترك العديد من المؤلفات، والقصائد، وكان يملك مكتبة ثرية بنفيس المخطوطات انتقلت بعد وفاته إلى حفيده عبد الله بن محمد بن إبراهيم. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج2، ص -ص(22-24).

³ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص25.

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند اباضية الجزائر، ص33.

محمد المصعبي¹ في نظر الدولة العثمانية يمثل العالم والزعيم الإباضي في المغرب بصفة عامة، وكان رأيه يؤخذ دائما في العديد من الآراء والمشاكل التي ظهرت في تلك الفترة².

كانت العلاقة بين الميزابيين والحكم العثماني بالجزائر مستمرة ومتواصلة، إلى غاية نهاية الوجود العثماني بالجزائر، ودخول الاستعمار الفرنسي في يوم 5 جويلية 1830 إلى الجزائر، وما تبعه من تغيرات في كل مناحي الحياة الفرد والمجتمع الجزائري، وحتما ما شهدته المجتمع الميزابي من تغيرات في مختلف الجوانب وهو ما سنعرفه في الفصل الموالي من خلال إطلالة عابرة على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية للمجتمع الميزابي خلال الوجود الاستعماري بالجزائر.

¹ - أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي المليكي (ولد 1669/توفي 1773م)، ولد ببلدة مليكة بميزاب، من عائلة آل ويرو، ثم سافر إلى جربة مع والده سنة 1692م، واستقر هناك، واخذ العلم عن جملة من علماء المذهب الإباضي هناك من أمثال: الشيخ يحيى بن سعيد الجادوي، والشيخ سليمان بن محمد الباروني، وفي سنة 1702م سافر إلى تونس ليستزيد من العلم، ثم إلى مصر حيث حضر دروسا بجامع الأزهر، ثم عاد إلى جربة وقد ملئ علما، وصار مفتي الجزيرة وكبير علمائها ورئيس مجلس الحكم فيها، ولقد كان مهيب الجانب يعظمه الحكام والأمراء، جريئا في قول الحق لا يخشى فيه احد، وكان في نظر الدولة التركية ممثل اباضية المغرب الإسلامي وزعيمهم، ولقد كان بحرا في العلوم المتعددة كعلم الفلك والكيمياء وصنف المؤلفات العديدة فيها، ولقد تخرج على يديه جملة من العلماء سواء من الاباضية أو المالكية. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج 4، ص-ص(1031-1033).

² -علي يحيى معمر: الاباضية في موكب التاريخ، ص 248.

الفصل الأول:

الأوضاع العامة لوادي ميزاب خلال الفترة الاستعمارية

- 1- الأوضاع السياسية.
- 2- الأوضاع الاقتصادية.
- 3- الأوضاع الاجتماعية والثقافية.

سنتعرض في هذا الفصل إلى الأوضاع المختلفة للمجتمع الميزابي، سواء السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية والثقافية، وذلك خلال الوجود الفرنسي في هذه المنطقة، وأهم المتغيرات التي طرأت على المجتمع الميزابي الذي شهد الاستعمار مثل باقي المناطق الجزائرية الأخرى، وسوف نتعرف على أهم النقاط الأساسية في الجانب السياسي بداية من معاهدة الحماية التي عقدها الميزابيون مع الاستعمار الفرنسي من أجل ضمان سلامة واديههم وعدم الدخول إليه، وكيف اخترق الاستعمار الكاذب هذه المعاهدة بعد ذلك، وأيضاً مسألة قانون التجنيد الإجباري التي فرضتها السلطة الفرنسية على كل الشباب الجزائري، وكيف واجه الميزابيون هذا الأمر من خلال المعارضة والمراسلات الكثيرة من أجل إعفائهم من الخدمة العسكرية الإجبارية، وفي الجانب الاقتصادي أيضاً سنتعرف على أهم النشاطات الاقتصادية والتجارية التي يمارسها سكان وادي ميزاب، ومواجهة الميزابيين للمشاكل الاقتصادية التي عاشتها المنطقة خلال الفترة الاستعمارية، ولقد كان أيضاً من أهم الجوانب الاقتصادية في وادي ميزاب هي الفلاحة فلقد كان الميزابي تاجرًا وفلاحًا ماهرًا، وسوف نتعرف على دور المرأة في هذا الجانب الهام من حياة الفرد والمجتمع، أما في الجانب الاجتماعي والثقافي، فهناك العديد من النقاط الهامة في هذا الجانب والتي كان لها دور كبير في الحركة الفكرية والنهضوية في المجتمع الميزابي وأثر هذا الجانب في حركة الهجرة بشكل مباشر، ففي الجانب الثقافي سنتعرف على حركة النهضة الفكرية والثقافية التي قادها رجال الإصلاح في ميزاب، وعن دور التعليم في المنطقة وأيضاً عن أهم مشاريع الاستعمار في هذا الجانب من أجل إجهاد الحركات العلمية التي بدأت في وادي ميزاب، وأما في الجانب الاجتماعي فسنستعرف على التركيبة الاجتماعية للمجتمع الميزابي وأيضاً عن أهمية العشائر في المجتمع، ودور الهيئات الاجتماعية والدينية في وادي ميزاب في المجتمع بصفة عامة.

ومن خلال التطرق للأوضاع العامة لوادي ميزاب خلال الفترة المدروسة سوف نستطيع أخذ صورة ولحة عامة عن الوضع السائد في تلك الفترة ، وكيف أثرت هذه الأوضاع في حركة الهجرة الميزابية إلى تونس.

1. الأوضاع السياسية :

شهدت الجزائر بعد الاحتلال الفرنسي لها متغيرات في كافة مجالات الحياة، وأصبحت الجزائر قطعة فرنسية بموجب القانون الفرنسي، وعلى هذا الأساس كان المستعمر منذ دخوله إلى الجزائر يفكر في الاستحواذ عن الجزائر من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، وبدأ بالفعل في تحركاته من أجل تنفيذ مشروع احتلال الجزائر كاملة، وبالفعل وصل الاستعمار إلى كافة المناطق وإلى منطقة وادي ميزاب التي سوف نتعرف على طريقة احتلالها ومراحلها، ودور الميزابيين في المقاومات الشعبية ومواجهة الاستعمار الفرنسي بمختلف الجوانب.

أ- الاحتلال الفرنسي للجزائر ومشاركة الميزابيين في مقاومة الاستعمار منذ دخوله.

بدأت فرنسا التفكير في احتلال الجزائر منذ حادثة المروحة المزعومة، وفي 30 جانفي 1830 قررت الحكومة الفرنسية و التي كانت تحت رئاسة دي بولينياك، أن تبعث بحملة عسكرية لاحتلال الجزائر، تحت ذريعة العديد من الأسباب الواهية والغير الحقيقية¹، واختارت القوات الفرنسية النزول في شاطئ سيدي فرج ، وكانت المقاومة ضدهم هناك عند نزولهم ولكن القوات الفرنسية حطمتها وقضت عليها، حينها أرسل الآغا إبراهيم أفندي رسالة إلى الداى يخبره بهزيمة الحامية الجزائرية، وأن القوات الفرنسية بلغت أكثر من (20.00) مقاتل، و بذلك أمره الداى بالانسحاب وسوف يرسل له الإمدادات من الجيوش بعد الاتصال بالمشايخ و البايات، وقد وصلت العديد من الإمدادات لصالح جيش الآغا إبراهيم أفندي وكان من بينها جيش صالح باي الذي بلغ (12.00)، وباي التيطري مع (8000)، وشيوخ القبائل ما بين (16.000) و(18.000) وأما أمين الميزابيين فجلب حوالي (4000) مقاتل²، و من خلال هذه الرواية التي قدمها سيمون بفايفر يتبين لنا أن مشاركة الميزابيين في مقاومة الاحتلال الفرنسي منذ بدايته كانت مشاركة قوية وهامة، واستمات هؤلاء المجاهدون في مواجهة الاستعمار الفرنسي والدفاع عن الوطن ، منذ الوهلة الأولى من نزول القوات الفرنسية إلى أرض الجزائر الطاهرة ، وسقط منهم العديد من الشهداء في ساحات القتال³، وللشهداء الميزابيين مقبرة خاصة في سطواولي ولكن معالمها اختفت⁴.

وواصلت القوات الفرنسية الزحف على الأراضي الجزائرية منذ نزولها عليها في 14 جوان 1830م، وبعد مقاومات شعبية قادها الجزائريون إلا أنه تم إجهاضها والقضاء عليها نظرا للعدد والعدة التي امتلكها الفرنسيون، وهكذا استسلمت الجزائر في يوم 5 جويلية 1830م، ووقع الداى حسين معاهدة الاستسلام مع قائد الجيش الفرنسي دي بورمون⁵.

ولما وصل خبر سقوط الجزائر لسلطات القوات الفرنسية، واستسلام الداى حسين، مكث الميزابيون ثلاثة أيام لم توقد النار في بيت من بيوتهم، وذلك حزنا وهماً على هذا الخطب الجلل الذي أصاب البلاد والخطر القادم في المستقبل⁶.

¹-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط4، 1992م، ص17.

²-سيمون بفايفر: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر: أبو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 2009، ص-ص(76-77).

³- ولعل أبرز الشهداء الذين سقطوا في هذه المعركة البطل طفيش داود بن يوسف وهو شقيق الشيخ العلامة محمد بن يوسف اطفيش المعروف بقطب الأئمة، وأيضاً من المشاركين فيها عيسى بن موسى الأمين الذي جرح ونقل إلى ميزاب، وأيضاً نجد من المشاركين في المقاومات الأولى في مواجهة الاستعمار الحاج إبراهيم القراي و السيد سليمان بن كاسي الملقب بالمجاهد وهذا الأخير أسر في بلاد القبائل وتوفي في بلدته القارة. ينظر، يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص81.

⁴-الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص27.

⁵-أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج2، ص-ص(17-18).

⁶-يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص81.

وكانت القوات المقاتلة في الجزائر متناقضة مع سياسة الاحتلال التي كانت مخططة، فقد أعلن ديبرمون أن فرنسا كانت تنوي الاكتفاء باحتلال منشآت بحرية كمدينة الجزائر ووهران وعنابة مع أراضيها¹، ولذلك أعلنت فرنسا في سنة 1834م، عن ضم المحطات الفرنسية في شمال إفريقيا، مع الرغبة في الاكتفاء باحتلال جزئي، ولكن الفشل في سيطرتها الغير مباشرة في الزعامات المحلية أجبرها على الاختيار بين حلين هما الاحتلال الكلي أو الانسحاب الكلي من الجزائر، وهذا الحل الأخير لا يتحملة الكبرياء الوطني الفرنسي، لذلك أعلنت في ديسمبر 1840م، قرارها بالاحتلال الكلي للجزائر²، وفي سنة 1848 صدر دستورا لإحقاق الجزائر بفرنسا³، وبدأت فرنسا في التوسع نحو الجنوب الجزائري الذي كان قد تأثر بصدى الثورات الشعبية في الشمال، وأيقظ الوعي الثوري لديهم فكانت واحات الجنوب الجزائري معاقل وثغور للمجاهدين والثوار، وهذا التواصل الثوري والوطني بين الشمال والجنوب دفع بالقوات الفرنسية إلى شله وطمسه في بدايته قبل أن يكون نقمة عليها في احتلالها للجزائر، وبذلك سخرت كل قواتها من أجل احتلال الجنوب الجزائري، وكانت بداية هذا الاحتلال هو تلك الرحلات الاستكشافية التي قادها نخبة من العساكر والجواسيس الفرنسيين تحت غطاء البحث العلمي والتنقيب التاريخي والجغرافي⁴، ولعل من أوائل الرحلات الاستكشافية التي وصلت إلى منطقة وادي ميزاب هي رحلة "هنري دوفريه"⁵، الذي انطلق من سكيكدة في 8 ماي 1859م، ووصل القرارة في يوم 18 جوان 1859م، ووصل إلى غرداية في يوم 21 جوان، وفي متليلي التقى مع بعض الرجال التوارق من أجل مساعدته في زيارة بلدهم⁶، ونجد أيضاً رحلة "فلاترس" والتي كانت عبارة عن بعثة متكونة من عدة علماء وخبراء، ووصلت هذه البعثة إلى وادي ميزاب وبالتحديد بلدة العطف وبعدها غادروا بلدة العطف في يوم 26 ماي 1880م، ووصلت إلى بني

¹- شارل روبر أجيرون: تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص-ص(26-27).

²- أحمد شقرون: "دور الاحتلال الاستيطاني في سياسة فرنسا في الجزائر وفي تنظيم المستعمرة"، مجلة المصادر، العدد17، السداسي الأول 2008م، ص103.

³- ابو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، ج2، ص20.

⁴- أحمد مريوش: "السياسة الفرنسية في الجزائر وردود الفعل الوطنية ما بين (1900/1930)"، مجلة المصادر، العدد20، السداسي الثاني 2009م، ص-ص(193-194).

⁵- هو المغامر والرحالة هنري دوفريه HENRI DUVEYRIER ولد في 28 فيفري 1840م، درس التجارة والتعليم الديني، وتعلم العربية من أحد المستشرقين المعروفين "فليشر"، ولقد وجه اهتمامه نحو الملاحظات والتاريخ الطبيعي لإفريقيا، ليبدأ مغامراته بسهولة فيما بعد، كانت رحلته الأولى إلى إقليم جنوب الجزائر والتي نشرت يومياتها سنة 1900 بباريس، ثم رجع إلى الجزائر بعد ان التقى الرحالة الألماني الشهير "بارث" في إنجلترا وأعطاها الكثير من المعلومات والنصائح، ثم رجع للجزائر ليقوم برحلته نحو إقليم توات، وقام بالعديد من الدراسات من خلال رحلاته. ينظر: حسن مرموري: التوارق بين السلطة التقليدية والادارة الفرنسية في بداية القرن العشرين، ط1، مطبعة مزوار، الجزائر، 2010م، ص-ص(173-174).

⁶- إبراهيم مياشي: مقاربات في تاريخ الجزائر 1830/1962م، دار هومة، الجزائر، 2007م، ص37.

يزقن أين استقبلهم هناك رئيس الجماعة الحاج يوسف، وغادروها في يوم 28 ماي متوجهين إلى بلدة بريان التي قضوا فيها يومين 30/29 ماي ثم انطلقوا صوب مدينة الأغواط¹.

حاولت فرنسا من خلال بعثاتها الاستكشافية رسم صورة عن المناطق الجزائرية الداخلية وخاصة في الجنوب الجزائري، وقدمت هذه البعثات دراسات وافية ومعمقة حول المناطق الجزائرية في جميع المجالات، و كانت ميزاب إحدى تلك المناطق التي وصلتها العديد من البعثات وأقيمت حولها العديد من الدراسات من أجل الإعداد لضمها الرسمي ضمن الحكم العسكري الفرنسي والإخلال بالمعاهدة التي كانت موقعة بين الطرفين ، وهو ما سنتعرف عليه وعن حيثيات هذه المعاهدة وظروف نقضها نظرا لمشاركة الميزابيين في الثورات ضد فرنسا.

ب - مشاركة الميزابيين في المقاومة الشعبية وعقد معاهدة الحماية بين الفرنسيين و الميزابيين.

كنا قد ذكرنا أن بنو ميزاب شاركوا بقوة في القوات التي حاربت القوات الفرنسية منذ نزولها على شاطئ سيدي فرج، ولم تكن هذه المشاركة الوحيدة بل كان الميزابيون مشاركون في جل المقاومات الشعبية التي شهدتها الجزائر، حيث شاركوا في المعارك الطاحنة التي قادها كل من ابن زعمون والحاج سيدي السعدي وغيرهم²، ولكننا سوف نقتصر على مقاومة الأمير عبد القادر وأيضاً مقاومة الشريف بن عبد الله.

لما انضم الحاج سيدي السعدي إلى جيش الأمير عبد القادر التحق معه المجاهدون الميزابيون، ولقد قرحم الأمير عبد القادر منه لإخلاصهم، حتى أنه قرب منه المجاهد باي أحمد بن بابا عيسى³ الذي كان طبيب الأمير الخاص وكتابه وأمينه السري، وحضر مع الأمير معاهدة التافنة الشهيرة⁴، ونجد أيضاً الحاج سليمان بن داود العظفاوي الذي كان من أثرياء مدينة تيارت و نواحيها، وكان ذا جاه عريض، وقامت فرنسا بمصادرة كل أملاكه بسبب نشاطه في ثورة الأمير عبد القادر وإمدادها بالمال والسلاح، ومن التجار أيضاً نجد حمو بن يحيى يدر أصيل مدينة بني يزقن⁵.

وأيضاً الحاج داود بن محمد أميني المدعو دادي بابا، وهو من الأثرياء المعروفين بمنطقة قصر البخاري والخلفة الذي سخر ثروته لصالح الأمير، وكان أمين ماله ويطبع له سكتة نقودا ذهبية، ويقوم بتمويل جيش الأمير من خلال مصانع السلاح بوادي ميزاب، وقام أيضاً بالتكفل بأبناء الشهداء الذين سقطوا في المعارك، وذلك من

¹- إبراهيم مياسي: التوسع الاستعماري في الجنوب الجزائري، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الأول حول فصل الصحراء عن الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، دار القصة، الجزائر، ص ص(225-226).

²- يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 82.

³- باي حمد بن بابا عيسى (حي في الخمسينات ق13هـ/الاربعينيات ق19م)، من رجالات مدينة مليكة بميزاب، اتخذ الأمير عبد القادر بن محي الدين الجزائري طبيبه الخاص وكتابه، وأمين سره. ينظر: جمعية التراث: معجم اعلام الإباضية، ج2، ص167.

⁴- الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص - ص(28-29).

⁵- يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 82.

خلال تسخير (60) مرضعة للأطفال الذين فقدوا أمهاتهم، فكانت مكانة عائلة أميني لدى الأمير كبيرة، حيث أسند بيت مال المدية لدى الحاج يوسف أميني شقيق الحاج داود، وأما بيت مال الجلفة فلقد كان أمين ماله محمد بن صالح أميني¹، وأيضاً من أهم المقاومات التي شارك فيها الميزابيون هي مقاومة محمد بن عبد الله² في الجنوب الجزائري وهي المقاومة التي جعلت من الحاكم العام للجزائر "راندون"³ يصدر أوامره بإلحاق وادي ميزاب تحت الحكم العسكري الفرنسي.

استطاع محمد بن عبد الله أن يستقطب حوله العديد من القبائل منها الأربع والحرازة وأولاد سيدي الشيخ وبني ميزاب والشعانة والمخادمة والعديد من القبائل الأخرى، وساهم بني ميزاب في تأييد مقاومته من خلال تزويده بالجنود المشاة وأيضاً بالمؤن والذخيرة رغم تهديد السلطة الاستعمارية بالامتناع عن ذلك، وورد أمر من طرف الجنرال راندون بمنع بيع الميزابيين الحبوب في جميع أسواق المناطق التالية وحجز كل القوافل التي لا تخضع لهذا الأمر⁴.

ومع بداية قوة ثورة محمد بن عبد الله شعر الجنرال يوسف⁵ بخطر هذه الثورة، فأرسل برسالة إلى الحاكم العام، وأصر فيها على وجوب احتلال الأغواط التي التجأ إليها المقاوم الآخر الناصر بن شهرة، وبالفعل توجهت

¹ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص29.

² - هو محمد بن عبد الله أحد أبطال المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الفرنسي، وتذكر الوثائق الفرنسية على أنه من أولاد سيدي أحمد بن يوسف من قبائل الغسول التي تنتشر خيامها شمال تلمسان واسمه الحقيقي إبراهيم بن أبو فارس أو إبراهيم بن عبد الله، استقر في تلمسان سنة 1840م، واشتغل كمعلم للقرآن للصبيان، ولقد بدأ ظهور محمد بن عبد الله على مسرح الأحداث في عهد الأمير عبد القادر، عندما حاول التقرب من الفرنسيين ضد الأمير، ولكن الفرنسيين لم يستجيبوا لأمره وأمره بمجرة البلاد وأداء فريضة الحج، غادر الجزائر متوجها نحو مكة المكرمة وأقام هناك فترة من الزمن، وتواصل مع محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية، و أيضاً مع الأتراك، وتحالف معهم من أجل مكافحة الاستعمار، و لقد دخل الأراضي الجزائرية عن طريق الحدود الليبية باسم جديد و هو الشريف محمد بن عبد الله وكان ذلك سنة 1850م، و تصادف دخوله مع وفاة سلطان ورقلة الحاج أحمد بن بابيه، تاركا السلطة في يد ابنته لالة الزهرة والتي عرضت منصب السلطان على محمد بن عبد الله فقبله، ومن هنا عرف أيضاً باسم سلطان ورقلة. ينظر: إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934م، دار هومه، الجزائر، 2012م، صص(107-108).

³ - راندون: هو الحاكم العسكري للجزائر بين (1857-1858) واسمه الكامل هو الكونت جون لويس سيزار الكسندر راندون cont. Jean Louis alexander randon، ينظر: عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1997م، ص574.

⁴ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص31، إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للجنوب الجزائري، المرجع السابق، صص(113-114).

⁵ - هو يوسف جوزيف فتيني يقال أنه لقيط ويحتمل انه ولد بجزيرة ألب بتوسكانا في حوالي سنة 1809م، وقع في قبضة القراصنة الذين باعوه في تونس، حيث أصبح مملوك الباي الذي رعاه أحسن رعاية، ولكنه غدر به وفر إلى الجزائر في سنة 1830م، عن طريق دسائس السفارة الفرنسية بتونس، وذلك لكي يشارك في الحملة الفرنسية على الجزائر كمترحم ولكنه وصل بعد نهاية الحملة، فأخترط في صفوف الجيش كمترحم وكون فرقة من المملوكيين في الجيش الفرنسي، وتقلد العديد من المناصب ونال الرتب العسكرية الواحد تلو الأخرى حتى وصوله إلى رتبة جنرال في 19 جويلية 1845م، و جنرال فرنسا في سنة 1851م، وبعد عام قلد وسام الصليب الكبير، ولقد توفي بـ"كان" في 16 مارس 1866م، ينظر، إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، ص139.

قوة عسكرية بقيادة بيليسيه، وفي يوم 4 ديسمبر 1852م، تم احتلال الأغواط بعد معارك مريعة، وقامت مجموعة من الميزابيين العارفين بمسالك الصحراء بتهريب المجاهد محمد بن عبد الله، وأصبحت وادي ميزاب وجهاً لوجه مع الجيوش الفرنسية التي أصبحت تفكر بجدية في التوجه صوب وادي ميزاب واحتلالها¹، وكان صدق وقوع الأغواط في يد الاستعمار الفرنسي ذو أثر كبير على الجنوب بأكمله، ولهذا سارعت مجموعة من بني ميزاب وبالضبط من قصر بريان بإرسال رسالة خطية إلى الجنرال بيليسيه في 12 ديسمبر 1852م، تطالب فيها بالأمان بعد ما شرحت موقفها من تأييدها للمجاهد محمد بن عبد الله²، ولقد عرض الوالي العام على بني ميزاب في رسالة مؤرخة يوم 24 جانفي 1853م، استعدادده لتأمين المسافرين عبر أرجاء المناطق المحتلة، وتأمين تجارتهم فيها، مقابل خضوعهم ودفعهم لفرنسا خراجاً قدره خمسة وأربعون ألف فرنك³، وختم رسالته بتهديد شديد للهجة، وهو ما جعل الميزابيين ينتابهم القلق الشديد من انتقام السلطات الفرنسية منهم وهم الذين شاركوا في كل المقاومات الأخرى⁴، وهنا انقسم الميزابيون إلى فريقين، فريق رأى الجنوح إلى السلم والمصالحة درءاً للفتن والمفاسد، وأما الفريق الثاني فلقد كان موقفه صارماً وهو موقف الدين والعقيدة ويجب التعامل مع هذا المستعمر والمغتصب للأرض والوطن، ورأى ضرورة إعلان الجهاد والمقاومة مهما كانت العواقب، ولكن الرأي الأول هو الذي رَجَح وأختير ولقد تزعم هذا الرأي أعيان وادي ميزاب و رؤساء العشائر⁵، أما الرأي الأول فقد مثله عزابة وادي ميزاب و على رأسهم قطب الأئمة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش⁶ الذي قال مقولة خلدها التاريخ يقول فيها «إن تشييع

¹ - حاج إبراهيم حاج أحمد: المؤسسة التنصيرية في الصحراء الجزائرية في نهاية القرن 19م (مزاب و الأهقار نموذجاً)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتورة: فاطمة الزهراء قشي، جامعة قسنطينة2، الموسم الجامعي: 2011-2012م، ص-ص(33-43).

² - إبراهيم مياسي: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية، ص125.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص128.

⁴ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص34.

⁵ - للتعرف أكثر حول ترجيح الرأي الأول عن الثاني وتغليب رأي الأعيان عن رأي رجال الدين والعلماء ينظر: قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(42-46).

⁶ - لقد كان الشيخ اطفيش قطب الأئمة مناهضاً للاحتلال الفرنسي، ويحرض طلابه على ذلك، وكان موقفه كبير وقد دعا إلى مقاطعتهم، وعدم التعامل معهم، ويذكر أنه نصب خيمة في حومة الدبدابة بين غرداية وبني يزقن، احتجاجاً على دخول فرنسا للمنطقة، وقد عارض الاتفاقية كما رأينا، ولقد قبض عليه ونفي عن وادي ميزاب لمدة عشرة سنوات، وكان حريصاً على وحدة المسلمين ويحزنه أمرهم الذي آلو إليه، ويدعو للمجاهدين في كل العالم الإسلامي، وكانت له مراسلات مع السلطان العثماني عبد الحميد الثاني والعديد من الزعماء في العالم الإسلامي، وقدمت له فرنسا نيشان الاستحقاق، نظراً لحله لغز الماء في وادي ميزاب، ولما جاء ممثل الحكومة لكي يوشحه النيشان ألقى له الشيخ طرف رداءه السفلي لكي يعلقه، ولما سئل عن ذلك قال لهم الإسلام يعلو ولا يعلى عليه. ينظر، سعيد بن محمد بن سعيد الهاشمي: العلاقات الثقافية العمانية الجزائرية في العصر الحديث من خلال فكر الشيخ قطب الأئمة ابن اطفيش، منشورات مخبر البحث التاريخي "مصادر وتراجم"، جامعة وهران، ط1، 2013م، ص-ص(56-58).

ثمانين جنازة في اليوم من الميزابيين أحب ألي من أن يطرق سمعي أن فرنسا وضعت قدمها على حجر من تيضفت».¹

واجتمع مجلس عمي سعيد² من أجل تعيين وفد من أعيان قصور وادي ميزاب السبعة للسفر إلى الأغواط في 22 ابريل 1853م، لإبرام المعاهدة مع السلطات الفرنسية³، وتوجه الوفد نحو الأغواط وقابلوا الكومندان دوباراي وأبرموا معه معاهدة الحماية باسم الوالي العام على الجزائر راندون، في تاريخ 29 أفريل 1853م⁴، وتعهد وتعهد فيها الوالي العام لبني ميزاب بحفظ بلادهم واحترام معتقداتهم وصيانة عوائدهم، وبحقهم في تسيير شؤونهم الداخلية بأنفسهم، ودون أي تدخل فرنسي، وأيضاً وجب على الميزابيين غلق أسواق المنطقة أمام الثوار⁵.

وبدأت مرحلة جديدة بمنطقة وادي ميزاب ودخولها في مرحلة الحماية الفرنسية، وباشرت فرنسا في خلق صراعات داخلية بمنطقة وادي ميزاب، وأيضاً إثارة المناوشات بشكل مباشر أو عن طريق التدخل الخفي، ولعل من أبرز هذه المشاكل هو دخول الرائد مرغريت إلى غرداية بالقوة بعدما منعه الأهالي من دخولها صحبة فرقته العسكرية فقام بكسر البوابة ودخول المدينة وهو يقرع الطبول⁶، ومن الأعمال العدائية الأخرى التي قامت بها فرنسا هو تكليف اليهودي "يتح" آغا على منطقة ميزاب، وذلك بعد أن عرضت هذا المنصب على العديد من الأهالي ولكن نظراً للمقاطعة التي قام بها أهالي المنطقة لم يتقدم أحد لهذا المنصب، ونجد أن حتى النساء الميزابيات كان لهم دور ريادي في مقاومة الاستعمار من خلال المقاطعة التي قمن بها فنجد أن الجماعات الدينية للنساء نظمن مؤتمراً تحت رئاسة رئيسة الجماعة الدينية النسائية بغرداية وهي "مامة بنت سليمان"⁷، وقررن إصدار أوامر

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 40.

² - مجلس عمي سعيد، هو مجلس العزابة الأعلى ويتكون من كبار أعضاء العزابة في القصور الإباضية، بحيث يمثل كل قصر ثلاثة علماء هم شيخ العزابة في القصر والإمام وشخص ثالث ينتخبه مجلس العزابة، ويجتمع مجلس العزابة مرة كل ثلاثة أشهر، ويعقد اجتماعات طارئة إذا استدعت الضرورة لذلك، ويجتمعون في مقبرة الشيخ سعيد بن علي الجري، هذا الشيخ الذي نسب إلى اسم المجلس، ولهذا المجلس مهام عديدة في تسيير شؤون المجتمع الميزابي الإباضي، المهام الدينية والدينية المختلفة. ينظر: عوض محمد خليفات: النظم الاجتماعية والتربوية عند الإباضية في افريقية في مرحلة الكتمان، مجدلاوي، ص - ص (53-55).

³ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 35.

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 40.

⁵ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 35.

⁶ - حاج إبراهيم حاج المحمد: المرجع السابق، ص 37.

⁷ - مامه بنت سليمان باباز، ولدت خلال سنة 1863م، درست علوم الشريعة واللغة العربية مدة ثلاث سنوات على الشيخ بوهونا وموسى، واستظهرت نصف القرآن، وأكملت دراستها على زوجها الأول الذي بقيت معه عامين، تولت رئاسة الغاسلات عام 1906م، ومن البدع التي حاربتها مامه بنت سليمان، استقبال النساء لسيلان الوادي بالزغاريد، وكذلك عادة بوغنة للاستسقاء، أن هيئات الغاسلات لمدن ميزاب نظمن ملتقى تحت رئاستها، وقررن مقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها، وكانت هذه المرأة عظيمة ومفخرة في وادي ميزاب، توفيت في 18 فيفري 1931م، ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 240.

بمقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها"¹، وهكذا شارك كل المجتمع الميزابي في مجابهة الاستعمار، وبعد تعيين الآغا يتح اليهودي في ميزاب، اعتبروا ذلك إهانة لهم وتدخل في أمورهم الداخلية، وأمرًا مناقضاً لبنود المعاهدة المبرمة، وامتنعوا بالإجماع عن قبوله، إلا أن السلطات تحدثت الشعور القومي والديني للميزابيين ونصبته عليهم، وكان نتيجة هذا الأمر هو اغتيال هذا اليهودي من طرف السيد إبراهيم كولا، يوم 21 جويلية 1860م، وذلك بالقرب من برج كاركار بين بني يزقن ومليكة²، فأغضب هذا الأمر القوات الفرنسية وحاولت التعرف عن القاتل ولكنها لم تصل إلى أي نتيجة، وهو ما دفع بالسلطة الفرنسية بفرض غرامة مالية كبيرة على الميزابيين قدرها ثلاثين ألف فرنك جزاء إخفاء القاتل، وعشرة آلاف فرنك دية لأهل القتل³، ومن الأسباب الأخرى التي جعلت جعلت السلطات الفرنسية تنقم على الميزابيين هو رفض جماعات بني ميزاب من بني يزقن ومليكة وبونورة والعطف وبريان إيفاد ممثلين عنهم لحضور احتفالات استقبال الإمبراطور نابليون الثالث للجزائر العاصمة في سنة 1860م، وهو ما جعل من الجنرال يوسف يعاقبهم بغرامات باهظة⁴.

ومنذ توقيع المعاهدة لم تنم أعين الفرنسيين على منطقة وادي ميزاب وإنما كان الجواسيس الفرنسيون يقومون بأعمالهم على أكمل وجه، فلقد كانت التقارير اليومية تسجل وترسل إلى الإدارة الفرنسية، ولاحظوا أن القبائل الصحراوية تحتاز المنطقة للتزود بكل المؤن ومنها الأسلحة والبارود، حتى أعتبر هؤلاء الجواسيس أن ميزاب هي المصدر الرئيسي لتموين المقاومات الشعبية المختلفة ضد الفرنسيين، وكان البارود يصل على شكل مادة خام إلى ميزاب، ثم يتم معالجته ليصبح مادة قابلة للانفجار، وكانت عيون الفرنسيين تدرك كل هذه الأعمال، وتترصد كل النشاطات التي كانت بين الميزابيين والثورات الشعبية بالجنوب الوهراني⁵، وشارك الميزابيون أيضاً في مقاومة الشيخين المقراني والحداد عام 1871م مشاركة قوية، وسقط في ميدان الشرف الشهيد أحمد بن صالح بولعاش من غرداية أمام بيت المقراني والذي كان قائد المقاومة في المركز الرئيسي للمقاومة، وشاركوا أيضاً في مقاومة أولاد سيدي الشيخ الأولى (1864-1869)، وقد مؤن الميزابيون هؤلاء بالمؤن والذخيرة، وأيضاً في معركة بوعمامة⁶

¹ - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص 420.

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 132.

³ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 37.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 133.

⁵ - حاج إبراهيم حاج محمد: المرجع السابق، ص 39.

⁶ - الشيخ بوعمامة قائد الثورة الشهيرة في الجنوب الغربي الجزائري المنتسبة إليه، وهو محمد بن العربي بن الشيخ بن الحرمة الشهير ببوعمامة، ولد حوالي سنة 1838 وتوفي سنة 1908م، ولقد تصدى للزحف الاستعماري في الجنوب الوهراني، وكبد الجيش الفرنسي خسائر فادحة، ينظر: الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 41.

أرسل رئيس بني ميزاب الحاج يوسف بن محمد السرار برسالة إلى الشيخ بوعمامة يعلمه فيها بمساعدته لإثارة بني ميزاب ضد الفرنسيين ولكن الرسالة وقعت في يد أحد عملاء الفرنسيين¹.

هذه الأسباب كلها جعلت من فرنسا تتذرع بأن الميزابيين نقضوا المعاهدة المبرمة بينهم، وأنهم لم يفوا بالبنود التي كانت في المعاهدة وبقت ميزاب تُمون الثورات، وأسواقهم مفتوحة للثوار والمقاومين من كافة أنحاء الوطن²، وفي يوم 26 أكتوبر 1882م، تلقى القائد العسكري الجنرال دولاتور دوفيري برقية تحتوي أمر من الحاكم العام للجزائر لويس ترمان، لاحتلال ميزاب وإلحاقها نهائياً بالأقاليم الجزائرية المحتلة، وغادرت القوات الفرنسية الأغواط في يوم 10 نوفمبر 1882م، ووصلت إلى غرداية في يوم 17 نوفمبر، وألحق ميزاب رسمياً بفرنسا يوم 30 نوفمبر 1882م، وسط سخط شعبي كبير واحتجاج ومعارضة قوية من طرف الهيئات الدينية خاصة الشيخ محمد بن يوسف اطفيش الذي قبض عليه الجنرال دولاتور يوماً كاملاً³، وهكذا دخلت غرداية مرحلة أخرى من مراحل التواجد الفرنسي بالمنطقة.

ج - قرار إلغاء معاهدة الحماية وإلحاق وادي ميزاب رسمياً بإدارة الاحتلال الفرنسي.

لقد قال الكاتب الفرنسي اوغستان برنار: «باستيلائنا على ميزاب قضينا على عش الثورة الدائم والمستودع الذي يجد فيه الثوار ضدنا الأسلحة والعتاد والتموين»، ويمكن الإشارة إلى أنه قبل الإلحاق الرسمي لميزاب بالإدارة الفرنسية كان قد أصدر قرار شديد اللهجة إليهم من طرف الوالي العام للجزائر لويس تيرمان⁴ في نوفمبر 1882م، يهددهم فيه بالإلحاق العسكري إذا لم يكفوا عن الإخلال ببنود المعاهدة وتعاونهم مع الثوار⁵، وجاء ضمن نص الإلحاق ما يلي: « لا نوظف عليكم آغا ولا قائدا ولا قاضيا من أبناء العرب، بل نترككم على حسب توجيه فوائدكم ومرافقكم، مرتبطين بجماعاتكم فيما يؤول إلى تصرفاتكم، متعلقين بمشائركم الإباحية فيما يرجع إلى فصل نوازلكم».

وفي نوفمبر 1882م، أصدر الوالي العام قرارا يقضي بإنشاء دائرة عسكرية بغرداية تشمل قرى ميزاب السبع و آغاليك ورقلة وشعانية متليلي وشعانية المنيعه، ويكون على رأس هذه الدائرة قائد أعلى تحت أوامره مكتب عربي⁶، وقد كان سكان ميزاب يعتبرون هذه القرارات جائرة، ويجب العودة بالعمل ببنود المعاهدة الأولى، ولكن كل أشكال الاحتجاج التي قام بها الميزابيون باءت بالفشل، وأصبحت كل القوانين العسكرية الصادرة من طرف

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 134.

² - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 46.

³ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 42.

⁴ - حاكم عام للجزائر من 1881/11/26 إلى 1891/04/18م.

⁵ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 47.

⁶ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 149.

الإدارة الفرنسية تطبق على وادي ميزاب، وخضعت ميزاب إلى حكم القياد التابعين للحاكم العسكري الفرنسي، وعين في كل قصر من قصور ميزاب من يتولى هذا المنصب و يُنفذ أوامر الفرنسيين من مراقبة للأهالي وتطبيق سياسة فرنسا، وبذلك تقلصت السلطة الدينية في ميزاب، وحتى في مجال القضاء نجد أنها قلصت مهام رجال الدين في هذا الجانب¹، وفي 24 ديسمبر سنة 1902م، صدر قانون إنشاء أراضي الجنوب، وأصبحت غرداية ملحقة عسكرية تابعة إلى القيادة العسكرية بالأغواط، وعين القواد في القصور السبع كما ذكرنا، وفي مجال القضاء أيضاً أصدر الوالي العام قراراً بإنشاء سبع محاكم إباضية بمدن ميزاب، وأيضاً إنشاء مجلس للاستئناف بغرداية والذي سُمي بمجلس عمي سعيد²، وعين أعضاء هذه المحاكم كلهم بعد أن اقترح الشيخ محمد بن يوسف اطفيش أسماء لإدارة هذه المحاكم³.

وأصبحت كل قرى ميزاب تابعة للإدارة العسكرية الفرنسية عن طريق القياد وأيضاً حتى عن طريق هذه المحاكم، رغم المعارضة والمشاكل التي كانت تقع بين العزابة وأعيان البلدة ضد هؤلاء القياد، هذه المناوشات كانت تصل إلى الاعتداء وانتهاك الحرمات والقتل أحياناً، كل هذا بسبب الأعمال السرية الفرنسية من أجل زرع الفتن وروح العداوة بين السكان⁴.

وتأثرت العديد من الجوانب الأخرى في حياة المجتمع الميزابي بهذا الإلحاق ولكننا سنتك الحديث لكل جانب في مبحثه الخاص، ولعل من أبرز القرارات السياسية التي كان لها تأثير كبير وردود أفعال قوية في وادي ميزاب هو قانون التجنيد الإجباري وهو ما سنتطرق إليه في هذه النقطة الموالية.

د - قانون التجنيد الإجباري وموقف سكان وادي ميزاب منه.

في 31 جانفي 1912م نشر منشور تعديل شروط الالتحاق ونسبة المنح، حيث نص هذا المنشور بالإضافة إلى أربع سنوات المعتادة في نظام الالتزام ثلاث سنوات مقابل منحة تقدر بـ (250 فرنك). كما أنشأ نظام منح خاص بتجديد التطوع بشكل متتالي يقدر بـ (350 فرنك) للمتطوعين الذين يقضون 12 سنة من الخدمة الفعلية دون زيادة في المعاش. المنشور صدر في 3 فيفري 1912م المتعلق بتجنيد الأهالي الجزائريين عن طريق القرعة حيث حددت مدة الخدمة بثلاث سنوات مقابل منحة تقدر بـ (250 فرنك). كما نص المنشور على إجراءات

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ الحاج: المرجع السابق، ص 49.

² - للاطلاع أكثر حول أسماء القياد في كل قصر من قصور ميزاب خلال الوجود الفرنسي بالمنطقة، وأيضاً التعرف على أسماء القضاة المكلفين من طرف الإدارة الفرنسية بشكل أكثر، ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص - ص (151-160).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص - ص (151-158).

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ الحاج: المرجع السابق، ص 51.

أخرى مثل الإعفاء وتأجيل التجنيد والاستثناءات¹، وبادرت السلطات الفرنسية في الجزائر إلى إحصاء الشباب المؤهلين للخدمة العسكرية. غير أن هذا المشروع رُفض وقد ازدادت المعارضة عند الشروع في عمليات الإحصاء في مدينة الجزائر، وهران وقسنطينة، أما النخبة الجزائرية التي كانت تمثلها جماعة الشباب الجزائريين في هذه الفترة فقد وجدت في هذا المشروع فرصة لحصول الأهالي على بعض الحقوق. أما ممثلو الأهالي فقد قدموا عشرات اللوائح للحكومة العامة بالجزائر مستنكرين هذا القانون، وتوجهت لجنة من الأهالي إلى العاصمة الفرنسية باريس برئاسة بوضربة محملة بمحملة من المطالب للحكومة الفرنسية.

وأرسلت لجنة أخرى بقيادة ابن رحال إلى الحكومة الفرنسية لمطالبتها:

- إما بسحب مشروع التجنيد.
- أو منح تعويضات مقابل تطبيقه.
- أو توفير الحرية للهجرة إلى البلاد الإسلامية².

وأعتبر سكان وادي ميزاب هذا الأمر لا يعينهم، لأن المرسوم كان يخص الإقليم المدني فحسب، ولكن المرسوم كان يمس أبناء منطقة الشمال وهذا الأمر يعتبر مشكلة لديهم نظراً لوجود العديد من الشباب الميزابي في الشمال الذين رحلوا للتجارة، وهم يعيلون أهاليهم في وادي ميزاب، ولهذا بدأ العديد من الشباب في ترك أعمالهم ومصدر رزقهم والتوجه جنوباً إلى وادي ميزاب هرباً من التجنيد الإجباري، وبدأت المعارضة القوية لهذا القانون من طرف أعيان المنطقة، خاصة جهود الشيخ زكريا زكري بن سعيد وهو أحد أعيان قصر بني يزقن الذي قاد حركة المعارضة لسنوات ضد قانون التجنيد الإجباري، فنجدته في سنة 1912م توجه إلى باريس على رأس وفد من أعيان ميزاب في مدن الشمال، وتواصلوا مع محامين فرنسيين وقابلوا وزير الداخلية الفرنسي وسلموا له عريضة باسم سكان وادي ميزاب والتجار في الشمال في ديسمبر 1912م³، واستمرت محاولات بني ميزاب من أجل اعفائهم من التجنيد الإجباري مستمرة، ففي سنة 1914م، أرسلوا وفداً ثانياً إلى باريس من أجل هذا الأمر، وأيضاً خلال

¹ - شارل روبيير اجيرون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1919.1871، ج2، تر: حاج مسعود بلعربي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م، ص741.

² - نادية طرشون و آخرون: "الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال"، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، دار هومة، الجزائر، 2007م، صص(151-152).

³ - ناصر بالحاج بن باحمد: "موقف سكان وادي ميزاب من التجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي (مايين 1912-1925)"، مجلة الحياة، العدد11، صص(45-105).

الحرب العالمية الأولى استجابت جميع مناطق التل الجزائري وبعض مناطق الجنوب للتجنيد الإجباري، إلا بني ميزاب فإنهم امتنعوا عن هذا الأمر¹.

وفي سنة 1918 كانت بداية التجنيد الفعلي لحصة بني ميزاب من المجندين ضمن دفعة 1919م، وبلغ عددهم 238 شاب، غير أن جماعات بني ميزاب امتنعوا عن وضع القوائم الخاصة بالمجندين تعبيراً عن رفضهم، ولكن القوات الفرنسية وبمساعدة القواد في سنة 1919م، تمكنوا من تحديد القوائم الخاصة بالمجندين، واستطاعت بتجنيد نصف العدد بالقوة والنصف الآخر هرب إلى مناطق أخرى في وادي ميزاب².

بقيت الاحتجاجات من طرف الميزابيين حول هذا القانون متتابة، حتى صرح الوالي العام في 12 ماي 1920م، بأن الميزابيين رعايا فرنسيين وأنهم ملزمون بالتجنيد، وهكذا تجند الكثير من الشباب الميزابي مرغمين وغير راضين بهذا الوضع الذي يتنافى مع معتقداتهم الدينية³ ولكن كل هذا لم يشفع لهم لدى الإدارة الفرنسية، وفي سنة 1930م، أرسل وكيل الأمة الميزابية برسالة إلى رئيس الجمهورية وذلك عند ذكرى مرور قرن عن احتلال الجزائر، فاغتنموا الفرصة بتوصيل رسالة حول شكواهم من التجنيد الإجباري وكان أول مطلب هو: «اعفاءنا من الجندية الجبرية فإننا كنا في حالة قيامنا بتعمير ذلك الوطن الخالي جنود متطوعة نتحمل من التكاليف الشاقة مالا يتحمله الجنود النظامية، وإرهاقنا فوق ذلك بالخدمة العسكرية معنا إفناؤنا و تخريب بلادنا...»⁴.

ولم تتوقف محاولات الميزابيين في توقيف هذا القانون عن شبابهم واعفائهم من التجنيد الإجباري، وبقي الأخذ والرد مع السلطة الفرنسية، وخاصة بعد توكيل الشيخ عمر بن عيسى بن إبراهيم⁵ حول هذه القضية، إلى أن جاء القانون الذي يلغي التجنيد الإجباري للجزائريين في يوم 6 فيفري 1947م بقرار من الوزير المفوض الوالي العام على الجزائر شاطنيو⁶.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص218.

² - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص- ص(88-89).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص219.

⁴ - عمر بن عيسى بن إبراهيم: بيان حقيقة عن التجنيد الاجباري وما نتج عنه بوادي ميزاب، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1350هـ، ص14.

⁵ - عمر بن عيسى بن إبراهيم الحاج محمد (ولد في سنة 1884م/ توفي في 29 ديسمبر 1973)، من مواليد مدينة العطف بميزاب، تلقى تعليمه الأول بها، وكان تاجرا بالخراس، واحتك مع الشخصيات البارزة في تلك الفترة مما جعله يكتسب الخبرة و الشجاعة الأدبية والثقافية والسياسية، وهذا ما جعله يساهم في حركة الأمير خالد وأيضاً جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي سافر معها رفقة الوفد الذي ترعاه عبد الحميد بن باديس إلى باريس سنة 1939م، وكان مفوض الأمة الميزابية للدفاع عن حقوقهم تجاه فرنسا، خاصة في قضية التجنيد الإجباري، وألقي عليه القبض بسبب أغرار بعض المسؤولين به، وقضى أربعة أشهر في سجن البيض، وأطلق سراحه بسبب سنه، وشارك في النشاط الصحفي للشيخ أبي اليقظان، وينسب إليه كتاب " بيان حقيقة"، ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص- ص(647-648).

⁶ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص222.

هكذا قاوم الميزابيون التجنيد الإجباري، وهناك العديد من الأحداث السياسية الأخرى التي ميزت المنطقة ولكننا اقتصرنا على هذه الأمثلة في هذا المبحث وسوف نتعرض لبعض العناصر الأخرى المتداخلة مع المبحثين المواليين وخاصة في المبحث الأخير من الناحية الاجتماعية والثقافية من حيث تداخل بعض رجالات الحركة الإصلاحية مع الإدارة الفرنسية.

وتتميز الوضع السياسي بصفة عامة بالمهادنة بين الطرفين، فالميزابيون لم يريدوا أن يربطوا أي علاقة مع الإدارة الفرنسية، ومن أهم الأمثلة ما أطلعنا عليه في قضية التجنيد الإجباري، وأيضاً في مسألة معاهد الحماية التي أرادوا من خلالها عدم التدخل في شؤونهم الداخلية وتسيير أنفسهم بأنفسهم، وهو الأمر الذي لم يستمر نظراً للأسباب التي تطرقنا إليها، وكانت هناك تدخلات خاصة في مجال القضاء وتعيين القياد، وستتطرق إلى الجانب الموالي والهام أيضاً وهو الجانب الاقتصادي للمجتمع الميزابي خلال تلك الفترة وأهم المميزات التي شملت هذا الجانب والمتغيرات الاقتصادية للمجتمع في ظل الاستعمار الفرنسي.

2- الأوضاع الاقتصادية

من المهم جداً في مثل هذه المواضيع التي تمس الجانب الاجتماعي أو الظواهر التاريخية الاجتماعية، التطرق إلى جوانب الموضوع و مؤثراته من مختلف النواحي، ولهذا سنتطرق إلى الجانب الاقتصادي للمجتمع الميزابي خلال الحقبة الاستعمارية، وأهم عوامل الاقتصاد الميزابي في تلك الفترة، وكيف أثر هذا الجانب على الحياة الاجتماعية والثقافية في واد ميزاب وعن حركة الهجرة.

وبصفة عامة لو تحدثنا عن الجانب الاقتصادي للجزائري مع دخول الاستعمار الفرنسي، فقد كان يعتمد على النشاط الزراعي الذي تجود به التربة الخصبة والمناخ المعتدل، وبدخول القوات الاستعمارية إلى الجزائر، كان نظرها مباشراً نحو تلك الأراضي الخصبة، وانتزعتها من أصحابها، وقدمتها للمستوطنين، الأمر الذي انعكس على الفرد الجزائري بالسلب اقتصادياً واجتماعياً، وجعله يفكر بالهجرة نحو الخارج، كما تعرضت التجارة الجزائرية في فترة الاستعمار الفرنسي إلى الهيمنة عليها والتحكم فيها من خلال سن العديد من القوانين التي قيدت حركة التجارة الجزائرية وفق ما يخدم المصالح الفرنسية¹، وهناك العديد من القوانين والأساليب الاستعمارية في الميدان الاقتصادي التي جعلت الفرد الجزائري بصفة عامة يعيش حالة من اليأس والفاقة، فلقد ألزمت عليهم الضرائب المتنوعة والمتعددة، فهناك الضرائب القانونية وأيضاً الضرائب الدينية كالزكاة والعشور، وضريبة السخرة، كل هذا أرهق كاهل المواطن الجزائري البسيط الذي فكر في الهجرة من بلاده التي لم تعد توفر له لقمة العيش²، فرغم الظروف القاسية

¹ - أحمد بن جابو: المهاجرون الجزائريون ونشاطهم في تونس (1830-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور: يوسف منصورية، جامعة تلمسان، 2010-2011م، ص-ص (108-113).

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، ص120.

للطبيعة والتضاريس التي تعرفها بلاد الشبكة أو وادي ميزاب كما تعرف، إلا أن الفرد الميزابي قاوم كل تلك الظروف وجعل من الأرض القاحلة والجرداء، أرضاً مذللة وسهلة لاستخراج الخيرات عن طريق الفلاحة التي امتهنها جل الميزابيون، وكانت هي المورد الأساسي للرزق رفقة التجارة التي كانت هي أيضاً مورداً هاماً.

أ - الفلاحة:

منذ أن وصل بنوا ميزاب إلى بلاد الشبكة ، غلب على حياتهم الاستقرار والاطمئنان والهدوء، واهتموا بتربية الماشية ورعايتها في البادية الفسيحة، والأودية الطويلة، وهذا ما جعلهم يربطوا علاقات مع عدة قبائل مجاورة لهم بحكم مساحات الرعي، ومناطق الكأ والمياه، وكانت على العموم أوديتها خصبة وصالحة للرعي، نظراً لانتظام تساقط الأمطار في معظم شهور السنة¹، مع مرور الزمن بدأت حياة الاستقرار تظهر على المجتمع الميزابي، فبدأ التفكير في نسق التحضر والتوطن على حساب البداوة والتنقل، ولذلك بدأت التجمعات السكانية في المدن أو القرى ، وبدأت عملية حفر الآبار من أجل القيام بزراعة مستقرة، ومن بين أهم المزروعات التي تعلموها من السكان الوافدين عليهم من منطقة أريغ وسدراته هي زراعة النخيل التي لم تكن معروفة لديهم في تلك الفترة²، وأولوا عناية خاصة بغرس النخيل، لكون هذه الشجرة متحملة لقلة المياه وقساوة المناخ، واعتنوا أيضاً بشمارها استهلاكاً وحفظاً وتخزيناً، وجلبوا العديد من أنواع النخيل إلى منطقتهم حتى بلغ عدد أنواع النخيل بوادي ميزاب حوالي أربعمئة نوع³، واستطاعوا أن ينشئوا واحات من النخيل على هذه المنطقة الوعرة والتضاريس الصعبة، واستعانوا على قساوة الطبيعة، بعقيدتهم المتينة، وصبرهم القوي على متاعب العيش، وأيضاً كدهم المستمر وتقديسهم للعمل اليدوي⁴.

ومن إبداعات الميزابيين في ميدان الفلاحة ومقاومتهم للطبيعة، هو نظام السقي الذي اعتمدوه من أجل إيصال المياه إلى أشجارهم وغراسهم، فكان حفر الآبار، وأيضاً نظام حصر المياه، بحيث ليست الأهمية في البئر وطريقة حفره، وإنما الأهمية تكمن في كيفية استغلال مياه تلك الآبار، حيث لا تغرف بطريقة مباشرة من طرف الإنسان وإنما يستعمل فيها الحيوان، مثل الأحمرة والبغال والجمال، التي تنقل حسب حركية آلية معينة ذهاباً وإياباً، وذلك تحت مراقبة أحد الحراس، باستعمال أدوات وأساليب سقي مدروسة ومحسوبة بطريقة نظامية⁵.

وعقدت العديد من الاتفاقيات واستصدرت العديد من القوانين التي تنظم الحياة الزراعية والفلاحية وعملية توزيع المياه بين الفلاحين في وادي ميزاب في كامل القصور السبعة، وذلك من طرف هيئة العزابة ، وكل ذلك من

¹ - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص-ص (318-319).

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (23-24).

³ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص63.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص24.

⁵ - مفدي زكرياء: حصص إذاعية، تح: مطفي بكير حمودة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007م، ص303.

أجل التقسيم المتساوي بين الجميع، وأيضاً عدم وقوع الخلافات والمشاحنات بين سكان المنطقة في مسألة توزيع المياه، ومن هذه القوانين على سبيل المثال ما أصدره مجلس العزابة في سنة 1642م حول مسألة الاعتداء عن نظام السواقي من خلال الزيادة عن حجمها الحقيقي والمشروط، فاتفقوا عن غرامة قدرها خمسة وعشرون ريالاً ومعها النفي¹، وبهذا واصل الميزابيون في الاهتمام بالفلاحة وإصلاح الأراضي الزراعية واستغلالها، وانتهجوا نظام التقشف في حياتهم اليومية وتطبيق نظام الاكتفاء الذاتي، وكانت النخلة محور نشاطهم الفلاحي لكونها مصدر للعديد من المنتجات الأخرى غير الثمار التي يجنونها من هذه الشجرة، فكانت مصدراً للعديد من الصناعات التقليدية والاستعمالات اليومية لسكان وادي ميزاب².

ومع دخول الاستعمار الفرنسي إلى وادي ميزاب تمسك السكان بأراضيهم، وحاولوا أيضاً القيام بالعديد من المشاريع الإصلاحية في مجال الزراعة، فمنها على سبيل المثال مطالبة سكان وادي ميزاب سنة 1884م، عندما قام الوالي العام تيرمان بزيارة لوادي ميزاب، فطالبوه بحفر آبار ارتوازية في المنطقة من أجل تزويد غاباتهم بالمياه³، وتأسست بوادي ميزاب شركة استغلال المياه المختلفة تحت الأراضي بالجنوب الجزائري، وهي شركة اقتصادية متكونة من رؤوس أموال أجنبية مختلطة، وهي تقوم تقريباً بري ثلثي واحات ميزاب، وتسقي على حد سواء واحة القرارة بأكملها وبعض الواحات الأخرى التي لا تبلغها مياه الري⁴.

فوجد هذا الإحصاء الذي قامت به السلطات الفرنسية والمتمثلة في الكومندان روبين لقرى ميزاب السبعة، حول أعداد النخيل والآبار الموجودة في المنطقة، وفي التقرير الأصلي موجودة واحة ضاية بن ضحوة، ولكنني اقتصر على وضع القصور السبعة لبني ميزاب، ويذكر في التقرير الرسمي أيضاً في خانة الملاحظات أن منتوج التمور يصل إلى (63.000) قنطار من النوعية الجيدة للتمور.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (42-46).

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص41.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص170.

⁴ - مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، ص217.

البلدة	النخيل	الآبار الحية	الآبار الناضبة
غرداية	64074	1240	275
مليكة	2865	173	23
بني يزقن	25875	417	124
بونورة	9954	248	
العطف	16483	343	90
بريان	27855	274	
القرارة	28000	280	
مزاب	175106	2975	512

جدول يوضح عدد النخيل والآبار الحية والناضبة بقصور ميزاب السبعة بعد الالحاق الفرنسي¹.

من خلال الجدول الموضح نستنتج مدى تعلق الميزابيين بزراعة النخيل والاهتمام بها، وهذا نلاحظه من أعداد الآبار في كل قصر من القصور، ونعلم المجهود البدني الكبير الذي يستغرقه حفر بئر واحد، فكانت الغابة والنخلة بالأساس أمراً مهماً في حياة الفرد الميزابي، حتى أننا نجد في أحد الرسائل المرسلة إلى القيادة العسكرية بفرنسا حول مسألة التجنيد الإجباري، مطلباً يذكر عن قيام بني ميزاب بتعمير تلك المنطقة الخالية والقاحلة وتحملهم مشاق وتكاليف التعمير، فطلبوا اعفائهم من الخدمة العسكرية التي ترهق كاهلهم إضافة لما يعانونه من مواجهتهم لهذه الطبيعة القاسية ومحاولة تعميرها و تطويعها².

ويمكن أن نعطي نسبة امتلاك كل فرد ميزابي للنخيل في الجدول التالي:

القصر	عدد النخيل للفرد الواحد
غرداية	4.5
مليكة	1.5
بني يزقن	5
بونورة	7.9
العطف	9.4
بريان	5.5
القرارة	8
مزاب	5.4

¹ -Le commandant robin: **le Mzab et son annexion a la France**, imprimeur libraire de l'académie, Alger, 1884,p16.

² - عمر بن عيسى بن إبراهيم: بيان حقيقة، ص14.

ولم تقتصر الزراعة على النخيل فقط وإنما كانت هي الغالبة، فنجد أيضاً زراعة الحبوب وزراعة الخضر والفواكه التي توفر للفرد الميزابي الاكتفاء الذاتي¹.

عام 1919-18	20-19	21-20	22-21	
100 هكتار	200	70	70	قمح
300 هكتار	400	140	250	شعير
300 قنطار	340	210		قمح
1200 قنطار	200	1012		شعير

جدول يوضح زراعة الحبوب في ملحقة غرداية².

لم يكن العمل في الفلاحة كما ذكرنا أمراً سهلاً، وإنما على عكس ذلك فلقد كانت المهنة متعبة وشاقة جداً، فقد كان الفلاح الميزابي يقضي جُل يومه في مزرعته، ويستمر ذلك طول فصول السنة من أجل أن يكون محصوله الزراعي ذو جودة ومقبولاً، ويتحمل في ذلك كل مشاق العمل وما يصاحب هاته المهنة من مخاطر قد تعثر به³، ومما يزيد في صعوبتها هو الظروف المناخية التي قد تقع، مثل حالات الجفاف التي تصيب المنطقة، مما يؤثر على المحاصيل الزراعية والمنتوج الفلاحي، كما حدث سنوات 1949/1943م، وعُرفت بسنوات القحط، وهلك خلالها عشرات الآلاف من النخيل⁴، ومع الفلاحة اهتم أيضاً الميزابيون بتربية المواشي من أجل استغلالها والاستفادة من منتوجها سواء حليبها أو لحومها أو أوبارها وصوفها.

تربية المواشي

كما ذكرنا سابقاً أن المجتمع الميزابي كان في أول الأمر مثله مثل باقي القبائل البدوية، يعتمد على تربية المواشي والتنقل بحثاً عن مواطن الكأ والمياه، وبعد حياة الاستقرار امتلك الميزابيون في كل قصر من قصورهم العديد من المواشي والحيوانات التي يستخدمونها في استعمالاتهم اليومية في خدمة الفلاحة، وكانوا يمتنون الرعي، فلقد كان لكل فرد مجموعة من الماعز من أجل لبنها، وأما البغال والحمير والجمال، كانت العامل الأول والمشجع للفلاحة والحمولات، وأيضاً للتنقل بين القرى، ونجد أيضاً تربية الدجاج وبعض الحيوانات التي كان يستفيد منها الفرد الميزابي من أجل حياة التقشف والاكتفاء الذاتي⁵.

¹ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1340هـ/1921م إلى عام 1395هـ/1975م، ج1، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م، ص98.

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص212.

³ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، ص97.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص212.

⁵ - مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب، ص219.

النوع	غنم	ماعز	جمال	خيل	بغال	حمير
ملحقة غرداية	28767	27244	6123	26	311	1821

جدول يبرز الثروة الحيوانية التي كانت متواجدة في ملحقة غرداية سنة 1930م¹.

وخلقت هذه المهن سواء الفلاحة أو الرعي في شخصية الفرد الميزابي العديد من الخصال والأخلاق والعادات الاجتماعية الحسنة، فتعلم الصبر والحلم، وروح التعاون والإرادة وروح المغامرة، وأيضاً حب الوطن والانتماء إليه، كل هذه الخصال اكتسبها من خلال هذه المهنة البسيطة، وأعطته أيضاً القوة الجسمانية والذهن الصافي²، والعديد من الشخصيات الميزابية التي كانت حاملة هم التغيير والإصلاح في وادي ميزاب امتهنوا الفلاحة واشتغلوا فيها، فأثر ذلك في عقليتهم وأخلاقهم وهو ما سنعرفه في الفصول القادمة.

ب - التجارة

كانت التجارة إلى جانب الفلاحة من أهم الموارد الاقتصادية للفرد الميزابي، واشتهر بني ميزاب بهذا العمل شهرة واسعة، وأصبحت تجارتهم ومحلاتهم منتشرة في القطر الجزائري، ومورداً هاماً أثر على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في منطقة وادي ميزاب، وإن لموقع غرداية بصفة عامة أهمية بالغة في حركة التجارة والطرق التجارية منذ فترات زمنية بعيدة، فقد اكتسبت المنطقة أهمية من كل الأوساط الصحراوية الأخرى، إذ تعتبر ملتقى للتجار قبل اجتيازهم مفاوز الصحراء الكبرى³، فبعد أن كان الفرد الميزابي منكمشاً لفترات طويلة في الواحات وفي مناطق الرعي، صار يمارس مهنة التجارة متنقلاً بين البلاد ومكوناً بذلك أعرافاً وتقاليدها، وقد كان يغيب عن موطنه فترات طويلة، وأصبح الفرد الميزابي يملأ المدن والقرى الجزائرية والغير الجزائرية بهذا النشاط والحركة التجارية التي تميز بها⁴.

وفي القرن الثامن عشر الميلادي كانت القوافل المارة على غرداية تحمل إلى الشمال التمور والملح والعاج والذهب والجلود والأقمشة وريش النعام، وإلى الجنوب الحبوب والزيت والسكر والنحاس ومنتجات مصنوعة بالتل وأوروبا، واستمرت على هذه الشاكلة لقرون كهمة وصل بين التل والسودان، كما كانت مرحلة في التبادل التجاري بين قورارة وتوات غرباً ومنطقة وارجلان شرقاً، وهو ما جعل مدن وادي ميزاب تعيش مرحلة من الانتعاش

¹ - عبد القادر قوبع: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و1954م، دار طليطلة، الجزائر، 2013م، ص36.

² - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، ص-ص (106-107).

³ - مفدي زكرياء: أضواء على تاريخ وادي ميزاب، ص226.

⁴ - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص327.

الاقتصادي والاجتماعي¹، وكانت هناك بعض الصعوبات في الطرق التجارية من خلال عمليات القرصنة واعتراض طريق القوافل التجارية من طرف قطاع الطرق، وكثيرا ما كانوا يسلبون أموال الضعاف منهم، فتولدت عندهم فكرة رد العدوان ضد هؤلاء، فالتحذت هذه القوافل التجارية الاحتياطات اللازمة للحراسة من امتلاك السلاح، ومعرفة استعماله عند اللزوم، وأيضاً استصحب الحراس الأشداء الأمناء في تلك السفرات الطويلة، وبذلك أصبح قطاع الطرق يخشون الاقتراب من قوافل بني مزاب ويتعدون عنها، وأصبح أولئك الحراس كأنما يمتحنون حرفة الحراسة، ولهم أجور معينة من كل رحلة من الرحلات التي تقطعها تلك القوافل²، ونظراً لتلك المخاطر التي كان يتلاقها التجار، فقد اضطر الميزابيون إلى توجيه تجارتهم نحو الشمال، حيث قصدوا أماكن يستطيعون من خلالها ربط علاقات تجارية واسعة، واختاروا مناطق هامة من الناحية الاقتصادية والتجارية، مثل الأغواط والجلفة والمدينة والجزائر العاصمة والبليدة، وكانت العاصمة الأوفر حظاً، باعتبارها الوسط الاقتصادي الأعظم، فأقاموا بها وفتحوا هناك محلات تجارية منذ بداية القرن الرابع عشر ميلادي³.

وخلال الفترة العثمانية وفد على مدينة الجزائر العديد من المهرجات الميزابية من أجل التجارة، وقد قدمت لهم الحكومة العثمانية بالجزائر عدة تسهيلات و امتيازات كنتيجة للمواقف البطولية التي قاموا بها ضد القوات الاسبانية بجانب العثمانيين، وهكذا تمتع الميزابيون بصلاحيات واسعة هناك⁴، و عين أمين للميزابيين⁵ في الجزائر، من أجل تمثيل الميزابيين لدى الداي، وإيصال مطالبهم وصوتهم للسلطة العثمانية، وأيضاً كان مكلف بجمع الضرائب من خلال صندوق التضامن الذي كان مورداً مالياً هاماً، من خلال الإتاوات السنوية التي يجمعها، وأيضاً الإتاوات الأسبوعية التي يدفعها الميزابيون التجار في مدينة الجزائر، والعديد من المداخل الأخرى التي تصله من مختلف الميزابيين المتواجدين في مناطق أخرى خارج مدينة الجزائر، وهو ما أكسب هؤلاء الأمناء بمراتب عليا ومكانات مرموقة لدى السلطات العثمانية⁶.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص53.

² - علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص332.

³ - مفدي زكرياء: ومضات تاريخية على وادي ميزاب، ص-ص (227-228).

⁴ - محمد وقاد: المرجع السابق، ص50.

⁵ - هو المسؤول الميزابي في عاصمة الدولة الجزائرية على عهد العثمانيين، ثم في الفترة الفرنسية، كما يطلق على نفس الشخص اسم أمين الجماعة، وهو يمثل الأقلية الميزابية لدى السلطة العثمانية (1515-1830)، أو لدى السلطة الاستعمارية الفرنسية (1830-1962)، ويتم ترشيحه من طرف أعيان قرى وادي ميزاب، ليكون ممثلاً لهم لدى الباي أو الداي العثماني أو الحاكم الفرنسي، ومن مهامه إقامة الصلة بين المجتمع والسلطة ومراقبة الرعايا، وجمع التبرعات، وكان في بادئ الأمر متواجداً في مدينة الجزائر فقط، وبعد تكاثر الميزابيين في المدن المختلفة تعدد الأمناء، ولقد أصدر الحاكم العام الفرنسي في الجزائر قراراً يبين فيه مهام أمين الميزابيين وكان ذلك في 31 جانفي 1838م. ينظر: مجموعة من الباحثين: معجم المصطلحات الإباضية، ج1، ص67.

⁶ - محمد وقاد: المرجع السابق، ص-ص (164-165).

وعلى الفترة الفرنسية بقيت تجارة بني ميزاب مستمرة، وكانت حركة تنقل التجار من وادي ميزاب إلى المناطق الشمالية كبيرة، فكانت تلك التحركات موزعة على حسب المدن التي ينتمي إليها أولئك التجار، فنجد مثلاً، أهل غرداية يكثر ذهابهم نحو قسنطينة وسطيف وغيلزان، وأهل بني يزقن إلى قالمة وسوق أهراس والبليدة، وأهل العطف نحو الجزائر وقسنطينة، وأهل مليكة إلى الجزائر وباتنة وخنشلة، وأهل القرارة نحو العلمة وباتنة وخنشلة والبليدة وهكذا، ومنهم من توجه خارج البلاد نحو تونس وليبيا ومصر.

ونجد أنه في سنة 1838م أحصى بالجزائر العاصمة (629) ميزابياً، وارتفع هذا العدد في ظرف ثمانية سنوات أي في سنة 1846 بلغ عدد (2233)، لينخفض عام 1850 إلى (861)، ويرجع إلى الارتفاع عام 1856 ليصل إلى (1449) ميزابي¹.

وفي هذه الفترة كان ميزاب المستورد الأكبر لكميات ملح البارود القادمة من الصحراء والتي يستغلها الميزابيون في صنع البارود كما يذكر ذلك النقيب "كاريت"، وهذه الكميات كانت تأتي من "توات" عبر "عين صالح"، وهكذا كانت ميزاب مستأثرة بتجارة السودان الغربي والصحراء حيث كانت تلتقي القوافل القادمة من "عين صالح" أو "قورارة" أو من "غدامس" قبل أن تنتقل إلى التل، ولذلك استغل الجنرال راندون هذه النقطة من أجل فرض الحماية الفرنسية على وادي ميزاب، عندما قام بالحصار التجاري على المنطقة ومنع القوافل التجارية من المرور عليها بداية من سنة 1853م²، وكان في سوق البلدة يتبادل أهلها مع قوافل البدو منتوجاتهم، فكان الأولون يقدمون المنسوجات التي صنعتها أيدي الميزابيات والفائض من محصول التمور، مقابل الصوف والسمن وغير ذلك من خيرات البادية، وكان الإنتاج السنوي من الملابس الصوفية التي تنتجها نساء ميزاب في القرن التاسع عشر يقدر بسبعين ألف قطعة، وكان في ذلك الوقت حوالي سبعة آلاف امرأة تشتغل النساجة بالبيت³.

ولما سنت فرنسا قانون التجنيد الإجباري، أدى هذا القانون بالتأثير السلبي على حركة التجارة التي يمتثلها التجار الميزابيون، وهو ما يذكره النداء الميزابي الموجه إلى السلطات الفرنسية لإلغاء قانون التجنيد الإجباري، فيذكر حول سلبات هذا القانون وتأثيره عن التجارة ما يلي: «... وما قلناه من العواقب في أخذ الشبان الفلاحين للجندي نقوله هنا في أخذ الشبان التجار، فإن إلزام الشاب الميزابي التاجر بالجندي تترتب عليه أمور:

أولاً: ضياع تجارته وقت أدائه حصة التجنيد و تلف أشغاله بها وانعكاس دولابها إلى الوراء.

ثانياً: ضياع أموال الناس وحقوق كل من له علاقة معه في تجارته.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص54.

² - الحاج محمد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، ص-ص (34-35).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص52.

ثالثاً: انقطاع المورد الحيوي عن عياله و ذويه بانقطاع تجارته.¹، لذلك كان يسعى الميزابيون دائماً إلى التحرر من هذا القانون الجائر، الذي يمس جميع جوانب حياتهم سواء الاجتماعية أو الاقتصادية أو الدينية.

ونجد أن الميزابيين قد تخصصوا في تجارة الأقمشة والمواد الغذائية، وكانوا يتعاضدون كتلاً في شبه شركات تسمى بـ"الرمادة"، ثم تفرعت هذه إلى مشاريع مستقلة، تقوم على رأس فرد أو فردين، ليتطور الأمر في ما بعد إلى دكاكين مستقلة وهكذا دواليك، ومع تطور الحركة التجارية بعد الحرب العالمية الثانية، وأيضاً الأساليب الاستعمارية الظالمة والجائرة في هذا الميدان واحتكار الشركات الاقتصادية اليهودية على التجارة، ومحاربة التجارة الإسلامية وتطبيق سياسة التمييز العنصري، حيث تكاتف الاستعمار الفرنسي مع الطائفة اليهودية المحتكرة على التجارة بسد جميع طرق الاستيراد أمام التجار المسلمين، وانحصرت التجارة الإسلامية في أشياء محدودة وبسيطة، لذلك لجأ الميزابيون إلى سياسات جديدة تتماشى مع الواقع الذي أصبح معاشاً².

فوجد أنه في سنة 1948م، أنشأت جمعية النور وشركة فتح النور التجارية، للبيع بالجملة في قلب العاصمة، ولقد زاحمت اليهود في تجارة الجملة، وكانت مركزاً لمصلحي الجنوب في العاصمة.

ولقد بلغ العدد الإجمالي للميزابيين العاملين في التجارة خارج منطقة وادي ميزاب في الخمسينات حوالي ستة آلاف ميزابي، وبلغ عدد الدكاكين التي يمتلكونها 1418 دكاناً في سنة 1953م، وهي كالتالي:

. (645) في عمالة الجزائر، بمدن الجزائر والحرش والبليدة والخميس والحلفة وغيرها

. (445) في عمالة قسنطينة، بمدن قسنطينة وسطيف وعنابة وسكيكدة وغيرها

. (196) في عمالة وهران، بمدن وهران وتيارت ومستغانم وغليزان وغيرها.

. (123) بالجنوب، ببسكرة وتقرت وغيرها.

. (9) في القطر التونسي

المدينة	بني يزقن	مليقة	غرداية	القرارة	العطف	بريان	بونورة
العدد	267	87	413	201	180	160	110

جدول يوضح أعداد المحلات التجارية على حسب كل منطقة من مدن وادي ميزاب³.

¹ - عمر بن عيسى بن إبراهيم: بيان الحقيقة، ص36.

² - مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب ماضيه و حاضره، ص-ص (228-230).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (287-288).

وهذا ما يعطينا وبصورة واضحة انتشار الميزابية في ربوع الجزائر، وامتهانهم مهنة التجارة التي برعوا فيها بفضل جهودهم، وكانت موردا هاما أيضاً للحركة الإصلاحية بمنطقة ميزاب والبعثات العلمية الميزابية إلى تونس، التي سوف نتعرف عليها فيما يلي من فصول لهذا الموضوع.

ج- الصناعة.

كانت الصناعة في المجتمع الميزابي متمثلة في تلك الحرف التي كان يتقنها السكان، وكانت أدواتها من المواد الأولية المتوفرة لديه سواء من النخيل أو مادة الجبس أو غيرها، فمن الصناعات السائدة بميزاب، صناعة مواد البناء من جير وجبس، وكانت تصنع لها أفران مبنية من حجارة وطين أحمر مستدير الشكل، وصناعة تسوية أخشاب النخيل للتسقيف، وخشب بعض الأشجار لصنع بكرات النرج وحاملاتها وأدوات النسيج وأواني المطبخ¹، لذلك كان سكان بني ميزاب يمتنون حرفة البناء بشكل واسع، وأيضاً هناك نشاط الحدادة ودور النجارة والدهن، ولهذه الحركة نشاط باهر، إذ كان يغذيها المال الآتي من الشمال، ويتعاون سكان ميزاب كلهم سواء المالكية أو الإباضية في هذه الأشغال²، ونجد أيضاً صناعة دباغة الجلود من أجل صناعة الدلاء، وصناعة الفخار لصناعة الأكواب والأباريق والقلل والحاييات، ويصنع كل ذلك من طين خاص ثم يوضع في أفران خاصة به.

ومن بين منتوجات النخيل، الأخشاب الخاصة لصنع الأبواب، ومكايل للتجارة، ومهاريس لطحن الحبوب، وأواني مختلفة، ومن جريد النخيل يتخذون ستائر وسقوف، ويصنع من أوراقها وأليافها حصائر وحبال وأقفاف وأطباق ودلاء وغيرها، كما اشتهروا بصناعة البارود، ولكل قرية عدد معتبر من المهاريس الصخرية الكبيرة، لصنع البارود، ويبيعه للقوافل، وكانوا يستوردون لذلك الكبريت من تونس وليبيا، وملح البارود من الجنوب الغربي كما ذكرنا آنفاً³.

كانت المرأة الميزابية مشاركة وبقوة في هذا الاقتصاد والحركة التجارية للمنطقة وذلك من خلال صناعاتها المنزلية المتنوعة، خاصة في مجالي النسيج وغزل الصوف، وتقوم بها النساء أوقات الراحة، بحيث أنه لا يمكن أن لا نجد المنسج في كل بيت من بيوت ميزاب، ولا تكاد توجد أنثى بميزاب لا تحسن النسيج، وتختلف المنتوجات على حسب الجودة والإتقان، ومن أهم هاته المنتوجات الجلابيب والحايك، والقشايية، والبرنوس من صوف الغنم أو وبر الحمل، والزراي أيضاً تتفاوت قيمتها على حسب دقة صنعها، وفي طليعة هذه الزراي نجد زربية بني يزقن التي تحتوي على الزخارف الهندسية المتنوعة⁴.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 47.

² مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، ص 221.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (47-52).

⁴ - مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، ص 222.

ففي سنة 1893م، كان عدد العاملات اللاتي يشتغلن في مجال نسيج الزربية حوالي ستة آلاف عاملة، ولكن مع مرور الوقت والظروف الاقتصادية والاجتماعية وظروف الاستعمار الفرنسي تقلص هذا العدد إلى أن وصل سنة 1955م، ألف و خمسمائة عاملة فقط¹، ومن هنا تظهر أهمية ودور المرأة الميزابية في الحياة الاقتصادية للمجتمع الميزابي وأيضاً دورها في مجالات الحياة الأخرى، وتعاون كلا الجنسين في حمل مشاق الحياة فالرجل في مزرعته يكابد قساوة الطبيعة، والمرأة في بيتها تغزل وتنسج وتقوم بكل أشغال البيت المختلفة.

ونستطيع القول من خلال هذا المبحث أن المجتمع الميزابي مجتمع حركي ونشيط، بما يحتويه من مختلف مجالات النمو الاقتصادي بالمنطقة من فلاحية وتجارة وصناعة، وواجه العراقيل المتعددة سواء منها المناخية أو الطبيعية في ميدان الفلاحة، وأيضاً القوانين التعسفية والإدارية التي كانت تواجهه من طرف الإدارة الفرنسية، كقانون التجنيد الإجباري الذي فرض على الشباب الميزابي الذي كان بمثابة المحرك الرئيسي للجانب الاقتصادي في ميزاب.

3- الأوضاع الاجتماعية والثقافية

من أهم الأوضاع التي أثرت في المجتمع الميزابي وحركة الهجرة التي شهدتها المنطقة، هي الأوضاع الاجتماعية والثقافية، فلقد كانا مؤثرين تأثيراً مباشراً في هذه الحركة الإنسانية العلمية أو العمالية أو الدينية، فلقد كانت الحالة الاجتماعية والتفكير الاجتماعي لدى الميزابيين مشجعا في كثير من الأحيان على الهجرة، سواء تلك التي كانت من أجل كسب الرزق والعودة لبناء أسرة، أو الرحلات العلمية التي شهدتها منطقة وادي ميزاب خلال بدايات نشاط الحركة الإصلاحية فيها، وسندرس هذين الجانبين بشيء من التفصيل، ونتعرف على مكونات المجتمع الميزابي، وأهم خصائصه ومميزاته، وأيضاً عن الحالة الثقافية للمجتمع الميزابي من تعليم وحركة إصلاحية، ونشاط فكري وثقافي وصحافي وكل ما ميز هذا الجانب، ومدى تأثير كليهما في ظاهرة الهجرة نحو البلاد التونسية.

أ. الأوضاع الاجتماعية.

يعد المجتمع الميزابي مجتمعاً متماسكاً داخليا، ولقد ساعده في ذلك الرابطة الدينية والعقدية التي تجمعهم بحكم المذهب الإباضي، وأيضاً بحكم الهيئات الدينية والاجتماعية والأسرية التي تتحكم في مسيرة المجتمع الميزابي وتسير مجالات حياته المختلفة، وهو ما سنتعرف عليه في هذا الجانب.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 289.

أ-1- أصل سكان وادي ميزاب

تعددت الروايات التاريخية التي تتحدث عن أصول السكان، وأيضاً المناطق والأماكن التي قدموا منها والفترات الزمنية التي استغرقت من أجل ذلك، ولكن ما أجمعت عليه وما أتفق عليه هو أن بلاد وادي ميزاب تتكون من خليط من العرب والبربر، الذين عمروا المنطقة عبر فترات متلاحقة من التاريخ، وساهموا جميعاً في بناء المنطقة وعمارتها¹، وفي هذا يقول محمد علي دبور ما يلي: «ومع الميزابيين في غرداية إخوانهم المذاييح، والمذاييح من السكان الأولين في غرداية...»، وفي غرداية أولاد مرزوق، وكانوا في العطف ثم انتقلوا إلى غرداية فسكنوها، قد يكون ذلك بعد زمن طويل من نشأة غرداية، يدل على ذلك كثرة آثارهم في العطف مما يدل على أنهم أقاموا طويلاً، وأصل المرازيق والمذاييح هو أصل الميزابيين بربر امتزجت بهم الدماء العربية، فتعربوا، ومزاج الكل واحد، والتقاليد واحدة، وكذلك السحنة، ولا صحة لما يقول الاستعمار والمفسدون من أن الأصل غير واحد ليفرقوا بين الإخوة والأشقاء»².

واستقبلت منطقة وادي ميزاب العديد من القبائل العربية التي لم تمتزج في المجتمع الميزابي وبقيت مجاورة لهم إلى حد اليوم، كقبيلة الشرفة وقبيلة الشعانية وقبيلة العطاشة وقبيلة المخادمة، وكانت هذه القبائل في بادئ الأمر بدوا يتنقلون بنحيمهم وأمتعتهم وماشيتهم بين الهضاب العليا بالسماء وأطراف الصحراء بالجنوب من أجل الحصول على الكأ والمياه، ويقصدون منطقة وادي ميزاب من أجل النزول للأسواق والتبادل التجاري هناك، ومع مرور الزمن بدأ استقرارهم على مشارف قرى وادي ميزاب يزداد شيئاً فشيئاً حتى تم استقرارهم فيه نهائياً³، وضمت منطقة ميزاب خليط من التركيبة السكانية، عربية وبربرية، وإباضية ومالكية، وهكذا اجتمعاً في مكان واحد يجمع بينهما.

ونستطيع القول أيضاً أن المجتمع الميزابي كان في بادئ الأمر مجتمعاً بدوياً، ثم انتقل إلى الحياة الحضرية والاستقرار في المدن والقرى بوادي ميزاب، لذلك نميز فيهم مرحلتين من حيث نمط الحياة:

المرحلة البدوية: حيث كان يعيش أغلبهم على تربية المواشي، والتنقل بها عبر أرجاء بلاد الشبكة، بحثاً عن الماء والكأ، فكانت حياتهم في منتهى البساطة، شأنهم في ذلك شأن جميع قبائل البدو.⁴

المرحلة المدنية: وهي المرحلة التي تمدن فيها بني ميزاب، واستقروا في المدن والقرى المعروفة حالياً، وذلك بعد اشتغالهم في الزراعة وأصبح اقتصادهم معتمداً عليها، وأيضاً حفر الآبار الجوفية واستخراج المياه، كل ذلك

¹ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 59.

² - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 1، ص-ص (166-167).

³ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (59-60).

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 9.

ساعدتهم على حياة الاستقرار والتمدن، وتطورت بعد ذلك نشاطاتهم الاقتصادية لتظهر لنا النشاطات الحرفية المتنوعة.¹

أ-2- اليهود بمنطقة وادي ميزاب

بدأت الهجرات اليهودية إلى وادي ميزاب منذ هروبهم من مدينة تمنطيط² بأدرار، عام 1492م، بعد أن أعلن عليهم الشيخ عبد الكريم المغيلي³ الحرب والعداء، وذلك بعد تسلطهم وتحكمهم الخطير في أهم النشاطات الاقتصادية، وفي الحياة السياسية والأمنية، وحتى في القضاء بمنطقة توات⁴ الاستراتيجية من الناحية التجارية⁵، كما نجد أيضاً أن الشيخ عمي سعيد الجري⁶ جلب معه من جزيرة جربة ثلاث عائلات يهودية وكان ذلك في سنة 1450م، من أجل تنشيط الوضع الاقتصادي بمنطقة وادي ميزاب، وتفرق هؤلاء اليهود في قرى وادي ميزاب المختلفة، وامتحنوا العديد من المهن والحرف كالحداودة والصياغة والتجارة، وطوال تواجدهم بمنطقة وادي ميزاب لم يسجل عليهم نشاط عدواني أو سياسي واضح ضد السكان، بل جمعتهم العلاقات التجارية، كما ساهموا في تحريك وتنشيط سوق الحرف والمهن بإتقانهم في هذا المجال، لكن مع دخول القوات الاستعمارية واحتلالهم

¹ - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص321.

² وهي بلدة متكونة من مجموعة من القصور، ولقد كانت المركز الرئيسي لإقليم توات، ويرجع فضل أهميتها إلى وادي مسعود الذي شجع السكان على الإقبال والزراعة على حوافه، ويعد سوق مدينة تمنطيط من أكبر وأشهر وأقدم الأسواق التواتية، بالإضافة إلى أن المدينة تعد من أقدم المدن بالإقليم، وتحتل مكانة اقتصادية وروحية كبيرة بما تحتويه من كثرة أماكن الأولياء والزوايا الكثيرة. ينظر: فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، اطروحة لنيل الدكتوراه في التاريخ، ص21.

³ - محمد بن عبد الكريم المغيلي، ولد في سنة 1417م، بمغيلة بتلمسان، و يعد من أبرز علماء المغرب الأوسط في منتصف القرن 8هـ/15م، و هو من الفقهاء الاذكياء ذوي الرؤية الثقافية والحكمة الصائبة، وأحد العلماء المشهورين الذين كانت لهم مشاركة في تفعيل الحياة السياسية والثقافية بتوات والسودان الغربي، وله شهرة في مجال الدعوة إلى الله ورسوله، وأيضاً محاربه وعداوته لليهود خاصة في تمنطيط. ينظر: حاج احمد نور الدين: المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الشريعة الإسلامية، اشراف الدكتور: مولود سعادة، جامعة باتنة، 2010/2011م، ص-ص(26-27).

⁴ - إقليم توات وهو عبارة عن مجموعة من الواحات الصحراوية بالجنوب الغربي الجزائري، تؤلف في مجموعها إقليم عبور ما بين سفوح الأطلس الجنوبي وبلاد السودان، وينقسم هذا الاقليم إلى ثلاثة مناطق متميزة: تينجورارين، وتوات وتيديكلت. ينظر: محمد الصالح حوتيه: توات والازواد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م، ص28.

⁵ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص73.

⁶ - سعيد بن علي بن يحي الجري الخيري المعروف بعبي سعيد (توفي 1492م)، ولد في قرية أجيم بجربة بتونس، وبها نشأ وأخذ العلم، ولما تفشى تفشى الجهل بوادي ميزاب، بعث أهله إلى مقدم جماعة الشيخ علي بن حميدة وفداً يطلبون منه إرسال أحد تلامذته ليحيي العلم والدين في وادي ميزاب، فأختار ابنه سعيد، وكان عمره حينها 18 سنة فقدم إلى وادي ميزاب رفقة عالمين آخرين، فبادر منذ نزوله إلى الإصلاح الديني والاجتماعي والعلمي فأحيا وادي ميزاب وكون نخضة علمية ودينية، وهو من أسس مجلس الفتوى سنة 1450م، والذي أصبح يسمى باسمه، وقام بالعديد من الأعمال العلمية والدينية بالمنطقة. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الاباضية، ج3، ص-ص(376-377).

للمنطقة كشفوا عن مكرهم وحقدهم للأهالي وشاركوا الاستعمار الفرنسي في أعماله التخريبية بالتجسس والوشاية وبث نار الفتن في المنطقة.¹

ومن خلال النظر في المجتمع الميزابي بنظرة متعمقة نستطيع أن نخلص إلى تقسيم المجتمع الميزابي إلى فئات على حسب المكانة الاجتماعية وهذه الفئات هي كالتالي:

- **فئة رجال الدين:** وهي التي تشمل رجال الدين المسيرين للمجتمع الميزابي في مختلف جوانبه المتعددة والمختلفة، وهم متواجدين في كل قصر من قصور بني ميزاب، والمتمثلين في هيئة العزابة، وأيضاً المجلس الديني النسوي.²

- **فئة الأعيان:** وهي فئة ذات المكانة الاجتماعية المرموقة و لكنها ليست منتمية إلى فئة رجال الدين أو العزابة، وسابقاً كان من عوام البلد و يساعدون العزابة على السلطة التنفيذية³، ولديهم مجلس خاص يسمى بمجلس الأعيان يعنى بالشؤون العامة للمدينة من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية.⁴

- **فئة العوام:** وهم أساس المجتمع الميزابي، وهم عامة السكان لبني ميزاب من عمال أو طلبة أو غيرهم من فئات المجتمع الغير منتمية إلى فئة رجال الدين أو الأعيان.

- **فئة العبيد:** نستطيع أن نستنتج هذه الفئة من خلال دراستنا للمعاهدات التي كانت بين بني ميزاب والدولة العثمانية والتي تنص على دفع بني ميزاب للدولة العثمانية بالجزائر اثني عشر عبداً واثنى عشر أمة سنوياً⁵، وأيضاً من خلال العلاقات التجارية لمنطقة وادي ميزاب والتي كانت تشهد تجارة الرقيق خاصة بينها وبين غرب إفريقيا.⁶

أما عن الإحصائيات التي تخص السكان فلقد كانت كلها من إنجاز الإدارة الاستعمارية بوادي ميزاب ونجد أن من أول الإحصائيات كان في سنة 1861 من طرف حاكم الأغواط ، وكانت الإحصائيات كالاتي⁷:

غرداية	6.300	العطف	1.300	بني يزقن	3.850
بونورة	920	مليكة	800	بريان	1.280
القرارة	2.300	مزاب	16.750		

¹ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص60.

² - عوض محمد خليفات: المرجع السابق، ص51.

³ - محمد ناصر: حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، 1989م، ص13.

⁴ - صالح بن عبد الله أبو بكر: "إصلاح ذات البين وتجربة المجتمع الميزابي الإباضي في الجزائر"، مجلة الحياة، العدد17، اوت 2013م، المطبعة العربية، غرداية، 2013م، ص208.

⁵ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص68.

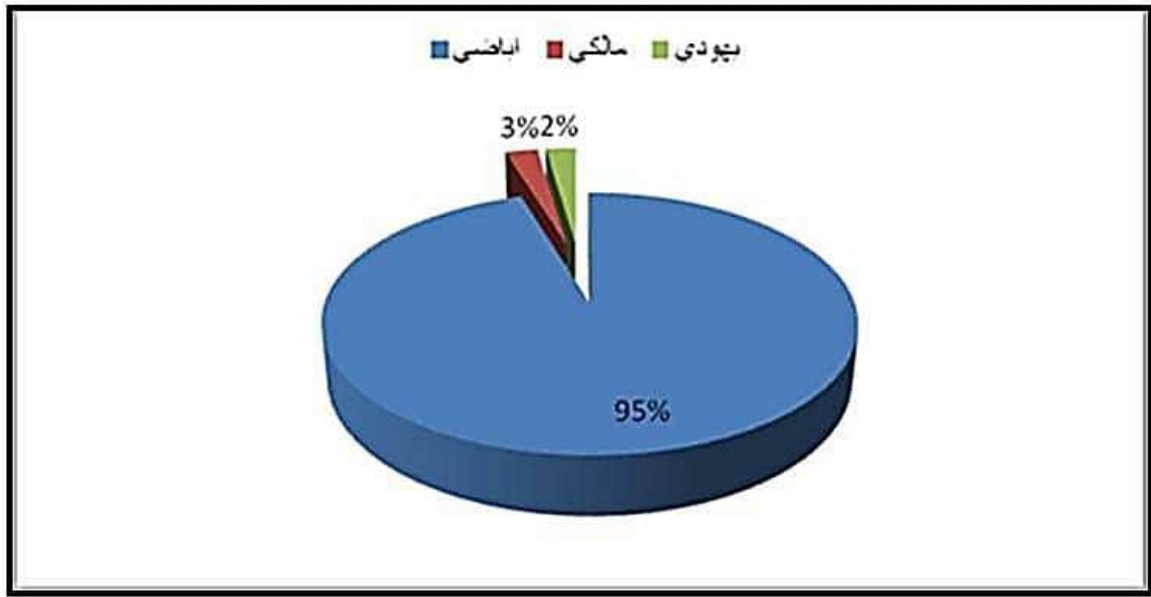
⁶ - الحاج محمد الحاج إبراهيم: المرجع السابق، ص35.

⁷ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص130.

ولقد كان أول إحصاء بعد إلحاق وادي ميزاب بالإدارة الفرنسية كآلاتي¹:

البلدة	إباضي	مالكي	يهودي	المجموع
غرداية	13275	316	422	14013
مليكة	1850	.	.	1850
بني يزقن	5106	0	0	5106
بنورة	1256	0	0	1256
العطف	1750	0	0	1750
بريان	4694	185	186	5056
القرارة	3070	297	130	3497
كل وادي ميزاب	31001	798	738	32537

وكانت الإحصائيات الفرنسية جلها مبنية على التقسيم العرقي أو الديني والمذهبي، ويرجع ذلك إلى أعمالهم ودراساتهم من أجل مشاريع التفرقة وبث الفتنة بين هذه الطوائف في ظل سياسة فرق تسد.

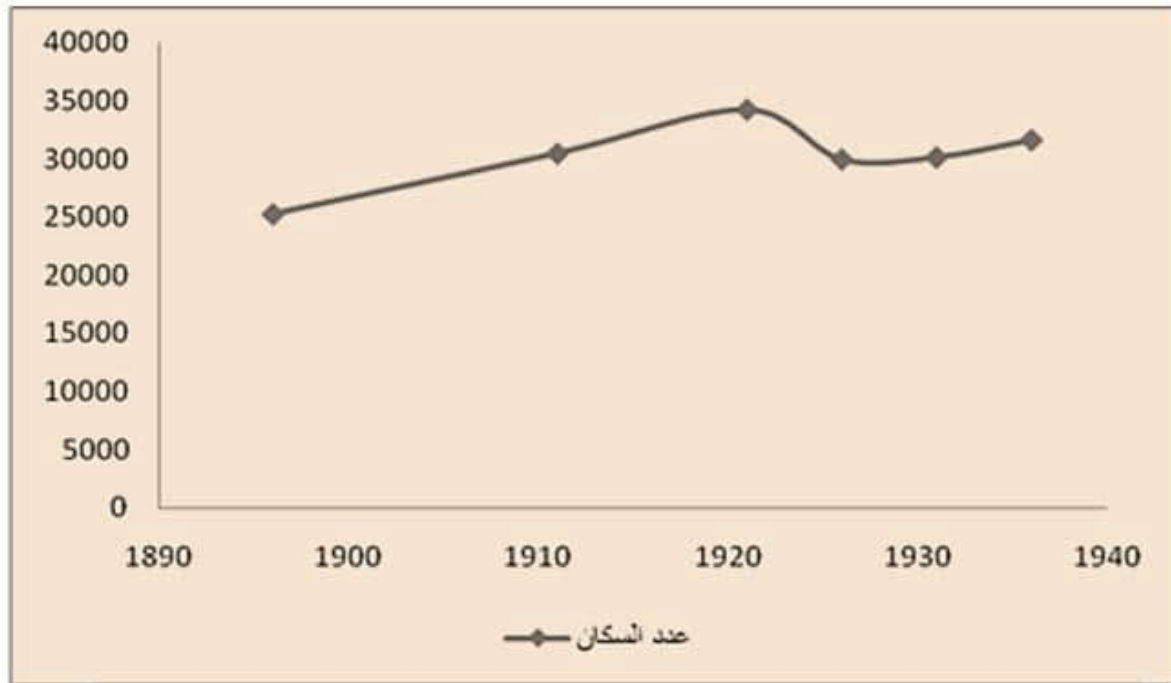


دائرة نسبية توضح نسبة السكان المتواجدين بمنطقة وادي ميزاب خلال فترة الإلحاق الفرنسي للمنطقة

وبعد ذلك توالى الإحصائيات الاستعمارية لتعداد السكان، ونستطيع أن نورد بعضاً منها:

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 61.

- إحصاء سنة 1896م وكان العدد الإجمالي كالتالي: 25254.
- إحصاء سنة 1911م، وكان العدد الإجمالي كالتالي: 30486.
- إحصاء سنة 1921م، وكان العدد الإجمالي كالتالي: 34253.
- إحصاء سنة 1926م وكان العدد الإجمالي كالتالي: 29977.
- إحصاء سنة 1931م، وكان العدد الإجمالي كالتالي: 30146.
- إحصاء سنة 1936م، وكان العدد الإجمالي كالتالي: 31642¹.



منحنى بياني يوضح تطور تعداد السكان بمنطقة وادي ميزاب

وتظهر لنا هذه الإحصائيات أن العنصر الغالب عن المنطقة هو العنصر الميزابي، مع تواجد القبائل العربية وأيضاً وجود الفئة اليهودية بشكل ملحوظ، ونلاحظ أيضاً في إحصاء سنة 1926م، تناقص في عدد السكان وذلك راجع بالطبع إلى الأسباب الاجتماعية والسياسية مثل الهجرات، وأيضاً القوانين التعسفية للاستعمار كقانون التجنيد الإجباري على سبيل المثال.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق: المرجع السابق، ص-ص (169-200).

أ-3- المستوى المعيشي للمجتمع الميزابي:

كما ذكرنا آنفا بأن الميزابيين استوطنوا في موطن ذو طبيعة قاسية، فلذلك عاشوا في صراع مع الطبيعة والمناخ، وكان لانعزال المنطقة وبعدها أيضاً دور في معاناتهم، ولكنهم تحملوا كل ذلك وعاشوا حياة التقشف والصبر على قساوة هذه الطبيعة، معتمدين على جهدهم العضلي ووسائلهم البدائية في استثمار تلك الأرض وتطويعها لما يخدم حياتهم¹، وقد غرست هذه المظاهر الصعبة في الفرد الميزابي العديد من الخصوصيات والأخلاق كالكرم والضيافة، والرأفة بالمساكين والفقراء، والحرص على الكسب والكدح في سبيل ذلك، وأيضاً حرصه على الادخار، والصبر والمثابرة، ويتعامل مع كل الصعوبات التي تواجهه بأسلوب لين بعيداً عن القسوة، كل هذه الخصال زرعتها فيه نمط الحياة القاسي الذي كان يعيشه الفرد الميزابي في مواجهته للطبيعة².

ويعتبر المصدر الأساسي لغذائهم هو التمر، ولذلك قاموا بكل الجهودات والوسائل لغراسة النخيل والاهتمام بهذه الشجرة التي تحملت معهم كل ظروف المناخ الصعب، واعتنوا بشمارها استهلاكاً وحفظاً وتخزيناً، وجلبوا أنواعاً متعددة من النخيل من المشرق والمغرب حتى بلغ عدد أنواعها إلى أربعمئة نوع، وأما المصدر الثاني فكان مما تنتجه المواشي من ألبان ولحوم ودهون، فكانت أغلب الأسر الميزابية تمتلك بعض هذه الحيوانات من أجل توفير المادة الأساسية للغذاء³، ومن أجل مواجهة الحالة الاقتصادية الصعبة لجأ الميزابيون إلى الهجرة ومغادرة وادي ميزاب نحو مدن الشمال، وخاصة إلى منطقة الجزائر العاصمة، أين كانت لهم نشاطات متعددة في ميدان التجارة أو المهن والحرف، وكونوا جالية هامة هناك، كما ذكرنا آنفا.

ومن الأمور الاجتماعية التي يمكن التطرق إليها هنا هو سفر المرأة الذي كان ممنوعاً في تلك الفترة، وكان غير مسموح للميزابي المتزوج أن يصطحب معه زوجته أو أي امرأة إلى مكان عمله، أو مكان تواجد الحديد، وكانت مدة الغياب محددة، حيث يجب على الشخص المتزوج أن لا يزيد عن مدة ثلاث سنوات وإلا أصبح الطلاق بيد المرأة⁴.

واستطاع الميزابيون من خلال هجرتهم إلى مدن الشمال وتمكنهم من ممارسة التجارة وبعض المهن الأخرى، أن يفكوا الخناق الاقتصادي عن عائلاتهم وعن واديههم بصفة عامة، ويجلبوا الخيرات ويشيدوا البيوت والعمارات، وكل ذلك بفضل ما تجنيه تجارتهم ومهنتهم من أرباح في مدن الشمال⁵.

¹ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 63.

² - مفدي زكرياء: أضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، ص 190.

³ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 63.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 70.

⁵ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 64.

أ-4- النظام الاجتماعي لبني ميزاب:

من أهم العوامل والأسباب التي جعلت المجتمع الميزابي لا يفقد أصالته وتماسكه على مر العصور التاريخية، هو تلك التنظيمات الاجتماعية التي يتشكل منها المجتمع، وهذه الهيئات الدينية أو العرفية بقيت متماسكة وذات سلطة اجتماعية لعهود طويلة، وهي أنظمة تستمد روحها ونظامها من الدين الإسلامي والمذهب الإباضي، ونستطيع التعرف على هذه الهيئات سواء العرفية منها أو الدينية على حسب التسلسل التالي والذي يبتدئ من قاعدة هذا التنظيم إلى غاية رأسه.

- **مجلس العائلة أو الأسرة:** فلكل عائلة تحمل نفس اللقب العائلي مجلس يساعد العشيرة الكبرى في مهامها الاجتماعية والتربوية، والعائلة هي اللبنة الأولى في بناء أي مجتمع، ويقوم المجتمع الميزابي على الترابط والتعاون بين أفراد كل الأسر والتضحية الفردية من أجل الجماعة، ويجتمع المجلس العائلي في دورات طارئة أو في مناسبات الأعياد، وذلك من أجل حل المشاكل أو الرؤية في قضايا الأسرة وغيرها¹.

- **مجلس العشيرة:** وهي مجموعة من العائلات التي تنحدر في الغالب من جد واحد، وهناك من يلتحق بأحد العشائر عن طريق الولاء، وأيضاً هناك من انتمى إلى عشيرة ما لأنه فارق بلدته التي ولد فيها وهاجر بها إلى إحدى القرى المجاورة بسبب ظروف قاهرة أو عابرة، ولهذا فإن العشيرة ليست وحدة عرقية، ولكنها وحدة تنظيمية أو اجتماعية، ومهما فإن نواة العشيرة الأولى عرقية ولكن فيما بعد يمكن قبول من طلب الانتماء والولاء لأحدها²، وللمجلس العشيرة دور هام في استئصال جذور العداوة والفتن والقضاء على أسبابها، فصار مجلس العشائر العضد الأيمن لمجلس العزابة، ويشرف على إدارة كل عشيرة مجلس أو إدارة تشرف على تسيير شؤونها، وهم مجموعة من المشائخ أو العلماء للعشيرة، ويعقد مجلس العشيرة جلساته دورياً بانتظام كل أسبوع أو شهر، حسب كل عشيرة³.

- **حلقة العزابة:** وهي هيئة دينية عليا في كل قصر من قصور ميزاب، وتتكون من مجموع أشخاص تتوفر فيهم العديد من الصفات الدينية والخلقية والاجتماعية، كالصلاح والتقوى والعلم والخبرة الاجتماعية، وتعتبر قمة الهرم الاجتماعي على مستوى البلدة في وادي ميزاب، وإليها يرجع أمر حراسة المجتمع من الانحرافات ورعايته من الشرور، وذلك عن طريق مهام النصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، التي تشرف عليها ويتولاها أعضاؤها على طول أيام السنة، وتضم الحلقة أيضاً هيئة مكلفة بالنساء وتسمى "تيمسردين"، وتحت هذه الحلقة تأتي حلقة "أروان" وهي حلقة خاصة بتحفيظ القرآن الكريم وطلبة العلم، وهي مساعدة لها في أداء المهام وتعد أيضاً مصدراً للعزابة المستقبليين.

¹ - صالح بن عبد الله أبو بكر: المرجع السابق، ص-ص(201-202).

² - محمد ناصر: الشيخ القراي حياته وآثاره، ح1، نشر جمعية النهضة، العطف، غرداية، ص-ص(55-56).

³ - صالح بن عبد الله أبو بكر: المرجع السابق، ص203.

وتوجد أيضاً حلقة للعامة الذين يريدون الانتماء إليها ولديهم الميل والرغبة في العمل الاجتماعي والتطوعي وتسمى "إمصوردن"، وتتكفل بأعمال خدمة المسجد وتهيئة مرافقة والقيام بحملات التطوع وتوزيع الصدقات والقيام بدور تعليم الصغار، وتوجد هيكلية أخرى خاصة بحفظ الأمن والنظام داخل القصر، ومراقبة التحركات المشبوهة لتطهير المجتمع من أوكار الفساد والجريمة، وهذه المجموعة تسمى "العست" أي الحراسة¹.

- **مجلس الأعيان:** هو مجلس قيادي تنفيذي موسع يضم ممثلي عشائر البلدة، ومثلي المحاضر ووجهاء الناس من الذين لهم دراية بالأمور المدنية والسياسية والعلاقات العامة، ويعتني هذا المجلس بالشؤون العامة للمدينة سواء منها الاقتصادية أو الاجتماعية والسياسية، من حملات تطوعية ونظافة البلدة وبناء الأسوار والأبراج، ومع تطور المراحل التاريخية، أصبح يتضمن أيضاً مختلف الجمعيات ومثلي المجالس الشعبية المنتخبة، وله دور هام في إصلاح ذات البين، وأيضاً فض النزاعات والخلافات مع السلطة الحاكمة والإدارة المحلية، وكان لهم دور كبير خلال الفترة الاستعمارية².

- **المجلس الأعلى لعزابة وادي ميزاب "مجلس عمي سعيد:** وسمي بمجلس عمي سعيد أو "أمي سعيد"، لأنه كان يعقد جلساته في روضة الشيخ عمي سعيد بن علي الجربي بمدينة غرداية، ويضم هذا المجلس ممثلي مجالس العزابة في قرى وادي ميزاب السبعة ووارجلان، ولذلك يعتبر المجلس الأعلى لإباضية الجزائر، ويعين أكبر علمائه وأكثرهم حصافة وشجاعة لرئاسته، فيكون شيخ وادي ميزاب كله، وكان في الماضي توضع عمامة على رأسه، وهذا التعميم دليل على الرئاسة والتقدم، وينعقد هذا المجلس في دورات عادية، وقد ينعقد بصفة طارئة إذا دعت الضرورة، وإليه ترفع جميع القضايا الكبرى، كالإفتاء والاجتهاد في القضايا الفقهية والنوازل، و يقوم بوظيفة محكمة الاستئناف، ومن مهامه:

- فض المشاكل العامة التي تحدث في وادي ميزاب.
- تولية المشايخ في المساجد للوعظ و الافتاء.
- مراقبة أوقاف الإباضية في الجزائر و خارجها و متابعتها.
- وضع اللوائح الداخلية التي تخص سير الحياة بالمدن بشكل عام³.

- **المجلس الأعلى لمجالس أعيان ميزاب " مجلس با عبد الرحمن الكرتي":** وسبب تسميته بهذا الاسم لأنه اتخذ من روضة با عبد الرحمن الكرتي⁴ في بلدة مليكة مقرا له، وهذا المجلس تمثيلي يضم ممثلي

¹ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص72.

² - صالح بن عبد الله أبو بكر: المرجع السابق، ص-ص(208-209).

³ - مجموعة باحثين: معجم مصطلحات الإباضية، ج2، ص-ص(749-750).

⁴ - عبد الرحمن الكرتي المصعبي المعروف بـ "با عبد الرحمن" (قرن 12هـ/12م)، من علماء وادي ميزاب في القرن السادس الهجري، ولعله تتلمذ على يد الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر، كما يعتبر من المعمرين الأوائل للمنطقة، وكان ينشط في مليكة حتى صار منبرا للعلم يقصدها الطلبة من قرى ميزاب الأخرى، وله مصلى لا يزال إلى حد اليوم قائما، وفيه تعقد جلسات المجلس الأعلى لأعيان ميزاب، وأيضاً تُقام فيه المؤتمرات الدينية النسوية، وقد توفي خارج قرى وادي ميزاب. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص512.

هيئات العزابة في قرى وادي ميزاب، ورؤساء الجماعات والأعيان، ويمثل كل قرية ثلاثة أعضاء، باستثناء مدينة غرداية التي يمثلها ستة أشخاص، وينعقد هذا المجلس لغرض التقنين والتنظيم والبت في النوازل والمستجدات الاجتماعية والسياسية التي تمس علاقة الميزابيين بالدولة الجزائرية، ويقوم أيضاً بمهام الصلح والتفاوض¹.

هذه هي الهيئات الدينية والعرفية التي تدير المجتمع الميزابي في جميع شؤونه المختلفة، بداية من الأسرة في إطارها الضيق إلى غاية المجالس العليا للعزابة والأعيان، فلذلك كان هناك حالة من التماسك في تسيير هذا المجتمع، وأيضاً في مواجهته لمختلف الظروف التي طرأت عليه من استعمار أو فتن داخلية وخارجية، فكانت هذه الهيئات عبارة عن صمام أمان محافظ على حياة الفرد بشكل طبيعي، وأيضاً ساهمت هذه الهيئات في رقي النشاط العلمي والثقافي، وأيضاً سيرورة العمل الاجتماعي وجعلت من المنطقة كتلة واحدة رغم تعدد القصور وبعدها الجغرافي عن بعضها البعض نسبياً.

ب - الأوضاع الثقافية

كانت الأوضاع الثقافية بمنطقة وادي ميزاب في جميع فتراتها تقريباً تتميز بالاستقرار والنمو، وذلك راجع إلى تحكم هيئة العزابة في هذا الجانب بشكل مباشر تقريباً، وكان المجتمع يتعلم ويتفقه في أمور دينه، وحفظ كتاب الله أو أجزاء منه، وفق التسيير الذي تتماشى به هيئة العزابة في هذا المجال، ليظهر في القرن الثامن عشر بدايات النهضة الفكرية والعلمية بالمنطقة بقيادة علماء أفذاذ، واستمرت هذه النهضة الفكرية بالنمو والاستمرار، إلى غاية القرن العشرين أين كانت في مرحلة القوة، وواجهتها العديد من الصعوبات من طرف دعاة الحفاظ على الوضع، وهو ما سنتعرف عليه في هذا الجانب.

وفي الجانب التعليمي كانت هناك المدارس العربية الإسلامية، التي قادها مشائخ النهضة الفكرية والثقافية بوادي ميزاب، والمدارس الفرنسية التي شيدها الاستعمار الفرنسي في إطار سياسته التعليمية.

ب-1- دور هيئة العزابة في الحياة الثقافية:

وإن من بين أهم الأعمال التي تكفلت بها هيئة العزابة هي التعليم وتحفيظ القرآن الكريم، وتلاوته الجماعية المستمرة في المسجد من خلال مجالس الذكر، وتشجيع الناس على تلاوته، ورغم الظروف الصعبة التي واجهتها هيئة العزابة مع الدخول الفرنسي إلى وادي ميزاب، وأيضاً محاولته التقليل من دورها ومهامها في المجتمع، إلا أنها صمدت وواجهت هذه الوضعية من خلال مجابهتهم للفساد ومحاولة الإصلاح، من خلال المساجد والمنابر².

¹ - صالح بن عبد الله أبو بكر: المرجع السابق، ص211.

² - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(76-77).

التعليم المسجدي: كما ذكرنا أن التعليم في بادئ الأمر كان كحال التعليم في مختلف مناطق الجزائر، من خلال الكتاتيب أو الزوايا التي كانت منتشرة في كل المناطق، وبفضل هذه المدارس كان التعليم القرآني منتشراً في الأوساط الجزائرية بالرغم من أنه لا يخرج عن الدراسات الدينية، واستطاعت هذه المؤسسات التربوية والتعليمية أن تحافظ على اللغة العربية والثقافة الإسلامية، بمستوى محترم متحدية التعسفات الاستعمارية¹، ويعتبر التعليم المسجدي من الأنظمة التعليمية القديمة لدى إباضية الجزائر، ويسمى لديهم المحضرة وهو ما يقابله لدى عموم الجزائريين، ما ذكرناه بنظام الكتاتيب، وينقسم نظام التعليم المسجدي لدى الإباضية بمنطقة وادي ميزاب إلى مستويين وهما:

1- **المرحلة التحضيرية:** وهي تمثل المستوى الأول من التعليم، وتبنى هذه المحاضر بجانب كل مسجد على حسب كبر المدينة، فمن المدن من تبني بجانب مسجدها ثلاث كتاتيب أو أكثر، وهذه الكتاتيب يرأس كل واحد منها أحد العزابة، والقائم بالتربية والتعليم فيها، ويعينه في ذلك قدماء التلاميذ². وتكتظ المحاضر بالصبيان الصغار لتحفيظ القرآن وتلقين مبادئ التوحيد والعقيدة في فترات العطل، وتعليم الصلاة والفقه إعداداً للصبي القريب من البلوغ خصوصاً بالنسبة للذين يأتون بهم أولياؤهم من الجهات التي يعملون فيها خارج ميزاب³.

ونظام تعليم المحضرة كان كالآتي:

. قبل آذان الفجر إلى طلوع الشمس.

. بين صلاتي الظهر و العصر.

. بين صلاتي المغرب و العشاء.

والحضور في هذه الأوقات واجب على كل تلميذ، ومن تخلف عنه يعاقب⁴، إذن التعليم في المحضرة هو المرحلة الأولى والتي يتم فيها لقاء الفتى مع التعليم قراءة وكتابة، وأهم ما يتلقاه هو حفظ القرآن الكريم وتعلم مبادئ اللغة العربية⁵.

2- **المرحلة الابتدائية او حلقة إروان:** وهي المرحلة الثانية من التعليم، وهي بمثابة التعلم الابتدائي، يؤهل فيه الطلبة لحفظ القرآن الكريم واستظهاره بعد اجتيازهم التعليم في الأولى بالكتاتيب، تعلموا فيها بعض

¹ - عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة، الجزائر، 2010م، ص-ص(134-135).

² - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديث و ثورتها المباركة، ج1، ص211.

³ - صالح بن اعمر اسماعوي: المرجع السابق، ج2، ص-ص(806-807).

⁴ - الشيخ بالحاج عيسى بن محمد: "الشيخ بيوض إبراهيم بن عمر وبناء الشخصية العلمية"، مجلة الحياة، العدد 17، اوت 2013م، المطبعة العربية، غرداية، 2013م، ص220.

⁵ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص107.

السور من القرآن والخط ومبادئ العقيدة حسب سنهم، فيرتقون تدريجيا إلى مستوى طلبة القرآن الكريم بعد إذن شيخ الحلقة¹، كما تعد هذه المرحلة كتكوين علمي واجتماعي لهؤلاء الطلبة لالتحاق الأكفاء منهم بحلقة العزابة، لمساعدتها في تحمل المهام الاجتماعية والدينية، وفي حال احتياجها لتجديد بعض أعضائها بسبب العجز أو الوفاة، لذلك فعادة ما تسند لهؤلاء الطلبة بعض المهام الدينية والاجتماعية التي يتولاها أعضاء العزابة لتدريبهم عليها، مثل إمامة الصلاة أو الأذان وغيرها. أما العلوم التي يتلقونها فهي العلوم الشرعية و العربية أساسا بتوسع أكثر وتعمق، من عقيدة وفقه وحديث وتفسير وأصول الفقه، ونحو وصرف وغيرها، ويخضع هؤلاء إلى مراقبة صارمة في أخلاقهم وسلوكهم من أعضاء العزابة، لينظروا ما مدى التزامهم بالفرائض والآداب العامة، حفاظاً على سمعة الحلقة واستعداداً للمهام التي تنتظرهم في المستقبل².

ب-2- دور رجال النهضة الإصلاحية في الحركة العلمية والثقافية:

كما ذكرنا أن التعليم في بادئ الأمر اعتمد على المحضرة والمسجد، وكان تعليمًا دينيًا في الغالب، يتلقى فيه الطالب القرآن الكريم ومبادئ اللغة والفقه وغيرها من العلوم الشرعية، مع الحفاظ على الشخصية الإسلامية الاباضية الميزابية للطالب، ونجد أنه خلال بدايات القرن الثامن عشر بدأت تظهر لدينا ملامح الحركة الإصلاحية التصحيحية إذا ما صح القول، وتزعمها عدد من العلماء والمشايخ الذين كان لهم باع فكري، وزاد ديني، وطافوا بعض المراكز العلمية والدينية المعروفة في تلك المرحلة في العالم الإسلامي، سواء في الزيتونة أو الأزهر أو في مناطق التواجد الإباضي مثل جبل نفوسة، وجزيرة جربة، أو سلطنة عمان وزنجبار، وسنقتصر في هذا العنصر على ذكر ثلاث شخصيات مهمة في بعث النهضة الإصلاحية بمنطقة وادي ميزاب، وكان لها فضل كبير في تغيير الجو العلمي والفكري بالمنطقة، وسنذكرها على الترتيب الزمني لظهورها.

1- جهود الشيخ أبي زكرياء يحيى الأفضلي³: يقول الشيخ محمد علي دبور فيه: «إن أول عالم مصلح هز وادي ميزاب ليستيقظ من نومه، وأشرق فيه بعلمه وإصلاحه ليقشع عنه الظلام الذي يكلكل عليه، وأخذ بيده ليجتذ به من ضلاله الغارق فيه، هو العلامة الجليل المصلح الشيخ أبي زكريا يحيى بن صالح الأفضلي⁴».

¹ - صالح بن عمر اسماعيل: المرجع السابق، ج2، ص808.

² - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص110.

³ - الشيخ أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي المعروف بعلمي يحيى (ولد 1714م/ توفي 1787)، ولد ببني يزقن، وتلمذ على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن محمد المصعبي في جربة مدة اثني عشرة سنة، ثم سافر إلى مصر ف لازم دروس المدرسة الإباضية فيها وجامع الأزهر، وكان صديقاً ورفيقاً للشيخ عمر بن رمضان التلاتي، وعند رجوعه إلى ميزاب، تصدى للتدريس في المسجد، خلفاً للشيخ الحاج أحمد النجار، في عهد كانت الجهالة عامة، وتخرج على يده الكثيرون، منهم الشيخ ضياء الدين الثميني، و الشيخ الحاج يوسف بن حمو و الشيخ الحاج إبراهيم بن بيحمان، ولم يتول المشيخة الرسمية في بني يزقن ولا رئاسة المجلس الأعلى للعزابة لوادي ميزاب، ويعتبر بحق مؤسس النهضة العلمية بوادي ميزاب. ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص106.

⁴ محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ص253.

بعد رجوع الشيخ الأفضلي من رحلته في طلب العلم من مختلف منابع نشر العلم في تلك الفترة، ركّز جهوده في وادي ميزاب على نقطتين هامتين وهي :

- إصلاح أوضاع المجتمع.

- تربية الأجيال وتعليمهم.

وبدأ نشاطه الدعوي في بلدته بني يزقن، واجتهد في ربط العلاقات المتينة والسليمة مع حلقة العزابة التي سوف توفر له مجالا أوسع في الدعوة والإرشاد، وهو الأمر الذي سوف يجعله مقربا للناس بشكل أفضل ومباشر.

فإلى جانب نشاطه الدعوي والاجتماعي تيقن الشيخ الأفضلي أنه لا يمكن تغيير الواقع إلا بنشر العلم والتعليم¹. ففكر في فتح دار للتعليم، من أجل تعليم الأجيال الصاعدة وتربيتها على القيم الصحيحة، وبالفعل فتح مدرسة وهي في الأصل مسكنه، فتحوّلت بمثابة قسم للدراسات العليا بمنطقة وادي ميزاب²، وكثّر عدد طلبة العلم بمعهده وتوسعت حلقة العلمية، وأمه الطلبة من مختلف قرى وادي ميزاب من أجل الاستزادة من علمه، وهكذا تفرغ الشيخ الأفضلي للتعليم بمنطقة بني يزقن، وتخرج على يديه علماء أفذاذ حملوا بعده راية العلم والنهضة منهم: الشيخ ضياء الدين الثميني والذي سوف نتعرف عليه فيما بعد باعتباره خلفاً للشيخ الأفضلي في بعث النهضة، وأيضاً الشيخ إبراهيم بن بيحمان، وحمو والحاج اليسجني³، وأبو يعقوب يوسف بن عدون⁴، وبدأت حركة الإصلاح والتغيير في منطقة وادي ميزاب على عهد الشيخ الأفضلي، مبنية على تعليم الأجيال وتربيتهم وتوعيتهم، فكانت لبنة أولى في الطريق القويم، وصرخة في آذان الناس للنهوض والاستيقاظ⁵.

¹ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(123-124).

² - جمعية التراث: معجم مصطلحات الاباضية، ج4، ص967.

³ - هو والحاج اليزقني عدون (حي في 1808م)، من العلماء العاملين، تتلمذ على يد الشيخ أبي زكريا يحيى بن صالح الأفضلي، وعلى العلامة الشيخ عبد العزيز الثميني، وكان ضمن مناصريه في حركة الإصلاح الاجتماعي بميزاب، وقد اختصه الشيخ الثميني بالمشورة في بعض الأحداث والملمات. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج2، ص260.

⁴ - أبو يعقوب يوسف بن هو ابن عدون (ولد: 1745م/توفي: 1836م)، من علماء بني يسجن، و أوائل رجال النهضة العلمية الحديثة بميزاب، أخذ العلم عن الشيخ الأفضلي وعبد العزيز الثميني، واستخلفه الشيخ الثميني للتدريس في مكانه بمسجد بني يزقن، سافر إلى الحج سنة 1791م، ولما رجع أقام بمصر أربع سنوات، و إلتقى هناك مع فطاحل العلماء الأزهريين، وعاد إلى وطنه ميزاب ليتفرغ للتعليم والتأليف والإصلاح، وتولى رئاسة مجلس عزابة بني يزقن، وترك العديد من المؤلفات. ينظر: جمعية التراث: معجم مصطلحات الاباضية، ج4، ص1020.

⁵ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(126-127).

2- جهود الشيخ عبد العزيز الثميني¹: ولأنه تلميذ الشيخ الأفضلي فلم يكن ذو منهج بعيد عن منهج شيخه في الدعوة والإرشاد، ولكون عصره أيضاً هو نفسه عصر الشيخ الأفضلي فكانت نفس الظروف والأسباب التي وجهوها متشابهة من حركة الجمود والفكر المحافظ الذين كان معارض للتجديد والفكر الإصلاحي. ومن مميزات الشيخ الثميني أيضاً أنه كان من رجال المال والجاه في منطقة وادي ميزاب، فقد أغناه الله من فضله، وكان ذا صاحب مزارع وأموال ساعدته في مسيرته الإصلاحية والعلمية²، ولاحظ شيخه الأفضلي سمات النبوغ والتفوق لديه، مما جعله محل الثقة والمشورة عنده، فقدمه للتعليم في معهده مساعدا ومتدرجا على تكوين الطلبة الوافدين إليه من قرى ميزاب المختلفة، ونصحه شيخه بفتح معهد خاص به يتولى فيه تسيير حلقات العلم، ويسعى بدوره إلى نشر رسالة العلم والإصلاح وتكوين الأجيال وتحضيرهم للمستقبل، فبعد وفاة شيخه الأفضلي كانت حلقة الشيخ الثميني العلمية ومعهد العلم في ميزاب، هي الوريث الشرعي التي تحملت رسالة الإصلاح ونشر التعليم بالمنطقة، حيث استقطبت الطلبة من مختلف مناطق ميزاب، وكان له الفضل في تكوين أجيال عديدة حملت لواء الإصلاح والتغيير والتعليم في منطقة وادي ميزاب والجزائر بعده، وبرزت أسماء لامعة منها: الشيخ بالحاج بن كاسي³، والشيخ سليمان بن عيسى⁴، والشيخ محمد بن إدريسو⁵ والعديد من المشايخ الآخرين⁶.

¹ - الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن الحاج بن إبراهيم الثميني (ولد: 1718م/ توفي: 1808م)، ولد في بني يزقن، ختم القرآن الكريم في صباه، واشتغل بالعلم فلم يتح له منه حظ، ثم توجه نحو التجارة والفلاحة، ولكنه عاد للعلم مرة ثانية بعد أن تخطى عمره الثلاثين سنة، وكان ذلك عند رجوع الشيخ الأفضلي من جربة، فتلقى عنه العلم، ونبع الشيخ الثميني في العلوم العربية وعلم الكلام وأصول الحديث والفقه والفلسفة والحساب، ثم اشتغل بالتدريس والتأليف وإحداث حركة فكرية كان لها أثر جليل بمنطقة ميزاب، ونصب شيخا بمسجد بني يزقن باتفاق عزابة القصور، عام 1787، و سمي رئيسا للمجلس الأعلى لوادي ميزاب، وكان له دور كبير في مجال الدعوة والإرشاد ومقاومة الجهل والفتن وإصلاح ذات البين. ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(106-107).

² - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، ج1، ص261.

³ - بالحاج بن كاسي المعروف بالشيخ بالحاج (ولد: 1718/ توفي: 1827م)، من علماء القرارة، أخذ العلم عن الشيخ الثميني والشيخ يوسف بن عدون والشيخ عبد الله بن عيسى في بني يزقن، تولى التدريس والوعظ في بلدته، كما حارب الفساد والجهل والعصبيات التي كانت متفشية بين بني جلدته، له مراسلات مع أهل عمان، وترك مكتبة زاخرة بالمخطوطات موجودة إلى حد اليوم في بلدته القرارة. ينظر: قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص132.

⁴ - سليمان بن عيسى آل الشيخ (حي بين 1814-1848م)، من علماء وأبطال وادي ميزاب، تلمذ على يد الشيخ عبد العزيز الثميني، تولى التدريس والوعظ وخرّج الكثير من الطلبة الذين واصلوا المسيرة من بعده، كما كان خبير بشؤون الدفاع، فقام بتعليم الشباب الفنون الرياضية والعسكرية، وعينه أهالي ميزاب قائدا في بعض هجمات البدو عن المنطقة. ينظر: قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص132.

⁵ - محمد بن سليمان بن إدريسو (ولد: 1831م/ توفي: 1896م)، من علماء بني يزقن، تذكر المراجع الإباضية أنه كان تلميذا للشيخ الثميني و لكي من خلال النظر الى تاريخ وفاة الشيخ الثميني وهي سنة 1808 وميلاد الشيخ إدريسو سنة 1831، يتبين لنا أنه لم يكن تلميذه، ولكنه كان معاصرا لتلاميذ الشيخ الثميني وخاصة قطب الائمة الشيخ اطفيش عليه رحمة الله، ولقد أصيب عليه رحمة الله بالعمى ولكنه واصل مسيرة طلب العلم وتخرج على يديه العديد من العلماء الذين ناصروا الحركة الإصلاحية بميزاب، وتم نفيه رفقة قطب الأئمة إلى بلدة بنورة وأسس معهده هناك، وترك العديد من المؤلفات. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص795.

⁶ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(131-132).

وإلى جانب تصدره للتعليم فقد عكف الشيخ الثميني في مجال الكتابة والتأليف، وذلك عندما انقطع عن رئاسة مجلس العزابة، ولازم بيته لمدة 15 سنة لا يخرج منه إلا إذا حزب الأمة أمر، ولقد ترك العديد من المؤلفات منها: كتاب "النيل" في الفقه، و"معالم الدين" وهو كتاب في الفلسفة الكلامية وأصول الدين، وأيضاً كتاب "الورد البسام في رياض الأحكام" وهو خاص بالقضاء والعديد من المؤلفات المتنوعة والمختلفة في شتى العلوم والفنون¹، وكان الشيخ عبد العزيز الثميني رحمه الله عالماً عاملاً، حيث عمل من أجل مجتمعه في كل المجالات التي كان يعاني منها، فكان مصلحاً اجتماعياً، وكان معلماً ومربيًا، وفقهياً عالماً، وبالإضافة إلى ذلك واجه أنصار الباطل والفساد بكل قوة وحزم، ثم تفرغ رحمه الله للتأليف والبحث العلمي عندما أدرك أن هذا الجانب الهام قد غفل عنه الكثيرون في تلك المرحلة الهامة.

3- جهود الشيخ امحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش "قطب الأئمة": نستطيع القول أن الشيخ

الأفضلي والشيخ عبد العزيز الثميني قد مهدا الطريق للصحو الدينية والإصلاح الاجتماعي والثقافي في منطقة وادي ميزاب، وأنهما لم يعيشا فترة مهمة من تاريخ الجزائر بصفة عامة ومنطقة وادي ميزاب بصفة خاصة، وهي فترة الاحتلال الفرنسي ودخول القوات الفرنسية إلى الجزائر، ووصولها إلى وادي ميزاب، وما طرأ من تغيرات في عديد المجالات سواء الاجتماعية أو الدينية أو الثقافية، وهو ما عاشه الشيخ اطفيش قطب الأئمة، فقد كان الشيخ رحمه الله منذ مرحلته العلمية الأولى يحمل هم الدعوة والإرشاد والإصلاح، من خلال ما تشبع به في معهد شيخه عبد العزيز الثميني²، وإنه يصعب الإمام بجهود الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش في خدمة المجتمع الميزابي، وجهوده الإصلاحية والعلمية، ولكن سننتقل إلى جهوده في مجال التعليم ونشر العلم بالمنطقة، فلقد أفنى عمره في هذا الميدان سواء في التدريس أو تكوين الطلبة والعلماء، وأيضاً في مجال البحث والتنقيب والكتابة والتأليف، فيعد رحمه الله موسوعة زمانه، حتى أطلق عليه لقب قطب الأئمة، وتسمية أبي النهضة الإصلاحية وواضع أسسها العلمية³، وساعده في هذا الميدان منذ صغره أخوه الأكبر إبراهيم الذي طاف عدداً من البلاد الإسلامية وجلب منها نفائس الكتب والمخطوطات، فاستفاد منهم الشيخ اطفيش، وشتر عن ساعديه معتمداً على نفسه فيما بعد في طلب العلم، وفتحت له خزانة الشيخ عبد العزيز الثميني أيضاً حيث استفاد منها ونهل من معينها العلمي والفكري، ومن مباركة الله له أيضاً أنه تزوج ابنة عالم وهو الحاج محمد بن عيسى ازبار⁴، حيث فتحت له زوجته مريم خزانة أبيها التي ورثتها عنه، فهكذا فتحت له خزائن العلم منذ بداية مشواره¹.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(107-109).

² - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ص280.

³ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص139.

⁴ - محمد بن عيسى ابن عبد الله ازبار(حي في 1883م)، وهو من علماء بني يزقن، تتلمذ على يد علماء عصره بمسقط رأسه، ثم هاجر إلى المشرق للتزود من العلم والعلماء، ولما عاد عين شيخاً على مسجد بني يزقن وتولى منصب مشيخة وادي ميزاب، وتصدى للتدريس في حلقة علم بالمسجد وأقّنه

وأنشأ القطب في سنة 1837م، معهدا للتدريس في بني يزقن هي في الأصل داره، ثم دخل حلقة العزابة، وقد تعرض للنفي من بلده إلى بنورة، ومكث بها حوالي عشر سنوات أَلَّف فيها كتباً كثيرة، وتخرج عليه في الفقه بها كثير من الطلبة، ولما عاد إلى بلده خلف الشيخ الحاج محمد بن عيسى ازبار في مشيخة المسجد في سنة 1878م.

كان القطب رحمة الله عليه متفرغاً للتعليم فكانت دروسه طيلة أيام الأسبوع من الضحى إلى الزوال، ما عدا يوم الجمعة، ثم يزيد دروساً في المساء بعد العصر، وكان يدرس في الليل الغراء والطلبة النجباء والمتفوقين، مع تخصيص الليل للتأليف والإفتاء²، فقسم معهده إلى ثلاث مستويات وهي ابتدائي ومتوسط وعالي، بحسب الأعمار والرصيد العلمي للطلاب، وبحسب مؤهلاته وجدته أيضاً، وكان يحرص على أن يتولى التدريس بنفسه جميع المستويات، ويتولى الإشراف على طلبته ومتابعة أخلاقهم وسلوكهم، فكان معهده يعد قبلة للطلبة من جميع نواحي ميزاب وخارج ميزاب، فكان عامراً ومزدهراً، واستمر عطاءه في هذا المعهد لمدة تزيد عن السبعين سنة، لم يتوقف عن التدريس فيه ولم ينقطع إلا نادراً، وتخرج منه علماء أفذاذ حملوا بعده راية الإصلاح والتعليم بكل صدق وإخلاص من أمثال: الشيخ أبو اسحاق إبراهيم بن محمد اطفيش، والشيخ إبراهيم بن عيسى أبو اليقظان، والشيخ صالح بن عمر لعللي، والشيخ إبراهيم بن عيسى الابريكي³، والبطل المجاهد سليمان الباروني باشا الليبي⁴، والكثير من الشخصيات¹.

الطلبة من كل قرى ميزاب، واشتهر ببغضه الشديد للاستعمار ونشر في تلاميذه حب الحرية والمقاومة، ولقد تولى قيادة الدفاع عن البلد لما داهم العدو الفرنسي المدينة، وعين بعد ذلك قاضياً في بني يزقن سنة 1883م، ويعتبر أول قاضي للمحكمة الشرعية في المدينة، وترك خزانة بها أنفس المصادر والمخطوطات. ينظر: معجم أعلام الإباضية، ج4، ص822.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص177.

² - يحيى بن بھون: رحلة القطب، المرجع السابق، ص29.

³ - الشيخ الحاج إبراهيم بن عيسى الابريكي (ولد: 1857/توفي: 1911م)، ولد بمدينة القرارة، وكان أبوه تاجراً بمدينة الجلفة فأخذ معه إلى هناك فتعلم الفصاحة والشجاعة والفروسية في البادية، ثم بعد استظهاره للقرآن أرسله والده إلى معهد قطب الأئمة ببني يزقن، وأخذ العلم عن الشيخ اطفيش، ثم رجع الشيخ إلى مدينة القرارة فبدأ جهوده في ميدان التعليم والدعوة، ففتح معهده للتربية الإسلامية وتحفيظ القرآن الكريم والعلوم العربية والشرعية، وكان لهذا المعهد دور كبير في النهضة العلمية والإصلاحية في مدينة القرارة، وحمل هم الدعوة والإصلاح ومحاربة الفساد ودعاة الجمود بمنطقته القرارة، ودام الشيخ الابريكي واعظاً وعالمياً ومرشداً موجهاً للأجيال، حتى توفاه الله، وترك خلفه عدد من الطلبة الذين حملوا مسيرة الإصلاح بعده. ينظر: محمد بن قاسم ناصر بوحجام: حياة الشيخين الحاج إبراهيم الابريكي، الحاج عمر بن يحيى رحمهما الله، الأسبوع الثقافي الثالث، جمعية شباب القداماء (القرارة)، 1979م، ص-ص(3-9).

⁴ - سليمان بن عبد الله بن يحيى الباروني باشا (ولد: 1870م/ توفي: 1940م)، يعد علم من أعلام العالم الإسلامي، وأحد زعماء النهضة العربية الإسلامية الحديثة، ولد ببجل نفوسة بليبيا، ومن عائلة معروفة في العلم والسياسة والحكم، أخذ مبادئ العلم عن أبيه ببجل نفوسه، ثم توجه صوب جامع الزيتونة، ثم جامع الأزهر، ثم أرسله أبوه في سنة 1895م، إلى معهد القطب الشيخ اطفيش بوادي ميزاب، من أجل التكوين في العلوم الشرعية، ويعد الشيخ سليمان الباروني أحد أعلام الجهاد الليبي ضد المستعمر الإيطالي، وعالمًا مسلمًا حاول التوحيد بين الأهالي في ليبيا إباضية ومالكية و عرب وبربر، وله مساهمات متعددة في خدمة القضية العربية والإسلامية أيام كان الاستعمار الأوروبي يسطوا مرة تلو المرة عن البلدان الإسلامية، فكان سياسياً

وللشيخ مواقف هامة في مواجهته للاستعمار الفرنسي كنا قد ذكرناها في المبحث الأول من هذا الفصل، وكانت له مراسلات لحكامه يحتج على اضطهاد المسلمين ويطالب بالرفق بهم².

تحمل زعما الإصلاح في وادي ميزاب كل العوائق والحواجز التي كانت تقف في وجههم من أجل أداء رسالتهم الإصلاحية، وتزعموا النشاط التعليمي والنهضوي بالمنطقة، وكونوا أجيالاً من العلماء والشخصيات التي سوف تحمل الرسالة على أكمل وجه، وتكمل المسيرة العلمية والإصلاحية في كامل قرى وادي ميزاب، وتحارب على الصعيدين، المحلي ضد الجمود والطبقة التي تحاول ان تبقي المنطقة على ركودها وجمودها، وتحارب أيضاً الترسانة الاستعمارية البغيضة التي تسعى دوماً إلى تثبيط كل محاولات الإصلاح التي تظهر في الجزائر، وتحاول دائماً أن تبقي المجتمع الجزائري في ركوده وجهله ونومه.

ونجد أن الاستعمار الفرنسي لما دخل إلى وادي ميزاب طبق سياسته مثلما يفعل في كامل مناطق الجزائر، ومنها السياسة التعليمية، والتي لم يكن الهدف منها تثقيف المجتمع الجزائري أو تعليمه، إنما خلق طبقة متعلمة ولو قليلاً من أجل أن تخدم أهدافه ومصالحه في المناطق التي يستقر فيها.

ب-3- التعليم الفرنسي:

منذ الإلحاق الفرنسي لوادي ميزاب سنة 1882م، شرعت الإدارة الفرنسية في فتح مدارس لها في قرى وادي ميزاب، فبنيت مدرسة غرداية الفرنسية من 1886م/1889م، وطبقاً لأمر 1892م، فقد فتحت مدرسة العطف ودرس فيها أول معلم ميزابي باللغة الفرنسية وهو عمر بن باحمد بالولو، وفتحت المدرسة الرسمية ببني يزقن أبوابها في يوم 15 أكتوبر سنة 1892م، وأما مدرسة مليكة فلقد فتحت في سنة 1907م³، وفي الحقيقة أن الميزابيين في بادئ الأمر لم يستسيغوا هذا التعليم فعارضوه وقاطعوه وامتنعوا من إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس، لأنهم رأوا أن الهدف من هذه المدارس هو مسخ الشخصية الإسلامية وتخريب مقوماتها، وأن فرنسا لم تكن تقصد من فتح هذه المدارس تثقيف الأبناء وإنما هدفها في ذلك هو محاربة الإسلام واللغة العربية، فأخذ الأهالي من أجل ذلك موقفًا سلبيًا، ولم يُدخلوا أبنائهم إلى المدارس الفرنسية⁴.

ومجاهداً و داعماً لكل حركات التحرر والجهاد، وله العديد من المقالات في الصحف وأسس المطبعة البارونية في مصر سنة 1906م، والتي أصدرت العديد من الكتب، وله تأليفات مهمة في عدة مجالات. ينظر: جمعية التراث: معجم أعلام الإباضية، ج3، ص-ص(426-430).

¹ - قاسم بن محمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(145-150).

² - صالح بن عمر اسماعيل: المرجع السابق، ج2، ص891.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص163.

⁴ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص81.

ولما تفتطنت الإدارة الفرنسية إلى هذا الأمر قامت بإجراءات ضد الأهالي، فكانت لا تسمح لتلميذ بمغادرة المنطقة إلا برخصة، وكانت تأمر كل رئيس عشيرة أن يرافق إلى المدرسة بنفسه، يوم الدخول المدرسي، تلاميذ العشيرة المسجلين في ذلك الموسم، وظل سكان بني ميزاب يتجنبون إرسال أولادهم إلى هذه المدارس، فنلاحظ أن عدد التلاميذ في مدرسة بني يزقن مثلاً، يستقر حول الخمسين تلميذاً في السنوات: 1908/1909/1910م، وإلى جانب مدارس التعليم العام، فلقد أنشئت الإدارة الفرنسية عام 1896م، مدرسة للتعليم المهني بغرداية، تدرس فيها النجارة، ثم أضيف إليها سنة 1909 النقش على النحاس¹.

ولكن الموقف الميزابي لم يستمر على هذه الحالة من القطيعة، وإنما تغير الوضع عندما أدرك الميزابيين أهمية التكوين الفرنسي وحاجة أبنائهم إليه ليدخلوا معترك الحياة الواسعة ويواجهوا المخططات الاستعمارية، في مجالات الإدارة والتجارة والاقتصاد، وذلك راجع إلى أسفارهم المتعددة نحو بلدان الشمال واحتكاكهم بالأوضاع العامة هناك، ففطنوا إلى المستوى التعليمي الهزيل الذي يدرس في مدارسهم، وضعف التحصيل العلمي من جراء ذلك، فطالبوا برفع المستوى التعليمي وتحسين الأداء والتجهيزات، لتواكب المدارس في الشمال، ولكن السلطات الفرنسية لم تلب طلباتهم و أبطت التعليم على حاله وفي ظروفه السيئة².

ولم يتوقف الأمر عند المدارس الفرنسية فقط، فقد أنشأت مدارس الآباء والأخوات البيض، التي كان يقودها الكاردينال لافيغري في الجزائر، وهي عبارة عن مؤسسات تدعو للمسيحية، وكان مقرهم في بادئ الأمر في متليلي سنة 1883م، ثم تحولوا إلى غرداية في سنة 1884م، ووقف الأهالي ضد هذه المدارس وكان في مقدمتهم الشيخ محمد بن يوسف اطفيش، الذي حارب هؤلاء حرباً إعلامية في منطقة وادي ميزاب، ودعا إلى مقاطعتهم، وعدم التسجيل في مدارسهم، ففي أكتوبر 1896م، نجد الأب قريزي يشتكي من مغادرة التلاميذ لمدرسته، وفي سنة 1893م، أنشئ المشغل الأهلي لغرداية وتديره الأخوات البيض، كان يستقبل حوالي أربعين فتاة، أغلبهن من المدايح، يتعلمن الخياطة والغزل والنسيج³.

فنجد أن أعداد التلاميذ المنتسبين إلى المدارس الفرنسية، قد ذهب في الإزدياد والتطور أكثر، فنجد مثلاً أنه في سنة 1914م بلغ عدد التلاميذ المنتسبين للمدارس الفرنسية (465) تلميذ، ليصل هذا العدد في سنة 1920م إلى (615) تلميذ، وتراوح في هذه النسبة⁴.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 164.

² - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 81.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص(164-165).

⁴ - نفسه، ص 210.

وزاوج الميزابيون بين التعليم العربي الإسلامي وبين التعليم الرسمي الفرنسي، وذلك من أجل مواجهة الاستعمار الفرنسي ومجابهته عن طريق لغته وثقافته، وقام الميزابيون أيضاً بعد بتأسيس المدارس والمعاهد والجمعيات الثقافية التي كان لها الأثر الحسن في الحياة الثقافية والفكرية، وفي النهضة الإصلاحية بالمنطقة، وقاموا بالعديد من الأعمال الصحفية والعلمية في شتى الميادين ولكن سوف نؤجل هذا لارتباطه الوثيق بالهجرة الميزابية أو بشكل أوضح بالبعثات العلمية الميزابية نحو تونس، وهو ما سنقف عليه في الفصل الموالي.

الفصل الثاني:

بدايات الهجرة وأسبابها.

- 1- الجذور التاريخية للهجرة الميزابية إلى تونس.
- 2- أسباب ودوافع هجرة سكان وادي ميزاب إلى تونس.
- 3- أنواع الهجرات الميزابية إلى تونس.

إن التواصل الحضاري بين الأقطار المغاربية قديم جدا، وذلك راجع للتقارب الجغرافي واللغوي، وبحكم العادات والتقاليد والتاريخ المشترك بين هذه الأقطار، فلقد جمعتهم في فترات تاريخية سابقة حكم دول واحدة، وجمعهم مصير مشترك، فلذلك كان التواصل فيما بينهم مستمرا.

أما حديثنا سوف يقتصر عن تلك الرحلات والهجرات والبعثات التي ربطت البلاد التونسية بوادي ميزاب، ولم يكن هذا الترابط بقریب في الفترة الزمنية، وإنما هو تواصل وترابط منذ النشأة الأولى للمذهب الإباضي في شمال إفريقيا، فلقد كانت منطقة الجريد التونسي، وجزيرة جربة منطقة للتواجد الإباضي، ثم كان التواجد الإباضي بوادي ميزاب، فكان التواصل العلمي والحضاري والثقافي بينهما مستمرا، خاصة بين جزيرة جربة ووادي ميزاب، وذلك ما سوف نتعرف عليه في هذا الفصل، من خلال التطرق لجذور الهجرة الميزابية، وأيضاً عن أهم الأسباب والعوامل التي ساعدت في تلك الهجرة، حيث أن للهجرة دائما أسباب تكون مؤثرة في ظهورها، من حيث الأسباب الاجتماعية أو الاقتصادية والثقافية والسياسية، وهذه الأسباب تكون مرتبطة ارتباط طرديا مع الأوضاع التي سبق التطرق إليها في الفصل الثاني، وأيضاً التطرق لأنواع الهجرات الميزابية وكيف كانت تتم، لأنها لم تكن هجرة واحدة وإنما اتخذت أشكالا من حيث طريقة الهجرة، وهو ما سنعرفه في المبحث الأخير في هذا الفصل.

1- الجذور التاريخية للهجرة الميزابية إلى تونس .

قبل التطرق إلى جذور الهجرة الميزابية، والتواصل الحضاري والتاريخي بين وادي ميزاب والبلاد التونسية منذ بداياتها التاريخية الأولى ارتأينا إعطاء لمحة عن مفهوم مصطلح الهجرة وأهم التعريفات التي وردت عنها، من أجل التوضيح والتبيين.

أ- مفهوم الهجرة:

تعد الهجرة ظاهرة إنسانية قديمة قدم الإنسان على هذا الكون، ولو أمعنا النظر في تاريخ الإنسانية لوجدنا أن ظاهرة تنقل السكان من موطن إلى آخر هي صفة ملازمة له وعلى حسب تغير عوامل الجذب والطرده تغير الوجهات¹، ولا تزال الهجرة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره ولذا فإنها استرعت ولا تزال تسترعي انتباه المختصين في مختلف مجالات الدراسات الإنسانية نظرا لما ينشأ عنها من أوضاع ومشكلات تؤثر في المجتمع الذي خرجت منه و المجتمع الذي آلت إليه على حد سواء².

¹ - عبد الكريم الماجري: هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربية الجوانونة إلى تونس (1831-1937)، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2010م، ص 21.

² - أحمد أبوزيد: "الهجرة واسطورة العودة"، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد السابع عشر، جويلية، اوت، سبتمبر 1986م، الكويت، ص 273.

وارتبطت كلمة هجرة في أذهان المسلمين بحدث تاريخي هام وهو هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة سنة 622م، وسمي كل من ذهب مع النبي عليه الصلاة والسلام بالمهاجرين¹، وابن منظور عرفها على أنها الخروج من أرض إلى أرض، ويضيف: سمي المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم ومساكنهم التي نشؤوا فيها لله، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال حين هاجروا إلى المدينة²، والهجرة يعرفها الميوزي "هي الانتقال من مكان إلى مكان انتقال ترك للأول واستقرار في الثاني"³، ويضيف صاحب كتاب المصباح المنير "الهجرة بالكسر هي مفارقة بلد إلى غيره فإن كانت قربة لله فهي الهجرة الشرعية"⁴، وهذا ما يؤكد أيضاً الفيروزآبادي بقوله الهجرة بالكسر والضم الخروج من أرض إلى أخرى⁵، ويذكر الجزري ما يلي "الهجرة في الأصل: الاسم من الهجر، ضد الوصل. وَقَدْ هَجَرَهُ هَجْرًا وَهَجْرَانًا، ثُمَّ غَلَبَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَتَرَكَ الْأَوَّلَى لِلثَّانِيَةِ. يُقَالُ مِنْهُ: هَاجَرَ مُهَاجِرَةً"⁶.

ومن هذا نستنتج أن للهجرة مدلولين أحدهما لغوي والآخر شرعي.

واللغوي ما تطرقنا له من قول ابن منظور و الفيروز آبادي وغيرهم من علماء اللغة أما التعريف الشرعي فقد حدده ابن عربي⁷ بقوله "الهجرة هي الخروج من دار الحرب إلى دار الإسلام"⁸.

وهي أيضاً "خروج المسلم، المكلف، القادر، من أرض الحرب إلى أرض الإسلام، فراراً بالكليات الست¹، أو جهاداً في سبيل الله"، ومن خلال هذا التعريف يتبين أن الهجرة شرعت لغرضين أولهما الفرار بالكليات الست وثانيهما الجهاد في سبيل الله².

¹ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص22.

² - ابن منظور: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، ج5، 1994م، ص251، ابو الفيض محمد بن محمد الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، د.ط، تح: مجموعة محققين، دار الهداية، د.م، ن، ج14، د.ت، ص397.

³ - ابو عبد الله بن ابي نصر الميوزي: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، ط1، تح: زبيدة محمد سعيد، مكتبة السنة، مصر، 1995م، ص37.

⁴ - ابو العباس احمد بن محمد الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، د.ط، المكتبة العلمية، بيروت، ج2، د.ت، ص634،

⁵ - الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005م، ص495.

⁶ - مجد الدين الجزري: النهاية في غريب الحديث والاثار، تح: طاهر احمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، 1979م، ج5، ص244.

⁷ - وهو بن العربي محي الدين بن محمد بن علي الحاتمي الطائي (ت638هـ/1240م): ولد في مرسية بالأندلس وتوفي بسفح قاسيون في دمشق. صوفي يلقب بالشيخ الأكبر أقام 30 عاماً في اشبيلية ثم رحل إلى الشرق، كان ظاهرياً في العبادات باطنياً في الاعتقاد، له أربعمئة مصنف منها: "الفتوحات المكية في معرفة الأسرار المالكية"، "فصوص الحكم"، "ترجمان الأشواق"، انظر: علي بن الحسن الهنائي: المنجد في اللغة والأعلام، ط28، منشورات دار الشروق، بيروت، 1986م، ص12.

⁸ - محمد بن عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص19، ابو زكريا محي الدين يحيى بن شرف النووي: تحرير الفاظ التنبيه، ط1، تح: عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، 1987م، ص313.

ولذلك فلهجرة واجبة عندما يصبح الإنسان مضطهدا في دينه، عاجزا عن دفع الأذى عن نفسه وعقله ونسله وعرضه³، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾⁴.

ولذلك فإن الهجرة بدافع الإيمان واجبة على من أسلم وينبغي أن يغادر دار الكفر ويلتحق بدار الإسلام وهو ما تؤكدُه العقيدة الإسلامية⁵، ولهذا نجد أن العديد من المؤرخين يعرف الهجرة على أنها المقاومة الصامتة⁶.

ونجد في القواميس الفرنسية أن فعل هاجر: مغادرة البلد الأصلي للاستقرار في بلد آخر وقتيا أو بصفة دائمة⁷، ويعرفها دايفيد سيللي بأنها "حركة انتقال الأشخاص في مسافة طويلة إلى غير موطنهم الذي نشؤوا فيه"⁸، ويعرفها جونار "ترك بلد والالتحاق بغيره، سواء منذ الميلاد أو منذ فترة طويلة، بقصد الإقامة الدائمة وغالبا بقصد تحسين الوضعية بالعمل"⁹.

ولكن مؤتمر روما المنعقد سنة 1924م ربط ظاهرة الهجرة بنية الإقامة الدائمة إذ عرف المهاجر "هو كل أجنبي حلّ ببلد للبحث عن عمل والإقامة الدائمة به، أما العامل الذي يصل إلى البلد للعمل بصفة وقتية ليس مهاجرا"¹⁰.

ويختلف تعريف هذا المصطلح من بلد إلى آخر على حسب معايير كل بلد، فنجد مصطلح الهجرة في نظر الدولة الألمانية هي مغادرة البلد والاستقرار خارجه بصفة مستمرة، إن لم تكن نهائية، وأما استراليا فتطلق كلمة مهاجر على كل من تغرب نهائيا، وتعتبر النمسا المهاجر هو كل من ترك بلده واستقر بالخارج، أو من سافر للخارج بحثا عن عمل، وتتفق كل من الولايات المتحدة وكندا وفرنسا على أن المهاجر هو كل شخص يترك بلده

¹ - ويقصد بالكليات الست : الدين، النفس، المال، العرض، النسل، العقل.

² - محمد بن عبد الكريم: حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص21.

³ - المرجع نفسه: ص 33.

⁴ - سورة النساء الآية: 97.

⁵ - روبراجون: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1919.1871، ج2، تر: حاج مسعود بلعربي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م. ص22، علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، ط1، تح: جماعة علماء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م، ص 256.

⁶ - قليل مليكة: هجرة الجزائريين من الاوراس إلى فرنسا (1939.1900)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، اشراف الدكتور لمياء بوقريوة، جامعة باتنة، 2009/2008، ص 13.

⁷ - Hidjra: encyclopidie, nove II, p387. نقلا عن عبد الكريم المجاري: ص22.

⁸ - يوسف الجفالي: المرجع السابق، ص 31.

⁹ - قليل مليكة: المرجع السابق، ص 12.

¹⁰ - عبد الحميد زوزو: الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين 1919.1939، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 11.

بنية الإقامة الدائمة خارجه، وتعرف كل من فنلندا والصين وبولونيا وإيطاليا واليابان المهاجر بأنه ذلك الذي يبحث عن عمل في الخارج¹.

ونجد في الجزائر أن مفهوم الهجرة تغير بعد توقيع معاهدة إيفيان حيث تم استخدام لفظة مهاجر بدلا من مصطلح مسلم فرنسي جزائري وذلك نظرا لتغير الظروف السياسية الاقتصادية والاجتماعية وغيرها بعد استقلال الجزائر².

ب - الهجرة واللجوء:

وهنا يجب أن نركز على أمر مهم وهو أسباب ودوافع الهجرة وظروف المهاجر، لأن مصطلح الهجرة يمكن أن يتغير على حسب طبيعة الهجرة، فيجب أن نميز من كانت هجرته اختيارية طوعية وبين من كانت هجرته إجبارية مصحوبة بالعنف، وتكون الهجرة الإجبارية نتيجة ضغوط اقتصادية وعوامل عسكرية وتفرقة اجتماعية وإقصاء سياسي³، وأن المجبور عن الهجرة يعرف باللاجئ لان اللجوء لا يتأتى إلا بالإكراه⁴، والتلجئة لغويا هي الإكراه⁵، و ألقانا الأمر إلى كذا أي اضطرني إليه⁶، ويضيف صاحب كتاب جمهرة اللغة ما يلي " واللَّجَأُ، مَقْصُورٌ مَقْصُورٌ مَهْمُوزٌ: مصدر لجأت إِلَيْهِ أَلْجَأَ لَجْأً وَلَجْأً، إِذَا اعْتَصَمْتُ بِهِ، وَأَلْجَأْتُهُ إِجْءًا، إِذَا عَصَمْتَهُ وَالْمَلْجَأُ، الْمَلْجَأُ، وَهُوَ كُلُّ مَا لَجَأْتُ إِلَيْهِ مِنْ مَكَانٍ أَوْ إِنْسَانٍ"⁷.

وتسمى هذه العملية أيضاً بالتهجير وهي نقل مجموعة سكانية من مكان إلى آخر دون موافقتها، وذلك لأسباب تختلف على حسب المكان والزمان وتختلف عن الهجرة التي تتم بإرادة المهاجر⁸، واللاجئ هو أي شخص خرج من الجزائر وتوجه إلى بلد آخر للإقامة به وذلك هروبا من القمع والاضطهاد السياسي في أرض الجزائر خلال فترة الاحتلال الفرنسي من سنة 1830م إلى غاية 3 جويلية 1962م⁹.

¹ - عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص11.

² - قليل مليكة: المرجع السابق، ص 14.

³ - يوسف الجفالي: المرجع السابق، ص32.

⁴ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص23.

⁵ - بن منظور: المصدر السابق، ص 3998.

⁶ - ابو عبد الرحمن الخليل بن احمد الفراهيدي: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، ابراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج6، ص 178.

⁷ - أبوبكر بن محمد الازدي: جمهرة اللغة، تح: رمزي منير البعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، 1987م، ج2، ص 1044.

⁸ - عبد الوهاب المسيري: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج19، ص201.

⁹ - عمار بوحوش: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962، ط1، دار الغرب الاسلامي، بيروت، لبنان، 1997م، ص542.

ج- الجذور التاريخية للهجرة الميزابية إلى تونس.

إن الحديث عن جذور العلاقة والتواصل بين الميزابيين في الجزائر والإباضية في تونس يرجعنا إلى فترات زمنية قديمة، وذلك راجع إلى انتشار المذهب الإباضي في بلاد المغرب الإسلامي في بداياته الأولى.

وبعد أن استقر إباضية الجزائر في منطقة وادي ميزاب، وعمروا الوادي وبنوا قصورهم السبعة كانت العلاقة بينهم في أوج عطائها خاصة العلاقات العلمية والدينية، وبحكم أن العلاقات كانت في المجال الديني المذهبي فلم تكن العلاقات مرتبطة فقط مع جزيرة جربة، أو بلاد الجريد في تونس، وإنما أيضاً مع المناطق التي تشهد التواجد الإباضي، كجبل نفوسة في ليبيا، وزنجبار في القرن الأفريقي، وفي بلاد المشرق أيضاً، ولكننا هنا سنقتصر على التوصل الميزابي التونسي وبخاصة منطقة جربة التي شهدت ومازالت لحد اليوم تشهد التواجد الإباضي في تونس.

ج-1- التواصل بين الميزابيين بالجزائر والإباضيين في تونس:

كما ذكرنا آنفاً من أن الرستميين بعد سقوط دولتهم على يد العبيديين، انتشروا في المناطق المتفرقة والبعيدة عن الأنظار الفاطمية، وكانت منطقة الشرق الجزائري والجنوب الغربي من تونس منطقة للتواجد الإباضي، كمنطقة أريغ، ووارجلان، ومنطقة الجريد التونسي، ووادي سوف، وغيرها من المناطق.

وكانت منطقة الجريد التونسي أيضاً مكاناً للتواجد الإباضي، وعرفت نمواً وازدهاراً لهذا المذهب، منذ دخول المذهب إلى المغرب الإسلامي وظهور عاصمة الإباضيين بمنطقة الجريد التونسي والتي كانت تسمى بـ "قنطرار"، إلى غاية انقراض المذهب الإباضي في هذه المنطقة وكان ذلك في القرن السابع الهجري، ولعل آخر العلماء المعروفين في أواخر هذا العهد هو المؤرخ والفقير أبو العباس بن سعيد الدرجيني صاحب كتاب الطبقات ودفين نقطة.¹

ويذكر علي يحي معمر في كتابه الإباضية في موكب التاريخ حول العلاقة بين بني ميزاب وإباضية جربة مايلي: «... إن العلاقة بينهم كانت طيبة للغاية القصوى بعد عمارة الوادي، فبمجرد استقرارهم في الوادي بقراهم الخمس، توافدت اليهم وفود، من نفوسه، وجربة، ووارجلان، رجال من أهل العلم والرأي والصلاح والتقوى لأداء رسالة العلم والدين والخلق والمصاهرة»²

ورغم المسافة الكبيرة التي تفصل القطرين عن بعضهما البعض، إلا أن روح التواصل والتآزر بينهما كان بينا وواضحاً، ولعل من أبرز العوامل المساعدة على هذا التواصل نلخصه في أمرين هامين، كانا يجمعان وادي ميزاب وجزيرة جربة التونسية التي تحتوي على إباضية تونس، وهما:

¹ - صالح باجي: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، ط1، دار بوسلامة، تونس، 1976م، ص61.

² - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص225.

أولاً: العقيدة المشتركة بين المنطقتين، فنجد أن سكان المنطقتين سواء في وادي ميزاب أو في جزيرة جربة أغلبهم إن لم نقل كلهم يتمسكون بالمذهب الإباضي، وهذا ما جعلهم يلتقون عقيدة وسلوكا واجتماعيا، وهو ما فتح بين المنطقتين باب التعاون والتفاهم، ويسر الطريق للجوار العاطفي والمصاهرة والمواطنة إلى غير ذلك من مظاهر النشاط الاجتماعي.

ثانياً: الظروف الاجتماعية والبيئية المتشابهة، فجزيرة جربة التونسية هي جزيرة منعزلة بعض الشيء، وأيضاً تكاد تكون فقيرة لولا شيء من الثروة السمكية والزراعية، وبما أنهم اصحاب مذهب غير المذهب السائد في المنطقة فهناك بعض الخلافات جعلتهم يتسمون بالخذر ويتشبثون بالمذهب الذي اختاروه والانغلاق حول أنفسهم، وأيضاً نجد الأمر نفسه عند الميزابيين بالجزائر، فمنطقة وادي ميزاب تقع في وسط الرمال، ولا يوجد بها الخيرات الكثيرة إلا ما يمتهنه السكان من الزراعة أو الرعي.

فكلا هذين العاملين فتح بين المنطقتين أفقاً واسعة من التعاون والروابط الاجتماعية والثقافية والعلمية وغيرها من الصلات التي جمعت ومازال تجمع بين المنطقتين¹، ومن بين أبرز همزات التواصل والترابط بين المنطقتين نجدها منذ بداية نشأة نظام العزابة الذي يعد هو الأداة الأساسية في ربط المجتمعات الإباضية أينما كانت.

ج-2- دور الشيخ فصيل بن أبي مسور² وأبنائه في ربط العلاقات الدينية والاجتماعية بين المنطقتين:

فنجد أن الشيخ فصيل بن أبي مسور واحد من أبرز علماء منطقة جربة التونسية يرسل ابنه زكريا ويونس إلى العالم أبي عبد الله بن بكر الفرستائي من أجل تأسيس نظام العزابة، ويعد يونس وزكريا ابني الشيخ بن أبي مسور من أنجب تلاميذ أبي عبد الله ومن السابقين الأولين للحلقة، وعملا بوصية أبيهما الذي أوصاهما بملازمة الشيخ أبي عبد الله³، وبهذا نجد أن تأسيس نظام العزابة كان بجهد متلاحمة بين إباضية الجزائر وتونس وحتى ليبيا.

واستمرت علاقات التواصل بين القطرين على مر الفترات التاريخية المتعاقبة، فنجد أنه في فترة من الفترات شهدت منطقة وادي ميزاب انتشار أخطار عظيمة من الجهل والتعصب والفتن، وكان ذلك خلال أواخر القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر، ولقد رأى أهل وادي ميزاب أن منطقتهم في فناء واضمحلال، وإذا لم تتدارك بعلماء فطاحل من إخوانهم الإباضية المنتشرين عبر ربوع بلاد المغرب فسوف يكون المآل لا يحمد

¹ - إبراهيم محمد طلاي: العلاقة بين سكان جربة ووادي ميزاب، الأيام الدراسية من الشيخ عمي سعيد بن علي الجري إلى الشيخ هو بن موسى عمي سعيد، محاضرة مرقونة، مؤسسة الشيخ عمي سعيد، ص3.

² - هو الشيخ فصيل بن أبي مسور يسجا بن يوجين الهراسني (توفي بين: 1029/1048)، من أفاض العلماء بجزيرة جربة التونسية، ولد بنفوسة تلقى العلم عن ابن أبي مسور بجربة وبعض علماءها حتى أصبح فقيها وعالما، ولقد تخرج على يده العديد من الطلبة النجباء، وهو أول من فكر في تأسيس نظام العزابة، لهذا أوصى تلميذه أبي بكر الفرستائي وولديه زكريا ويونس من أجل تجسيد هذا النظام على أرض الواقع وبالفعل تجسد ذلك. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص - ص (707-708).

³ - صالح بن عمر اسموي: المرجع السابق، ج1، ص-ص (312-313).

عقباه، فأرسلوا يستغيثون من إخوانهم في مختلف المناطق القريبة، وكانت المساندة الفورية من إخوانهم في جزيرة جربة، من خلال إرسال العالم الجليل¹ الشيخ عمي سعيد بن علي الخيري الجربي²، وقام الشيخ سعيد الجربي المشهور بلقب عمي سعيد، بالعديد من الإصلاحات التي مست مختلف جوانب حياة المجتمع الميزابي ومن أبرزها تحديد نظام الحلقة (العزابة)، التي أسسها الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر، وذلك من خلال إحداث هيئة إروان³ وتخصيص مقر لها بجوار المسجد، وتزويده بمكتبة.

ولقد عمل الشيخ عمي سعيد على إخماد نار الفتن بين العشائر وبين القرى، فانتشر الأمن والاستقرار في ربوع المنطقة، كما أنشأ نظام العشائر بغرداية⁴، كما أسس مجلسا للفتوى سنة 1450م، يجمع مشايخ وعلماء قصور وادي ميزاب، وقد سمي فيما بعد باسمه، ولا يزال المجلس قائما بدوره إلى اليوم⁵.

وأما في الشق الثاني وهي إسهامات الميزابيين في الحياة العلمية والاجتماعية والدينية بالنسبة لجزيرة جربة وإباضية تونس بصفة عامة فلقد كانت هناك علاقات متينة تزعمها جملة من العلماء وطلبة العلم، سواء بصفة جماعية وبالصيغة الفردية، ونجد على سبيل المثال الشيخ يوسف بن محمد المصعبي المليكي⁶، وابنه بن بعده أحمد بن يوسف اللذين كان لهما الفضل الكبير على سكان جربة، ولهما الآثار الجليلة والمواقف المحموده على سكان المنطقة بفضل جهودهما ونشاطهما الاجتماعي والثقافي، وإحيائهما للحركة العلمية في جربة، وكان مقر نشاط الشيخ يوسف بن محمد المصعبي هو الجامع الكبير بجزيرة جربة.

وهكذا تنوعت واختلقت أشكال التعاون والترابط بين القطرين فأخذت في بعض الأحيان البعثات المنظمة لطلبة العلم بين المنطقتين، أو الرحلات الفردية سواء للعلماء أو طلبة العلم، فكان العالم ينتقل بين منطقة وأخرى قياما بواجب التعليم ونشر الفضيلة والتفقه في الدين، وأيضاً كان انتقال الطلبة وسعيهم وراء الاستفادة والأخذ عن أي عالم يظهر في جربة أو ميزاب، إما رغبة في الاستزادة والإحاطة بقدر ممكن من المعرفة وإما لأن أوطانهم لا يتوفر فيها من العلماء من يتفرغ للتعليم مثل ما يتوفر في الوطن المتنقل إليه، ولقد كان الطلبة يجدون من

¹ - علي يحي معمر: المرجع السابق، ص 226.

² - للاطلاع حول سيرة الشيخ عمي سعيد ينظر الفصل السابق أو ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص ص (376-377).

³ - إروان: هي جمع مفردة "إيرو" وهو لفظ أمازيغي، يعني طالب العلم الذي حفظ القرآن الكريم وتفرغ للدراسة غالبا، ويتشكل من مجموع هؤلاء الطلبة هيئة إروان، وهي القوة المساندة للعزابة، ولها نظم وتقاليدها معينة، وكثيرا ما يسند لهم العزابة أعمالا، كما يختارون منهم الأعضاء الجدد للحلقة العزابة، ولديهم خاص بالمسجد، فيه يجتمعون ويتداولون مهامهم ومسؤولياتهم. ينظر: مجموعة من الباحثين: المرجع السابق، ج1، ص87.

⁴ - يوسف بن بكر الحاج سعيد: المرجع السابق، ص100.

⁵ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص376.

⁶ - ولد بقرية مليكة بوادي ميزاب من عائلة آل ويرو، سافر رفقة والده إلى جزيرة جربة سنة 1692م، ولقد أخذ العلم على مشايخ الجزيرة المعروفين كالشيخ الجادوي والشيخ سليمان بن محمد الباروني، وفي سنة 1701م تنقل إلى مدينة تونس ليستزيد من العلم ثم توجه صوب جامع الازهر بالقاهرة، ثم عاد إلى جزيرة جربة ملما بالعديد من المعارف والعلوم، وأصبح مفتي الجزيرة وعالمها، ورئيس مجلس الحكم فيها، ولقد كان في نظر الدولة العثمانية ممثل إباضية المغرب الاسلامي. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص ص (1031-1032).

الإمكانات ما يعينهم ويشجعهم على قضاء فترة في الأخذ بالاستزادة، فمساجد ميزاب بجانبها بيوتات تكون مأوى للطلبة الوافدين من القطرين ولها من الأوقاف ما يعين أولئك الطلبة ويدفع عنهم العوز، ومثل ذلك في جربة ومساجدها كالمسجد الكبير في حومة الحشان، ومساجد واد الزيب وغيرها¹.

ج-3- مرحلة الشيخ أبي زكريا يحيى الأفضلي² ودوره في التواصل الحضاري بين القطرين:

يعد الشيخ أبو زكريا يحيى الأفضلي من العلماء البارزين الذين شهدتهم منطقة وادي ميزاب، نظرا للعمل الجبار الذي قام به تجاه منطقته، ولقد تزعم حركة إصلاحية شاملة واعتبر بحق أول باعث للإصلاح في وادي ميزاب، ولقد كان للشيخ أيضاً دور بارز في ربط علاقات التواصل العلمي والروحي بين وادي ميزاب وجزيرة جربة، خلال القرن الثامن عشر للميلاد.

تلقى الشيخ الأفضلي مبادئ العلوم الأولى في مسقط رأسه ببني يزقن، ولكنه كان يطمح إلى ما أكثر من ذلك وشغوا للحصول على منابع متعددة ليغترف منها العلوم والمعارف³، وعندما رأى أن منطقة ميزاب لم تعد تكفي غرضه في طلب العلم، وأيضاً أحس الشيخ الأفضلي أن وطنه ميزاب بدأ يدركه الجهل عزم أن يكون عالماً مصلحاً لينقذ وطنه مما هو فيه، لهذا فكر الشيخ في الرحلة نحو جزيرة جربة التونسية.

فكانت جزيرة جربة في تلك الفترة تتمتع بالعلماء المخلصين الكثيرين، ومما شجع الشيخ أيضاً للتوجه نحو جزيرة جربة هو وجود العديد من إخوانه الذين يكفلونه بأموالهم وبالأوقاف الكثيرة التي أوقفت لأمثاله من طلبة العلم، وبالفعل هاجر الشيخ إلى جزيرة جربة.

وتعد جربة أيضاً مقصداً لطلبة العلم من كل أنحاء المغرب للتعلم والتزود من الصلاح الذي تتسم به، ولم تكن مقصداً لأصحاب المذهب الإباضي لوحدهم، بل كان المالكية والحنفية يؤمونها من أنحاء المغرب ويجدون كل الترحيب والسخاء من أهلها، وقد أخذ الشيخ الأفضلي العلم على العديد من علماء جربة، ولكنه تأثر بشيخه يوسف بن محمد المصعبي المليكي الذي كان يعد شيخ جربة وزعيمها، لهذا أعجب به الشيخ كثيراً وجعله قدوته

¹ - إبراهيم محمد طلاي: المرجع السابق، ص6.

² - الشيخ أبو زكريا بن صالح الأفضلي (ولد: 1714م/توفي 1788م)، هو من العلماء الأعلام، وكبار المشايخ في وادي ميزاب إبان النهضة الحديثة، ويعد هو باعنها الأول، تلقى مبادئ العلوم في مسقط رأسه ببني يزقن، ثم توجه نحو جزيرة جربة من أجل الاستزادة من مشايخها وعلماءها، ثم توجه صوب مصر للاستزادة أيضاً من علومها ومعارفها خاصة ما يخص المذهب الإباضي، ولقد كان يعتني بالمخطوطات النفيسة ويقوم بنسخها، بعد هاته الرحلة العلمية التي قام بها الشيخ الأفضلي رجع إلى مسقط رأسه وادي ميزاب أين قاد هناك حركة إصلاحية شاملة، وتصدر للتدريس والتعليم وتخرج على يديه جملة من الطلبة النجباء الذين حلموا مشعل الإصلاح من بعده، بالإضافة إلى جملة من المؤلفات النفيسة في المذهب الإباضي. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص-ص (965-967).

³ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص966.

ومثله الأعلى، وقام الشيخ المصعبي أيضاً بتقريبه والإعتناء به، من أجل إحياء وطنه ميزاب الذي يعد موطن الشيخ المصعبي أيضاً¹.

مكث الشيخ الأفضلي في جربة ما يقارب اثني عشرة سنة طالبا للعلم، ولم يكتفي بهذا فقط فتنقل صوب مصر وإلى جامع الأزهر، وأيضاً لازم دروس المدرسة الإباضية بوكالة الجاموس² بمصر.³

فجمع الشيخ الأفضلي عديد العلوم والمعارف من جربة والأزهر بمصر، وعاد إلى موطنه يحمل زادا علميا وفكريا، وهما كبيرا من أجل إصلاح المجتمع الميزابي والرقى به، وبعث الحركة العلمية والثقافية الراكدة في المنطقة.

فبذل جهودا في دروسه ووعظه لإرشاد الناس إلى صالح الأفعال، كما أسهم أيضاً في حل المشاكل الاجتماعية من الزواج والميراث وإصلاح ذات البين، كما فتح دارا للتعليم من أجل تكوين النشء الصاعد وتخرج طلبة يحملون رسالة الإصلاح وبالفعل نجح الشيخ الأفضلي في تكوين نخبة من الطلبة النجباء في الذين تحملوا عبء المسؤولية من أجل مواصلة مسيرة الإصلاح⁴.

هكذا كانت العلاقات التاريخية المشتركة بين القطرين الميزابي والجربي، والتي ميزتها العلاقات المذهبية بالدرجة الأولى بحكم أن كلا سكان المنطقتين يتمسكون بالمذهب الإباضي، وأيضاً المميزات اللغوية بحكم أيضاً أن أصحاب المنطقتين يتحدثون اللغة الميزابية الأمازيغية، والإرث التاريخي والحضاري المشترك كل هذه العوامل كانت مساعدة وبشكل كبير في تكوين علاقات ثنائية مميزة، غلب عليها الطابع الثقافي والديني بالدرجة الأولى ثم الطابع الاجتماعي والاقتصادي بالدرجة الثانية.

إذاً فالهجرة الميزابية إلى تونس لم تكن ظاهرة حديثة أو وليدة الفترة الاستعمارية أو الحاجة الاقتصادية، وإنما كانت جذورها أعمق من ذلك تاريخيا، وهذا ما عرفناه من خلال التواصل العلمي والثقافي والاجتماعي بين جزيرة جربة التونسية وبين وادي ميزاب بالجزائر، ولو أن حركة الهجرة تغيرت وتطورت بعد هذه الفترة لتشهد نوعا ثانيا ومناطق أخرى من القطر التونسي.

¹ - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، المرجع السابق، ج1، ص-ص(254-255).

² - وكالة الجاموس: هي محل إقامة الطلبة الباحثين والمزاويلين دروسهم بالأزهر من الإباضية، وإيواء الطلبة القاصدين البيت الحرام، ويعد آخر من نزل بها الشيخ أبو اسحاق إبراهيم بن الحاج محمد اطفيش. ينظر: يحي بن بكون حاج احمد: ديوان ابن بحمان (الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الشميني)، دار الهدى، عين مليلة، 2007م، ص178.

³ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص966.

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج، المرجع السابق، ص-ص(123-125).

2 - أسباب ودوافع هجرة سكان وادي ميزاب إلى تونس.

إن هناك العديد من الأسباب والدوافع التي تجعل الفرد يغادر مكان إقامته وأين ترعرع ونشأ إلى مكان جديد عليه، وهذه الأسباب تكون أكثر من طاقته بحيث لا يستطيع التغلب عليها فيلجأ إلى المغادرة والهجرة إلى مكان آخر يكون أكثر أمناً واستقراراً، وهذا ما فكر به الجزائريون بصفة عامة عندما حل الاستعمار بأرضهم. وإن دوافع الهجرة تقوم على سببين رئيسيين وهما: أن تكون الحالة التي يعيشها المواطن في موطنه الأصلي تفوق مقدرته ولا يستطيع احتمالها، والسبب الثاني أن يكون في البلد الذي ينوي الذهاب إليه ما يعوضه عما فقده في موطنه الأصلي.¹

وتنوعت الدوافع والأسباب التي كانت وراء هجرة الفرد الميزابي من منطقته نحو البلاد التونسية، فلقد كانت الأسباب السياسية والإدارية التي فرضها الاستعمار الفرنسي على المجتمع الجزائري بصفة عامة من أهم العوامل المؤثرة في هجرة السكان، بالإضافة إلى الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي دفعت بحركة الهجرة الخارجية من أجل تحسين الوضع المعيشي للمواطن.

ونجد أيضاً في الهجرة الميزابية الأسباب العلمية والثقافية بشكل مميز، حيث كان من الأسباب الرئيسية في تنقل الأفراد أو الجماعات من منطقة وادي ميزاب نحو تونس، من أجل طلب العلم والدراسة والتحصيل الثقافي والعلمي من المدارس العصرية التونسية وجامع الزيتونة المعمور، ولعل من أهم الأسباب هي كالتالي:

أ- الأسباب السياسية:

كان للسياسة الاستعمارية الممارسة من طرف الاستعمار الفرنسي في الجزائر ضد مقومات الأمة الجزائرية خاصة فيما يمس الجانب الديني واللغوي، دوراً قوياً وبارزاً في حركة الهجرة الجزائرية بصفة شاملة نحو البلاد الإسلامية المختلفة وبالأخص نحو البلاد المجاورة كتونس والمغرب الأقصى، وخاصة وأنه في تلك الفترة من دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر انتشرت الكثير من الفتاوى التي تحرض الجزائريين على الخروج من دار الكفر التي يحكمها الاستعمار واللجوء إلى دار الإسلام، وقد استدلو بالآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (سورة النساء/ الآية 99)، واعتبر جملة من العلماء أيضاً أن "دار الإسلام" هي كل بلاد مهاجر إليها يستطيع فيها تأدية شعائر دينه والمحافظة على نفسه وعقله ونسله أو ماله حتى

¹ - سليمان بن رابح: العلاقات الجزائرية العربية بين الحربين (1919-1939)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف صالح فركوس، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2007-2008، ص 11.

ولو كان البلد المهاجر إليه هو أرض كفر مثل الدول الأوروبية أو غيرها ودليلهم في ذلك هجرة المسلمين إلى الحبشة وكانت دولة تدين بدين المسيحية¹.

ونظرا للوضعية الخاصة التي عاشها الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي الذي لم يكن من أهدافه إعاقة اللغة العربية عن الازدهار والتطور وفقط، ولكن كان همه هو وأد اللغة العربية وإحلال لغته الفرنسية بديلا عنها ليستطيع الهيمنة على جميع جوانب الحياة السياسية والثقافية والاقتصادية للمجتمع الجزائري.²

كان لمنطقة وادي ميزاب بصفة خاصة وضع معين وخاص على باقي المناطق الجزائري الأخرى التي دخلها الاحتلال الفرنسي، وذلك راجع إلى طبيعة وظروف الاحتلال في حد ذاته، فالميزابيون عقدوا مع الاحتلال الفرنسي وثيقة حماية³ تحول لهم العديد من الحقوق وتجعل منطقتهم تحت الحماية الفرنسية وهذا في حد ذاته يفرض وجود سياسة مغايرة عن باقي المناطق الأخرى.

أ-1- معاهدة الحماية الفرنسية مع سكان وادي ميزاب ودورها في الحراك السياسي:

منذ وصول الاحتلال الفرنسي إلى الأغواط وتحكمهم في المنطقة قام أعيان منطقة وادي ميزاب باجتماع طارئ ضم أعضاء مجلس عمي سعيد، واتفقوا على إيفاد جماعة من أعيان القرى السبع إلى مدينة الأغواط يوم 22 أبريل 1853م، لإبرام المعاهدة.

التقى الوفد مع الكومندان دوباري وتم عقد معاهدة الحماية باسم الوالي العام للجزائر راندون، تعهدت فيها فرنسا لبني ميزاب بحفظ بلادهم واحترام معتقداتهم وصيانة عوائدهم، وأن لا تتدخل مطلقا في أمور داخلية خاصة بميزاب، وتترك المدن السبع تعين فيما بينها القسط الذي تتحمله كل مدينة من الخراج السنوي، وتنص المعاهدة أيضاً على وجوب غلق أسواق المنطقة أمام الثوار ضد فرنسا ودفعهم بالقوة.⁴

لهذا كان يسعى الميزابيون للتمتع بالإمتياز السياسي باعتبارهم منطقة حماية تخضع لبعض المعاهدات المشابهة لما أبرم من معاهدات بين باي تونس وبين السلطة الفرنسية، وتبعا لهذه الوضعية الخاصة تمكن سكان المناطق

¹ - محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق، ص-ص (33-35).

² علي بن حراث: أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م، ص 5.

³ - هي أحد أشكال الاستعمار أن تضع دولة ما أخرى تحت حمايتها وإشرافها وتسلبها من حريتها بقدر ما يتناسب مع قوة هذه الدولة وضعف تلك، وفي الأغلب يكون للدولة الحمية شبه سيادة داخلية يمارسها حكام وطنيون تديرهم الدولة المستعمرة من خلف ستار. ينظر: منقذ بن محمود السقار: الاستعمار في العصر الحديث ودوافعه الدينية، موقع المكتبة الشاملة الإلكترونية، ص 4.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (129-130).

الجنوبية وبالأخص منطقة وادي ميزاب من المحافظة نوعاً ما على تعليم أبنائهم اللغة العربية، وإنشاء بعض المدارس القرآنية بجهود المخلصين والمتطوعين من أبناء المنطقة¹.

ولكن الاستعمار الفرنسي بالمنطقة لم يكن في نيته أبداً التمسك ببند تلك المعاهد المبرمة بين الطرفين، وإنما كان يحاول أن يجعل المنطقة تحت سلطته المباشرة وعدم التقيد بأي التزامات أو شروط تجاه السكان، ونجد أنه بعد إبرام الاتفاقية بسنوات قليلة قام الكومندان مارغريت عام 1857م بالتوجه نحو ورقلة وعزم على اختراق جانب من مدينة غرداية ووقف في وجهه السكان، ولكن الكومندان أمر جيشه بتحطيم أبواب المدينة والممرور في وسطها في صورة صارخة على تسلط الاستعمار الفرنسي وعدم التزامه بأي بنود أو اتفاقيات مع السكان المحليين².

وكافح الميزابيون أيضاً في إطار هذا الاتفاق على الحصول على الامتيازات التي تخولها لهم معاهد الحماية، كعدم إجبارية التجنيد، والتي راسلوا من أجلها السلطات الفرنسية، وقاموا بالمراسلات وتعيين بعض الشخصيات الميزابية من أجل التكفل بقضية عدم تجنيد الشباب الميزابي³ في صفوف الجيش الفرنسي⁴.

ولعل من أبرز العوامل التي جعلت من معاهد الحماية سبباً في الهجرة نحو تونس والانخراط في العمل السياسي التونسي من طرف أبرز الشخصيات الميزابية هناك⁵، هو أن تونس كانت تحت الحماية الفرنسية، ويروي الشيخ أحمد توفيق المدني⁶ في هذه النقطة ما يلي: «... وكان الكلام يومئذ عن قضية بلاد ميزاب، وأكد القوم بما لا يحتاج إلى دليل آخر أن الميزاب بلاد حماية، لا بلاد استعمار، وأنهم يطالبون باحترام معاهدة الحماية التي جنحوا إليها، كما تطالب تونس باحترام معاهدة الحماية التي ارغموا عليها، فقضية بلاد ميزاب من هذه الناحية، هي

¹ - محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900-1962)، دار الحكمة، الجزائر، د.ط، ص-ص (39-40).

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 130.

³ - للاطلاع أكثر حول موقف سكان وادي ميزاب من قضية التجنيد الإجباري ينظر: عمر بن عيسى بن إبراهيم: بيان حقيقة التجنيد الإجباري، المطبعة العربية، الجزائر، ط1، 1350هـ. وأيضاً: الحاج بن باحمد ناصر: "موقف سكان وادي ميزاب من التجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي (ما بين 1912-1925)"، مجلة الحياة، ع: 11، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية.

⁴ - عمر بن عيسى بن إبراهيم: المصدر السابق، ص 10.

⁵ - تفاصيل أكثر حول النشاط السياسي للنخبة الميزابية في الحركة الوطنية التونسية وإسهاماتهم في العمل الحزبي التونسي، ينظر في الفصل الثالث.

⁶ - الشيخ أحمد توفيق المدني: ولد يوم 16 جوان 1899م، بتونس العاصمة، من أبوين جزائريين لاجئين إلى تونس بعد وقوع الجزائر تحت السيطرة الاستعمارية، وهو سليل عائلتين مشهورتين في الجزائر وتونس على حد سواء، حيث نشأ في جو أسري محافظ ومتعلم ومتقشف، وأخذ مبادئ العلوم الأولية من جده وأبيه، بعدها التحق بجامعة الزيتونة المعمور، ولقد بدأ ممارسة العمل السياسي والصحفي منذ صغره، حيث نجد أنه في سنة 1925م تم نفيه إلى الجزائر بسبب نشاطه السياسي، وفي الجزائر كانت له نشاطات عديدة في الميدان الإصلاحي والعلمي ويعد من أهم شخصيات جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ينظر: عبد القادر خليف: أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية في تونس والجزائر (1899-1983)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف الدكتور: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري قسنطينة، 2006-2007، ص-ص (48-56).

نفس قضية تونس، وإحراز تونس على حقها، يفتح الباب لإحراز ميزاب على ما ضمنته لها المعاهدة، لذلك كنت أرى هذا الوفد يغار على قضية تونس غيرته على بلاده، وكلاهما بلاد لا إله إلا الله محمد رسول الله».¹

إذاً فقد كان لمعاهدة الحماية التي أبرمها الميزابيون مع الاستعمار الفرنسي دور في نشاطهم السياسي وإسهاماتهم النضالية داخل منطقة وادي ميزاب، أو خارجه من خلال العمل السياسي الذي قام به نخبة من المثقفين الميزابيين في تونس.

أ-2- قانون التجنيد الاجباري:

هناك العديد من القوانين الجائرة والتعسفية التي مارسها الاستعمار الفرنسي ضد السكان الجزائريين من أجل إخضاعهم والتسلط عليهم ومحاولة قمعهم، ويعتبر مطلع القرن العشرين بداية لاستقلال السلطات الاستعمارية في حكمها بالجزائر، إداريا وماليا عن فرنسا، فأخذت تمارس بقسوة سياسة القهر والزجر ضد السكان المحليين، وتلاحقهم في كل مجالات الحياة، فتم حرمانهم من الاشتراك في المجالس الإقليمية ومن انتخاب نواب لهم في البرلمان الفرنسي حتى المتجنسين منهم، وفرضت اختيار نوابهم بالتعيين فقط في مجالس العمالات، وعندما أخذ بمبدأ الانتخاب عام 1908م، نص القانون على أن يتم ذلك بواسطة المجالس البلدية واشتروطوا على أن لا يزيد عددهم على ستة أو أربعة.²

ومن بين القوانين التي كان لها تأثير كبير على المجتمع الجزائري بصفة عامة وعلى الشباب الجزائري بصفة خاصة هو قانون التجنيد الاجباري، فبعد إصدار السلطات الفرنسية لمرسوم 3 فيفري 1912م، الخاص بتجنيد الأهالي الجزائريين في الجيش الفرنسي، تعالت أصوات المعارضة والاحتجاج في مختلف مناطق الوطن الجزائري،³ وبادرت السلطات الفرنسية مباشرة في إحصاء الشباب الجزائري المؤهل لأداء الخدمة العسكرية، وازدادت حدة المعارضة عند بدء عمليات الإحصاء خاصة في المدن الكبرى،⁴ وسجلت الإدارة الاستعمارية ما يقارب 125 طلب للهجرة في دوار فج مزالة (بسطيف)، في أوائل 1909م، ونفس الشيء حدث في الوسط والشرق الجزائري حيث غادر الكثير من سكان المدن الجزائرية مثال باتنة، بجاية، بركة، أم البواقي، تبسة، تيزي وزو... إلى خارج الحدود الجزائرية، وقد فرض قانون التجنيد الإجباري على الأهالي رسميا بموجب مرسوم 28 فيفري، فرد الأهالي بالهجرة كأسلوب من أساليب المقاومة، وتقدر الوثائق الفرنسية عدد الأفراد الذين غادروا مدينة تلمسان في شهر

¹ - احمد توفيق المدني: حياة كفاح مذكرات، ج1، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2010، ص219.

² - يحي بوعزيز: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص-ص(43-44).

³ - بالحاج بن باحمد ناصر: المرجع السابق، ص104.

⁴ - محمد قنانش ومحفوظ قداش: نجم الشمال الافريقي 1926-1937 (وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م، ص14.

سبتمبر ب: (60) فردا، وفي أكتوبر من نفس السنة دائما أكثر من (250) فردا، ولقد أشار القنصل الفرنسي بمصر إلى عبور أكثر من (200) جزائري لهذا البلد متوجهين إلى سوريا¹.

فكان الفرنسيين يجذبون هذه المحجرات في بادئ الأمر ظنا منهم أنها سوف تسمح لهم بالتخلص من وجود الجزائريين، وهذا ما دفع حتى بالموظفين الصغار إلى التساهل ومنح رخص الخروج إلى من يطلبها وجاء على لسان أحد الموظفين الفرنسيين قوله: «... ما علي إلا الموافقة على طلبات الهجرة وتلك في نظري سياسة موفقة للتخلص من أولئك المتعصبين...»².

فهكذا كان تأثير قانون التجنيد الإجباري على حركة الهجرة الجزائرية إلى بلاد المشرق أو إلى البلاد المجاورة كتونس أو المغرب الأقصى أو حتى الدول الأوروبية، تأثيرا مباشرا وفعالا على المجتمع الجزائري من خلال ضربه في أنشط فئة لديه وهي الفئة الشبانية.

وإن صدى هذا القانون في بادئ الأمر كان ضعيفا نوعا ما في منطقة وادي ميزاب لأن الأمر لم يكن يعينها بعد، ذلك أن القانون كان يخص الإقليم المدني فحسب، ولكنه كان يمس أبناء منطقة وادي ميزاب القاطنين في الشمال من أجل مزاوله نشاطاتهم الاقتصادية المختلفة، وهو ما حرك المعارضة الميزابية تجاه هذا القانون³.

وفي هذا السياق يرى الشيخ أبو اليقظان⁴ أن أحداث الحرب العالمية الأولى هزت المجتمع الجزائري والمجتمع الميزابي وأيقظته من سباته العميق وحركت فيه إرادة الإصلاح وعزمته، كما يقول الشيخ عبد الرحمن بكلي⁵ أن ما هز وادي ميزاب وأيقظه إضافة إلى الحرب العالمية الأولى مسألة التجنيد الإجباري التي زلزلت أركانه ودفعته إلى توحيد جهوده ولملمة صفوفه حيث يقول: «تنبه شعور ميزاب كغيره من الأقطار على زعقات الحرب العالمية الأولى، فأخذت تستيقظ شيئا فشيئا على توالي الأيام وتتابع السنين تبعا لتطور الحياة، وإن كانت يقظة في فتور،

¹ - نادية طرشون وآخرون: المرجع السابق، ص 152.

² - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج 1، المرجع السابق، ص-ص (243-244).

³ - الحاج بن باحمد ناصر: المرجع السابق، ص 104.

⁴ - ينظر حول سيرة الشيخ أبو اليقظان في الفصل الثالث.

⁵ - عبد الرحمن بن عمر بن عيسى بكلي الشهير بـ "البكري" (ولد: 3 أكتوبر 1909/توفي: 13 جانفي 1986م)، عالم جليل وشخصية مرموقة بوادي ميزاب ولد بالعطف، تعلم مبادئ القرآن الكريم والتوحيد بالمسجد العتيق بمسقط رأسه، وحفظ القرآن الكريم في مقتبل العمر، درس علوم اللغة والشريعة بمعهد عمه الشيخ الحاج عمر بن هو بكلي، ثم سافر إلى الجزائر للاستزادة من اللغة الفرنسية، انتقل إلى تونس في أواخر سنة 1922م، حيث انضم إلى البعثة الميزابية هناك، ودرس بجامع الزيتونة على مشاهير العلماء في تلك الفترة، ودرس في المدرسة الخلدونية العلوم العصرية، وكان له علاقات وطيدة مع الحزب الحر الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي، وكان من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء وعين عضوا في لجنة صياغة قانونها الاساسي، كما زاول التجارة وكان مدعما للحركة العلمية والثقافية، وعضوا ناشطا في كل النشاطات التي تقام من طرف جمعية العلماء بالعاصمة، شارك في تأسيس جمعيات اصلاحية بمنطقة وادي ميزاب، وعند اندلاع الثورة الجزائرية كان عضو فعال في العمل السياسي بالمنطقة، وألقي عليه القبض في سنة 1957م، ولقد عين بعد الاستقلال عضوا في المجلس الإسلامي الأعلى، ولقد ترك الشيخ عبد الرحمن بكلي زاد فكري وعلمي كبير تشهد على رجاحة عقله وقوة ذاكرته، ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص-ص (521-528).

وشعور في تشنّج، حتى قرعتها قارعة التجنيد الإجباري من جديد سنة 1919م، فزلزلت كل ركن فشت في أعصابها حيوية جديدة وحفزتها إلى تكتيل قواها، وتوحيد اتجاهاتها¹.

فوجد أنه في يوم 23 فيفري 1912م، بعث أعيان جماعات بني ميزاب شكايات إلى كل من كومندان غرداية، والوالي العام، ورئيس الحكومة، ورئيس مجلس الوزراء، تبعها تقرير إلى رئيس الحكومة في يوم 8 جوان 1912م، يشرح أسباب رفض التجنيد، التي تتلخص أولا في تعارضه مع الدين الإسلامي، ونتائجه الاقتصادية السيئة على بني ميزاب ومخالفته لبنود معاهدة 1853م².

ولم يتوقف الأمر في تجنيد الشباب الميزابي في الشمال، فلقد أصدرت السلطات الفرنسية في شهر ديسمبر من سنة 1918م، أمرا يقضي بتجنيد (238) شابا من منطقة غرداية لدفعة سنة 1919م، وتركت أمر إحصائهم للقياد الذين حددوا بدورهم يوما لإجراء القرعة، ولكن ردة الفعل كانت عدم الخضوع والذهاب إلى الثكنات العسكرية، وهو ما اعتبرته السلطات الفرنسية عصيانا وفرارا من التجنيد، ويعطيها الصلاحية في تسليط عقوبات ضد هؤلاء الشباب الذي فروا إلى مناطق مختلفة هروبا من التجنيد³.

فتوالى الاحتجاجات ضد قانون التجنيد الإجباري، إلى أن قدم وزير الحرب إلى الوالي العام، يوم 12 ماي 1920م، تقريرا يصرح فيه أن الميزابيين رعايا فرنسيين، مثل غيرهم من الجزائريين، وأنهم ملزمون بالتجنيد، ليصدر بعدها مرسوما يبين شروط تطبيق التجنيد الإجباري للأهالي في أراضي الجنوب.

وتوالى الاجتماعات من طرف أعيان منطقة وادي ميزاب من أجل وضع خطة محكمة وناجحة لمعارضة هذا القانون الذي رأوا فيه خرقا واضحا لتعاليم الإسلام، ويضع الميزابي الإباضي في خدمة الكفار، معرضا حياته في سبيلهم، علما أن الجهاد لا يصح إلا لنصر الإسلام⁴.

ونتيجة لهذا القانون الظالم الجائر الذي شهدته الشباب الجزائري بصفة عامة، كان الحل الأول هو الفرار والهجرة، سواء إلى مناطق التل الجزائري، ولقد كانت تونس أيضاً أول الدول التي توجهت إليها أعداد هائلة من المهاجرين، وذلك نظرا لما يمثله قرب تونس من أهمية خاصة بالنسبة للقادمين إليها من مناطق الشرق الجزائري الذين يضعون في حساباتهم قرب المسافة أو بعدها، باعتبار أن وسيلتهم في التنقل لم تكن سهلة ومريحة فغالبا ما كان التنقل عبر الجمال أو السير على الأقدام⁵.

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(201-202).

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص217.

³ - بالحاج بن باحمد ناصر: المرجع السابق، ص106.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص219.

⁵ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج1، المرجع السابق، ص276.

فكان الشباب الميزابي مثل بقية الجزائريين يحاول الفرار والهروب من الخدمة العسكرية الإجبارية التي فرضها عليه الاستعمار الفرنسي، فكان المجتمع يحد ذاته يرفض أن يتجند شبابه في خدمة الاستعمار بأي شكل من الأشكال لما يرون فيه من ضرب للقيم الدينية الإسلامية، ومساس بالمقومات الشخصية للفرد الميزابي الذي يتميز بتعلقه الشديد بالمذهب الإباضي ومجتمعه ومقوماته.

ومع كل هذا بقي سعي الأمة الميزابية مستمرا ومتواصلا من أجل تحقيق هدفهم المنشود وهو إعفائهم من خدمة التجنيد الإجباري، ولقد أرسلوا في سنة 1930م، رسالة مدعمة بالحجج القاطعة التي أظهرت فيها حقيقة وطنهم من الجهات الثلاث: السياسية والاقتصادية والدينية، ولقد قدمت هذه الرسالة باللسان الفرنسي إلى رئيس الجمهورية، وإلى رئيسي مجلس الشيوخ ومجلس الأمة بمناسبة الاحتفال المئوي الذي أقامته بفرنسا في ذكرى احتلالها للجزائر¹.

تحصل الميزابيون نتيجة كل هاته الجهود على الإعفاء من التجنيد الإجباري في سنة 1947م، وبذلك تحقق لهم هدفهم الذي سعوا إلى تحقيقه منذ أن تم إقرار هذا القانون في سنة 1912م².

أ-3- النشاط السياسي للميزابيين بين الجزائر وتونس:

لم تكن منطقة وادي ميزاب بعيدة عن التفاعلات السياسية والأحداث التي تقع في العالم، إنما كانوا قريبين من الأحداث ومشاركين فيها سواء بالدعم المادي أو الدعم اللوجستي لبعض قادة حركات التحرر في مختلف البلاد العربية وخاصة البلدان الشقيقة كتونس وليبيا.

دور الميزابيين في النشاط السياسي التونسي:

لم يكن النشاط السياسي بالنسبة للميزابيين بأمر مستحدث، ولقد اشتد خاصة بعد إلحاق ميزاب بمستعمرات الإدارة الفرنسية، ولقد كان القطب الشيخ اطفيش عليه رحمة الله من أوائل المناهضين للسلطة الاستعمارية، ويعد الشيخ اطفيش أول المسجلين من طرف الاستخبارات الفرنسية في الدفتر "B"³، على مستوى منطقة الجنوب من أجل تشديد الرقابة عليه.

¹ - عمر بن عيسى بن إبراهيم: المصدر السابق، ص-ص (4-5).

² - بالحاج بن باحمد ناصر: المرجع السابق، ص121.

³ - الدفتر "B" يحتوي على المعلومات المتعلقة بأشخاص ثبت الاشتباه بأمرهم، من ناحية "الدفاع الوطني"، والذي يتوجب اتخاذ تدابير صارمة اتجاههم، في حالة نشوب حرب، أو حدوث عصيان مسلح. هذا الدفتر يتكون أساسا من أجزاء قابلة للانتقال، لتتبع المشبوهين في جميع تنقلاتهم، بالإضافة إلى وثائق معلومات في خمس نسخ، وقد تم إلغاء هذا الدفتر، واستبداله في جوان سنة 1942م، بالقائمة "S". ينظر: صالح بن ادريسو: الشيخ ابراهيم بيوض في قلب الثورة، ط1، e box editions، 2015م، ص 11.

وكان من أبرز النشاطات السياسية التي قام بها الميزابيون في تونس وكان لها الأثر الكبير على حركة الهجرة أيضاً خاصة للطبقة المثقفة ولطلبة البعثات العلمية، هو النشاط السياسي الذي تقلده صفوة من الميزابيين في الحزب الحر الدستوري التونسي¹ بقيادة الزعيم عبد العزيز الثعالبي²، وقد كان الشيخ صالح بن يحيى³ أحد أقطاب الحزب البارزين، وأحد مساعدي الثعالبي المخلصين⁴، ولقد اندفع أكثر من أبناء وادي ميزاب إلى وضع إمكانياتهم المادية والمعنوية لدعم هذا الحزب، وربما يعود هذا الاندفاع إلى الوضع السياسي المتميز الذي كان يفرد سكان وادي ميزاب بقوانين وإجراءات إدارية تختلف كل الاختلاف عن القوانين المطبقة في كامل الجزائر، وذلك راجع لكونهم كانوا دائما يؤكدون أن موطنهم تحت الحماية وليس تحت الاستعمار، وأنهم يطالبون باحترام معاهدة الحماية التي جنحوا لها كما تطالب تونس باحترام معاهدة الحماية التي أرغمت على إبرامها⁵، بالإضافة إلى أنهم طمحوا إلى اكتساب الخبرة في الميدان النضالي السياسي، تمكنهم فيما بعد من انشاء أحزاب ممثلة كما أن زعامة الثعالبي للحزب وهو من الأصول الجزائرية له أكثر من دلالة تحتم عليهم وضع كل إمكانياتهم المادية والمعنوية لخدمة الحزب⁶.

¹ - ظهرت التشكيلة المبدئية للحزب في ربيع 1919م، والتي كانت تضم عبد العزيز الثعالبي واحمد الصافي وحسن قلائي والعديد من الوجوه النخبوية التونسية، ولقد أرسلو في شهر مارس 1919م، مذكرة إلى الرئيس الأمريكي ويلسون في مؤتمر الصلح بباريس يطالبون فيها بإعادة النظر في الحريات المفقودة، واستطاع وفد الحزب بفرنسا أن يسكب تعاطف الفرنسيين من خلال نشاطهم هناك، ولكن آمال الثعالبي تبخرت بباريس عندما رأى عدم جدوى من تحقيق مطالبه، فحاول تنظيم حزبه من جديد وتوسيع القاعدة الشعبية له، واستبدل اسم الحزب إلى الحزب الحر الدستوري التونسي وأصبح رسمياً بهذا الاسم يوم 14 مارس 1920م، ولكن لم تمض مدة طويلة وبدأت تظهر خلافات بين أعضائه، وانحل من تلقاء نفسه سنة 1928م، بعد أن قدم للحركة الوطنية التونسية العديد من الأعمال. ينظر: قدارة شايب: **الحزب الدستوري التونسي الجديد وحزب الشعب الجزائري 1934-1954م دراسة مقارنة**، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتورا الدولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: عبد الرحيم سكفالي، جامعة منتوري- قسنطينة، 2007/2006م، ص-ص(98-101).

² - جزائري الأصل، ولد بتونس العاصمة في سنة 1874م، خريج جامع الزيتونة، شارك في تأسيس وتحرير العديد من الصحف ذات الاتجاه الديني والسياسي منها سبيل الرشاد، الاتحاد الاسلامي، وبعد حجب صحفه غادر تونس وزار بعد الدول المشرقية والمغربية ليعود سنة 1904م، حيث أخذ يجهر بأرائه التحررية، كانت له مشاركات في الحركة الطلابية سنة 1910م، وبعد جولة مشرقية انتهى به المطاف إلى فرنسا سنة 1919م، حيث مثل تونس في مؤتمر الصلح، بعدها ترأس الحزب الحر الدستوري، ليتم نفيه إلى المشرق العربي سنة 1923م، ولم تتسنى له العودة إلا سنة 1937م. ينظر: خير الدين شترة: **الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة**، ج3، ص24.

³ - صالح بن يحيى بن سليمان بن عيسى (توفي: 1948م): من أبرز رجال منطقة وادي ميزاب كان يتقد حيوية وثورية ووطنية، أخذ العلم عن الشيخ الحاج محمد عيسى أزيار وعن الشيخ القطب احمد بن يوسف اطفيش، توجه سنة 1917م، نحو تونس ضمن البعثة العلمية الثانية، أخذ بعض العلوم من جامع الزيتونة، ولقد كان يعتبر العضد الأيمن للشيخ عبد العزيز الثعالبي في جهاده ضد الاستعمار الفرنسي، ومن المؤسسين للحزب الدستوري التونسي، ولقد دعم الحزب بكل ما يستطيع من مال وغيرها من المواقف، ولقد ألقى عليه القبض في يوم 28 أكتوبر 1920م، بتهمة التآمر ضد الدولة التونسية، فطرد من تونس، وأودع السجن مدة سنة وثلاثين يوماً، وبالإضافة إلى نشاطه الحزبي بتونس كان مهتما بالحرب الطرابلسية، ضد الاستعمار الايطالي. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص-ص(487-488).

⁴ - يوسف منصارية: **الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934**، ط1، دار الغرب الاسلامي، د.ت، ص 56.

⁵ - أحمد توفيق المدني: **حياة كفاح**، ج1، المصدر السابق، ص219.

⁶ - خير الدين شترة: **الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة**، ج1، المرجع السابق، ص355.

ثم تطورت هذه الحركة بفضل البعثات العلمية من الطلبة الميزابيين إلى تونس، وما إن ظهر نجم الشمال حتى بزغ نجمهم، ولعل من أبرزهم في هذه الفترة نجد بوجناح سليمان الملقب بالفرقد، مفدي زكرياء، وغرافة إبراهيم، ولعساكر محمد الملقب بالبرق، وبحلول الثلاثينات توسعت هذه الحركة في أوساط الشباب الميزابي، وغرست فيهم الحس الوطني، وحينها بدأت التقارير الرسمية تهتم أكثر فأكثر بتحركات الشيخ إبراهيم بيوض ونشاطه السياسي، فكلفه هذا النشاط بتسجيل اسمه في الدفتر "B"، ثم وضع تحت الإقامة الجبرية، وعدم التنقل من منطقته إلا برخصة من طرف الإدارة الاستعمارية¹.

هكذا كان النشاط السياسي للميزابيين دافعا ومحفزا للهجرة والتنقل نحو المناطق التي تشهد حراكا نضاليا وعملا سياسيا، وكل ذلك كان من أجل خدمة المنطقة والسعي لتحقيق المكاسب الإدارية والسياسية والاقتصادية التي تخدم سكان المنطقة على وجه الخصوص.

ب- الأسباب الاقتصادية والاجتماعية:

ب-1- الأسباب الاقتصادية:

لا تقل الأسباب الاقتصادية أهمية عن الأسباب السياسية في جعل الفرد الجزائري بصفة عامة يفر من بلاد إلى مناطق مجاورة، من أجل البحث عن مصادر العيش، حيث نجد أن الاستعمار الفرنسي قام بعدة أعمال، وسن عدة قوانين مجحفة في حق الجزائريين مما دفع بهم، ولعل من أهمها:

الضرائب: فرض الاستعمار الفرنسي ضرائب أثقلت كاهل الجزائريين، وجعلتهم يشكون ويسخطون من هذا الوضع حيث نجد أنه بالإضافة إلى الضرائب التي كانوا يدفعونها كان عليهم أيضاً دفع الضرائب الدينية مثل الزكاة والعشور²، حيث نجد أن المسلمين الذين يزرعون أرضا يجب دفع العشور عنها، وأما الأوروبيون فهم معفون من هذا الأمر، كما نجد أيضاً أعمال السخرة التي كانت مفروضة عن المسلمين مثل التسخير في النقل وفي حراسة الغابات ومكافحة الجراد، ولتعسف الاستعمار في هذا الجانب فقد كانت الضريبة عن السكن تطل الأكواخ، ولقد كان عليهم أن يدفعوا أيضاً ضريبة الأقارب الذين لم يقوموا بدفع ضريبتهم³.

¹ - صالح بن ادريسو: المرجع السابق، ص 13.

² - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية، المرجع السابق، ص 120.

³ - محفوظ قداش: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، تر: أحمد بن البار، ج 1، ط 1، دار الأمة، الجزائر، 2008م، ص-ص (37-38).

كما نجد أن الضرائب كانت تمثل نسبة (71%) من إجمالي مداخيل الميزانية العامة للإدارة الفرنسية، وهو ما أزهق كاهل الجزائريين وجعلهم بين خيارين إما المقاومة وإما الهجرة¹.

مصادرة الأراضي: كان الهدف الأساسي للاستعمار الفرنسي هو استغلال الأرض وتعميرها بالأوروبيين²، وكانت سياسة فرنسا إسكان ما أمكن من المستوطنين الأوروبيين الذين جلبتهم من مختلف الجنسيات الأوروبية والفرنسية، في الأراضي الجيدة وإبعاد الجزائريين من تلك الأراضي وهذا ما جعل الجزائري يجد شعور الإنسان المنبوذ الدليل في وطنه، وأنه يعيش حياة كريهة، وهو ما دفعه للهجرة والاغتراب من أجل حياة أفضل³.

وسعت الإدارة الفرنسية إلى تحطيم قطاع الصناعة في الجزائر من خلال رفضها للتصنيع بها، وإبقائها تابعة للاقتصاد الفرنسي، وعدم تقبل رجال أعمال فرنسيين للاستثمار في الجزائر، رغم هذا نجد الصناعات التحويلية والاستخراجية التي كان يسيطر عليها الأوروبيون فنجد مثلاً استخراج الفوسفات والحديد أما عن الصناعة التحويلية فنجد صناعة المواد الغذائية⁴، فانعكس هذا الاحتكار على القطاعين الفلاحي والصناعي على التجارة التي كانت في الأصل تتعلق بالإنتاج الزراعي أو الصناعي، وهو ما جعلها محتكرة من طرف المعمارين والشركات الأوروبية⁵، وهذا كله كان له تأثير كبير على المستوى المعيشي للسكان المحليين، أما بالنسبة لسكان منطقة وادي ميزاب فلقد كان العامل الاقتصادي من الأسباب الهامة التي جعلتهم ينتقلون ويرحلون بحثاً عن العمل، وممارسة التجارة بصفة خاصة.

اعتمد بنو ميزاب على الفلاحة وواصلوا منذ استقرارهم في الوادي تذليل كل الصعاب وتسخير امكانياتهم المحدودة جداً لتوسيع البقع الخضراء، التي أصبحت بذلك واحات فقد كانوا ينهجون نظام التقشف في حياتهم اليومية ويطبّقون مبدأ الاكتفاء الذاتي⁶.

ولكن مع دخول الاستعمار الفرنسي إلى المنطقة، ومع سياسته الظالمة الجائرة، بدأت الأوضاع الاقتصادية البسيطة والمحدودة لدى سكان منطقة وادي ميزاب تشهد الركود، ومع هاته الوضعية المزرية بدأ سكان وادي ميزاب في التفكير جدياً بإيجاد بدائل اقتصادية خارج وطنهم الصغير، لأجل كسر هذا الخناق المالي والحصار

¹ - صالح عسول: **اللاجئون الجزائريون بتونس ودورهم في الثورة 1956-1962**، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: يوسف منصورية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2008-2009م، ص12.

² - عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص35.

³ - تركي رابح: **"الجمالية الجزائرية في اوروبا وخاصة فرنسا ومشاكلها والأخطار المحدقة بإسلامها وعروبته"**، مجلة الثقافة، العدد93، الجزائر، ماي-جوان 1986م، ص-ص(40-41).

⁴ - محمد بك: **محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع**، مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الاوراس الحديث، إشراف: بوبكر حفظ الله، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008/2009م، ص35.

⁵ - صالح عسول: المرجع السابق، ص-ص(25-26).

⁶ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص41.

الاقتصادي المضروب على أعناقهم، فقرروا السفر والهجرة بحثا عن مصادر جديدة للرزق، ثم العودة بعد ذلك بالأموال المجموعة للنفقة على عيالهم وأهاليهم وعمارة قرى وادي ميزاب¹.

ويبدو أن هذه الهجرة لم تكن بالحديثة وإنما كان لها جذور تاريخية كما وضعنا في المبحث الفارط، حيث يذكر المؤرخون أنه كان يوجد بمدينة الجزائر ميزابيون في بداية القرن 14م، بعد أن قرروا الهجرة والاغتراب إليها وإلى غيرها من مدن الشمال بعد ضعف مردود الفلاحة في منطقتهم².

حتى أنه في سنة 1932م، كون التجار الميزابيون في الشرق الجزائري نقابة دفاعية بعمالة قسنطينة، ثم أضافوا مؤسسة أخرى تحت اسم شركة شرق الجزائر للمنسوجات وذلك بعد أن اشتدت وطأة اليهود في هذا المجال، وبهاتين المؤسستين استطاع التجار الميزابيون أن يستوردوا الأقمشة والمنسوجات، وكان الميزابيون العازمون على الخروج من ميزاب للتجارة وغيرها، مجبرين على طلب رخصة من ملحقة غرداية، وقد بلغ المعدل السنوي لعدد الرخص الممنوحة للسفر إلى التل، في الفترة الواقعة بين 1947/1937م ألفين وخمسمئة رخصة (2500)³، ولقد كان الكثير من هؤلاء الذين ينتقلون إلى بلاد الشمال، ينتقلون منها إلى تونس عبر السكة الحديدية أو عند طريق المنافذ الحدودية التي تكون قريبة خاصة بالنسبة لمناطق الشرق الجزائري⁴.

فكان للقرب الجغرافي للجنوب الشرقي الجزائري ومحاذاته للحدود التونسية من خلال منطقة الجريد والحدود الليبية عن طريق غدامس، وسهولة التنقل وضعف المراقبة الحدودية نتيجة الطابع الصحراوي الصعب وعدم اكتراث السلطات التونسية لهذه الهجرات، وكان للظروف المناخية الصعبة في الجنوب بصفة عامة التي تتميز بالجفاف وانتشار عدوى الأمراض زادت من بؤس السكان، وكان لا بد البحث عن مجال آخر من أجل تأمين لقمة العيش، فهاجروا إلى تونس، التي لم تكن بدافع الفرار من دار الكفر إلى دار الإسلام وإنما للبحث عن شغل في بيئة جديدة، خاصة وأن الشروط الجبائية في تونس كانت مقبولة بالنسبة للوافدين الجدد من المهاجرين الميزابيين⁵.

وأما عن أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية في تونس فهي بلا شك أحسن بكثير من الجزائر، وكان تركز أغلب الجزائريين في الشريط الساحلي الشمالي والمناطق المحاذية للحدود الجزائرية التونسية، وبالنسبة لأعداد هؤلاء

¹ - قاسم بن احمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 424.

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 53.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 214.

⁴ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص 528.

⁵ - رضوان شافو: جوانب من السياسة الاستعمارية بالصحراء الجزائرية من خلال تقارير السلطة الفرنسية والوثائق الأرشيفية، ط1، دار قانة، باتنة، 2014، ص-ص (29-30).

المهاجرين فليست دقيقة، وليست إحصائيات دورية أو مستمرة، فنجد مثلاً أنه في سنة 1936م يذكر أن عدد المهاجرين بلغ (41 ألف) نسمة، وكان لبني ميزاب جالية مهمة من هؤلاء المهاجرين¹.

حيث كان أكثر المغتربين إلى تونس من غرداية والقرارة وبني يزقن، وكان يكثر عدد بتونس العاصمة وفي جزيرة جربة، أما في غيرهما فنجد مثلاً في سنة 1867م، كان هناك تسع عائلات ميزابية في مدينة سوسة التونسية²، ولقد كان أتباع المذهب الإباضي يفضلون البقاء في جزيرة جربة في أغلب الأحيان بحكم القرب المذهبي واللغوي والعلاقات التاريخية بين المنطقتين³.

ثم نجد أنه في سنة 1938م، سجل عشرون تاجراً ميزابياً بالتراب التونسي، وخمسة وثمانون مستخدماً في الحمامات التونسية، ثمانون منهم من منطقة القرارة⁴، ولقد كانت مهنة الحمامات من أهم المهن التي مارسها الميزابيون في تونس، حتى نجد أنه فترة الباي علي باشا 1742/1743م، كان هناك معلم حماجي اسمه بكير مكلف بالإشراف على حمامات الباي، ويعد اسم بكير من الأسماء الشائعة عند بني ميزاب، وكان مهاجروا منطقة القرارة من أكثر الميزابيين المتواجدين بتونس العاصمة ومن أكثر المتهنئين بمهنة الإشراف على الحمامات⁵.

ولأن من أهم المحركات الميزابية إلى تونس هي المحركات العلمية، فلم تكن الأوضاع الاقتصادية عائقاً أمام الطلبة المتجهين نحو تونس، حتى أنه بالرغم من السياسة الاستعمارية التي جعلت أوضاع الجزائريين المادية جد مزرية كما ذكرنا، إلا أنهم كانوا يحتفظون بمبالغ تغطي جزءاً من تكاليف السفر في سبيل طلب العلم على حساب صرفها للتخفيف من حدة الجوع أو غيره من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية⁶.

هكذا كانت الظروف الاقتصادية السيئة سبباً مباشراً في خروج الفرد الميزابي من منطقته، والتوجه نحو المناطق الشمالية الجزائرية أو إلى تونس من أجل البحث عن عمل يحفظ له كرامته وكرامة أسرته في منطقته، والكفاح من أجل الرقي من الحالة الاجتماعية لوادي ميزاب بشكل عام.

¹ - خير الدين شترة: إسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية، المرجع السابق، ص 92.

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 54.

³ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريين بجامع الزيتونة، ج 1، ص 273.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 241.

⁵ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص 528.

⁶ - علي بن حراث: المرجع السابق، ص 9.

ب-2- الأسباب الاجتماعية:

كان للأوضاع الاقتصادية تأثير مباشر وفعال على الحياة الاجتماعية للفرد الميزابي وعلى المجتمع بصفة عامة، على الرغم من أن المجتمع الميزابي يتميز عن غيره من المجتمعات الجزائرية الأخرى بالرابطه الوثيقة بين أفرادها، وتربطهم هيئات دينية واجتماعية مختلفة من أجل النظام الحسن للمجتمع.

ولم يعتن الميزابيون لما حلوا بميزاب ببناء مدنهم وعمارتها وحدها، بل اعتنوا كل الاعتناء بمجتمعهم أكثر، فحرصوا على أن يكون طاهرا كما يأمر الدين، تسوده الأخلاق الإسلامية، وتحيم عليه الأخوة والصفاء، والتآزر والتكافل والتعاون الاجتماعي بين كل أفرادهم¹.

وتعد منطقة وادي ميزاب قلعة من قلاع التاريخ الإسلامي، ومظهرها من مظاهر الحياة الإسلامية المحافظة على القيم الدينية والأخلاق النبيلة، حيث يعتبر المذهب الإباضي الذي يتبعه سكان المنطقة له رؤية خاصة في بعض القضايا الاجتماعية²، بالإضافة إلى الدور البارز لنظام العزابة الذي يسير أمور المجتمع من مختلف الجوانب الدينية والاجتماعية إلى حد اليوم³.

وقد قام النظام الاجتماعي الهرمي الذي سنه علماء الإباضية بالجزائر بدور محوري في حفظ المجتمع ورعاية كل شرائحه، وتحديد حقوق وواجبات كل فرد من أفرادهم⁴.

وتتجهيكل الهيئات الدينية والاجتماعية لبني ميزاب على النحو التالي تصاعديا:

1. مجلس العائلة.
2. مجلس إدارة العشيرة.
3. مجلس العزابة.
4. مجلس العزائيات "تيمسيريدين"، خاص بالنساء.
5. مجلس الأعيان، خاص بالمواضيع المدنية والسياسية.
6. مجلس عمي سعيد، يجمع الهيئات الدينية للقصور السبعة.
7. مجلس با عبد الرحمن الكرثي، يجمع الهيئات المدنية والسياسية للقصور السبعة⁵.

¹ - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ص 193.

² - بكير بن سعيد اعوش: المرجع السابق، ص 30.

³ - صالح بن عبد الله ابوبكر: "إصلاح ذات البين وتجربة المجتمع الميزابي الإباضي في الجزائر"، مجلة الحياة، ع: 17، أوت 2013م، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، الجزائر، ص 200.

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 66.

⁵ - صالح بن عبد الله ابوبكر: المرجع السابق، ص 201.

وربما أكثر ما يهمننا هنا من هذه الهيئات كلها مجلس العائلة وأيضاً مجلس إدارة العشيرة لما لهما من تأثير مباشر في حياة الفرد الميزابي، لأنهما جعلاً من الإنسان الميزابي يحس بنوع من الراحة والأمان على أسرته وأفراد عائلته والخروج من المنطقة للبحث عن عمل يؤمن به الحياة الكريمة له ولأهله هناك.

فتقاسم الرجل والمرأة الأدوار في وادي ميزاب في بناء الأسرة وتشكيل خلية المجتمع الأولى، فنجد أن الرجل كان منهمكاً في طرق أبواب الزرق الشحيحة في ذلك المحيط الصحراوي القحط، عن طريق الفلاحة أو الرعي أو امتحان بعض الحرف، ومنهم من كان يفضل الاغتراب عن الوادي إلى مدن الشمال للاشتغال في التجارة، وفي ظل غياب الرجل كانت المرأة تتولى رعاية البيت والقيام بمهمتها الفطرية من تربية النشء والسهر على تنشئتهم على القيم والأخلاق ومبادئ الدين، إلى جانب ما كانت تنتجه بيديها من مختلف المصنوعات والمنسوجات¹.

وإن المرأة الميزابية بفضل العوامل التربوية الحسنة، متمسكة بدينها كل التمسك، تخاف الله وتراقبه في أعمالها ولا ترضى أن يخالف الدين أمامها، ولدينها وورعها تطيع زوجها وتحافظ على ماله، وتقتصد فيه، وتعتقد أن إثراء الرجل يكون بحسن تدبير المرأة، ولقوة شخصيتها تشترط على زوجها في عقد الزواج ثلاثة شروط: أن لا يتزوج عليها، وأن لا يرتكب إحدى الكبار الأربع: الزنا، الخمر، الميسر، قتل النفس المحرمة، وأن لا يغيب عنها أكثر من عامين، وإذا فعل واحدة مما ذكر صار أمر طلاقها بيدها، تطلق نفسها إذا شاءت².

فهكذا كانت تشترط المرأة الميزابية على زوجها عدم الغياب الطويل عنها، ويفهم من خلال هذا الشرط الذي تفرضه النساء الميزابيات في الزواج، أن ظاهرة الهجرة والغربة كانت منتشرة وبكثرة في أوساط الشباب الميزابي من أجل العمل أو من أجل طلب العلم كما سوف نرى في الفصل القادم.

ومن خصوصيات الهجرة الميزابية أنها هجرة رجالية في عمومها وربما ساهم كل من العرف الميزابي والمذهب الإباضي في ذلك³، فالميزابيون يمنعون سفر المرأة خارج ميزاب لحكمة أخلاقية، ولضمان عودة المهاجر وجعله

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 65.

² - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج 1، المرجع السابق، ص-ص (229-231).

³ - في 28 مارس 1928م، أصدر مجلس وادي ميزاب قراراً نصه: " هذا وقد اجتمعت أعضاء القرى السبع لواء ميزاب: غرداية ومليك و يسجن وبونورة والعطف وبريان والقرارة، اجتمعوا في عمي عبد الرحمن الكرتي رحمه الله، واتفقنا، بعد أن قرأنا الفاتحة، على أننا لا نرضى على ميزابي أن يخرج زوجته أو بنته أو حرمه ميزابية مطلقاً، أي يخرجها من ميزاب إلى خارج بلدة من سائر البلدان مطلقاً، غير إحدى القرى السبع المذكورة، فجعلنا ذلك حداً محدوداً، وحائطاً مشيداً مرصوباً، وسداً وثيقاً، فمن تعداها فقد تعدى حدود الله، ولزمته دعوة السوء من المذهب، وعليه اللعنة والخزي في الحياة الدنيا وفي الآخرة. ينظر: يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (213-214).

مرتبطاً بمنطقته معنويًا وماديًا، مما يسمح باستمرار تطور هذه المدن الميزابية والتي لها رمزية دينية خاصة بالنسبة لهم¹.

ولعل رحلة القطب اطفيش إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج وأخذ زوجته معه في هذه الرحلة من أهم الرحلات التي لاقت المعارضة الشديدة من طرف السكان، ووقفوا للشيخ اطفيش بالمرصاد، وأراد الشيخ من خلال هذه الرحلة وهذا الفعل أن يكسر هذا الاعتقاد السائد لدى سكان المنطقة في عدم أحقية المرأة في السفر لأداء فريضة من فرائض الإسلام.

وهذه الظاهرة استنكرها قبل القطب أيضاً الشيخ إبراهيم بن بجمان الذي كان معاصراً للشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، وأرجعها الشيخ إبراهيم بن بجمان إلى تشبث الناس بعرض الحياة الدنيا ونقص الوازع الديني عندهم، ولكن الشيخ اطفيش تحدى كل الصعاب والظروف التي وقفت في وجهه في مسألة سفر زوجته خارج ميزاب، وقام بحيلة جعلته يخرج من يزقن بسلامة هو وزوجته بمساعدة رفقاءه وطلبته².

وأيضاً من الأسباب الاجتماعية التي ساعدت على هجرة الميزابي، بعض القرارات الدينية والاجتماعية التي كانت تصدرها الهيئات المسيرة لحياة المجتمع المختلفة، ففي سنة 1697م، اتفقت سبعة قصور في مجلس عمي سعيد على «أن الحر إذا سرق وشهد عليه اثنان ينفى من البلد سنتين، وذلك في الجزائر أو في تونس لرؤية البحر، فإذا تم نفيه يرجع للبلد بشرط، وهو أن يأتي بشهود على أنه جاوز المدة وأنه رأى البحر، ويتوب في الجامع على أنه لا يعود لفعله، وإن عاد فينفي ولا رجوع له أبداً»³.

ونجد أيضاً انتقال بعض الأسر من جهة إلى أخرى سبباً في حركة الهجرة، ومنبعاً للتفاعلات الاجتماعية والأسرية كما حدث مع أسرة آل ورو من مليكة والتي تنقلت إلى جزيرة جربة.

وكان لهذه التنقلات الدور الكبير في التفاعل الثقافي ونقل العادات والتقاليد ومظاهر الحياة اليومية بين المنطقتين، كمظاهر الزينة والملابس التقليدية في الأفراح، جلبت من جزيرة جربة إلى ميزاب وأصبحت معروفة، وعلى سبيل المثال طراز من الألبسة الصوفية يقال له باللهجة المحلية الميزابية " تجرييت " أي الجريبة تلبس في مناسبات معينة والحائك الأزرق المعروف باسم " أززاونتونس " وغيرها الكثير من هذه الأدوات التقليدية التي جاءت عن طريق التفاعل بين المنطقتين⁴.

¹ - مختار هوارى: *وضعية الجالية الميزابية بتونس خلال فترة الحماية الفرنسية عليها*، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م، ص 7.

² - يحيى بن بجمان الحاج محمد: *رحلة القطب*، المرجع السابق، ص-ص (47-49).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: *المرجع السابق*، ص-ص (61-62).

⁴ - إبراهيم محمد طلاي: *المرجع السابق*، ص-ص (6-7).

وبهذا التكافل الاجتماعي والتعاون والتآزر، وبفضل هذه الهياكل العرفية استطاع أهالي وادي ميزاب أن يبنوا وطنهم الصغير، ويصبروا على قساوة العيش فيه، ويصمدوا أمام شح الموارد، ويكتسبوا أعرافا اقتصادية واجتماعية حازمة ومتينة مكنتهم من البقاء والتصدي لكل التيارات الجارفة ومكنتهم من تعمير واديهم لبنة لبنة¹.

وكانت هذه الظروف الاجتماعية سببا في رحيل الفرد الميزابي عن وطنه بكل طمأنينة، وسببا أيضاً في عودته بعد ذلك الرحيل لكي يطمئن عن أسرته وعياله بعد الغياب، فكانت علاقة ودية بين هيئات المجتمع وحياة الفرد الخاصة، من أجل حياة مستقرة ومطمئنة وخدمة للمجتمع الميزابي بصفة عامة.

ج- الأسباب الثقافية:

تعد الأسباب الثقافية من أبرز العوامل التي دعت سكان المنطقة بالهجرة نحو البلاد التونسية بصفة خاصة، وذلك من خلال البعثات العلمية التي قادها الطلبة الميزابيون إلى هناك، وكان ذلك عقب الحركة الإصلاحية والثقافية التي شهدتها المنطقة على يد العديد من الشخصيات العلمية والدينية التي تزعمت ثورة الإصلاح بوادي ميزاب، وهو ما سنعرفه في هذا الجانب.

ج-1- النهضة العلمية بميزاب بقيادة الشيخ إطفيش قطب الائمة:

في غمرة ضباب الجهل ونير الاحتلال اللذين عما الجزائر كلها، كان الشيخ محمد اطفيش يبني النهضة العلمية في ميزاب، ويضيف حلقة قوية في سلسلة برز فيها شيخه عبد العزيز الثميني والشيخ أبو زكريا يحي بن صالح الأفضلي قبله²، وإذا كان عهد الشيخين الثميني والأفضلي تمهيدا للنهضة في مجالها لاجتماعي والعلمي، فإنه يحق القول أن عهد الشيخ اطفيش عهد التمكين للنهضة في مجالها العلمي، وعهد مواصلة الجهود في المجال الاجتماعي³.

ولقد كان الشيخ اطفيش في آخر القرن التاسع عشر الميلادي مثالا رائعا للعالم المسلم المجاهد، فقد أعطى نفسه ونفيسه للعلم وحده، يخدم به دينه وأمته ووطنه، وانتصب شامخا أمام الاستعمار أعتى من السيف والمدفع، وكان نموذجا حيا من العلماء الموسوعيين الذين يربطون في اجتهادهم سواد الليل ببياض النهار، فترك بذلك مكتبة غنية بنفائس المؤلفات والمخطوطات في جميع الفنون والعلوم.

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 67.

² - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 125.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 138.

ومن فضل غرسه تخرج ما يزيد على مائة عالم بلغ بعضهم درجة التخصص والاجتهاد، وكان من هؤلاء المتخرجين على يديه من اكتفى بما أخذه عنه فعلمه لغيره، ومنهم من طمحت نفسه إلى الاستزادة من العلم فأقام جامع الزيتونة أو الأزهر وتخرج فيهما، فالحركة العلمية بوادي ميزاب إذا مدينة بالفضل الكبير لهذا المجاهد العظيم¹.

وأحسن الشيخ بعظم المسؤولية على عاتقه، فحرص على التنقل إلى مدن أخرى خارج مسقط رأسه لنشر العلم ومكافحة الجهل، وأيضاً قام برحلات خارج موطنه الجزائر، وخلال الطريق لأداء مناسك الحج، أقام الشيخ بتونس أياماً، ولعله التقى ببعض علماء الزيتونة، وقد قام الشيخ بالحج مرتين كانت إحداها في سنة 1886م، حيث تعرف على أحوال العالم الإسلامي، وألقى الدروس في المسجد النبوي².

فكان لمعهد الشيخ اطفيش في قصر بني يزقن دور بارز في الحركة العلمية والنهضة الثقافية بميزاب، فكانت بداية هذا المعهد عبارة عن حلقة علم ببيت الشيخ، وأصبحت بعد مدة قصيرة مجلب الانتباه في بلده، وأصبحت أصداء هذه الحلقة تصل إلى مسامع طلبة العلم من كل مناطق وادي ميزاب، وبعد بضع سنين أضحت معهده القبلة الأولى للطلبة من كافة قرى وادي ميزاب، كما كانت مقصدا لطلبة العلم من خارج البلاد على غرار تونس وليبيا.

وللحفاظ على المستوى العلمي للمعهد المتخصص في العلوم الشرعية والعربية، كان الشيخ اطفيش يشترط على طلبته قبل انضمامهم إليه مستوى علميا معيناً ومواصفات أخلاقية تتمثل في:

- الاستقامة في الدين والتحلي بالخلق القويم.
- استظهار القرآن الكريم.
- حفظ مجموعة من المتون في الفقه والعقيدة واللغة، التي يعتمد عليها في التدريس³.

هكذا كان للشيخ اطفيش عليه رحمة الله دور بارز وفعال في تفعيل النهضة الفكرية والعلمية والثقافية لمنطقة وادي ميزاب، وتخرج على يديه نخبة من الطلبة النجباء الذين حملوا لواء الإصلاح، وأكملوا مسيرة نشر الحركة العلمية بوادي ميزاب، وهم من سوف نتعرف عليهم في المباحث القادمة.

ج-2- حالة التعليم بمنطقة وادي ميزاب خلال فترة الاستعمار الفرنسي:

منذ دخول الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر كان يهدف إلى طمس كل المعالم الدينية والتعليمية بالجزائر، فلقد قام بهدم المساجد والمؤسسات التعليمية منذ وطأت أقدامه أرض الجزائر، وحوّرب رجال العلم والأئمة وشيوخ الزوايا

¹ - محمد صالح ناصر: "القيم الإسلامية في نظام التعليم بوادي ميزاب " معهد الحياة نموذجاً"، مجلة الحياة، ع: 01، جانفي 1998م، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، الجزائر، ص-ص (71-72).

² - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 126.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (143-144).

وحدد نشاطهم الديني والثقافي، وفرضت عليهم وعلى أتباعهم مراقبة شديدة ودائمة، وقامت السلطات الفرنسية أيضاً بالقضاء على الأوقاف التابعة للمؤسسات التعليمية.

وبالرغم من المعارضة الشديدة التي قادها عدد من الشخصيات الدينية الهامة بالجزائر، كالمفتي محمد بن العنابي¹، وحمدان خوجة²، وبوضربة وغيرهم من العلماء الذين راسلوا السلطات الفرنسية واستنكروا هذه الأفعال الشيعة التي يقوم بها العسكر الفرنسي بالجزائر³.

أما في منطقة وادي ميزاب فلقد كان للمحاضر أو الكتاتيب دور كبير في المجال التربوي والتعليمي، رغم ضعف الإمكانيات والوسائل، إذ يكفي أن ينحصر فضلها في أنها كانت تعنى عناية خاصة بتربية النشء الصاعد تربية إسلامية⁴.

كانت هذه المحاضر تلقن للصبيان القرآن الكريم ومبادئ الكتابة والقراءة وعلوم التوحيد والفقه، ويتولى التعليم فيها ثلاثة من أعضاء حلقة العزابة، يكونون حافظين للقرآن الكريم عاملين بالفرائض الدينية، وليس هناك سن معين لمن يريد الانتساب لهذه المحاضر، ولقد كان المشايخ يدرسون في حلقات، فنون الشريعة واللغة العربية وغيرهما، للتلاميذ الكبار، إما في دور خاصة أو في المسجد⁵.

لكن تجدر الإشارة أن هذا التعليم لم يحظ به عامة أفراد المجتمع، بل اقتصر على فئات فقط، وذلك للظروف المعيشية الصعبة التي جعلت الناس تنشغل بالكسب وبالسعي وراء لقمة العيش العسيرة المنال على حساب اشتغالها بتحصيل العلم، بالإضافة إلى حالة الجهل السائدة وقلة الوعي لدى عامة الناس، مما جعلهم لا يدركون قيمة العلم وأهميته.

¹¹ - محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائر المعروف بابن العنابي، ولد سنة 1775م، وكان على المذهب الحنفي، واسرته قديمة في الجزائر، فلقد كان جده الأعلى حسين من المفتين الأحناف في الجزائر، وكان جده حسين عالما جليلا وموسوعيا، ولقد كان رحمه الله ينتمي إلى أسرة جزائرية عريقة في العلم والوظائف الرسمية، والفقه الحنفي، ولقد كان لابن العنابي ثقافة واسعة وشاملة، وقد رشحه للوظائف الرسمية في الدولة هو مكانة أسرته ومنزلته العلمية، وتقلد منصب القضاء سنة 1808م، ثم في سنوات 1814/1816 أصبح نقيب أشرف مكة والمدينة، وكلف بالسفارة أيضاً في كثير من الأحيان، وهكذا لم يكن ابن العنابي عالما وفقيها فقط، وإنما كان دبلوماسيا ناجحا أيضاً، توفي رحمه الله سنة 1851م بالقاهرة. ينظر: أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990م، ص-ص (21-35).

² - حمدان من عثمان خوجة، (ولد: 1773م/1845م)، يعد من علماء الجزائر المصلحين، الذين دعوا إلى النهضة، وقارعوا الاستعمار بالقلم واللسان، وكان كاتباً سياسياً متميزاً، وعالماً دينياً بارعاً، وتقلد وظيفة التدريس في الجامع الجديد حيث كان يدرس الحديث والتفسير، ولما منع من دخول الجزائر بعد سفره إلى باريس وتأليفه لكتاب " المرأة"، من أجل القضية الجزائرية، تولى الترجمة عند السلطان محمود، وتوفي بالأستانة بتركيا سنة 1845م. ينظر: حمدان بن عثمان خوجة: المرأة، تق-تع-تح: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص-ص (12-43).

³ - محمد بن شوش: التعليم في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1870)، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: بن يوسف تلمساني، جامعة بن يوسف بن خدة/ الجزائر، 2007/2008م، ص-ص (40-44).

⁴ - محمد صالح ناصر: القيم الإسلامية في نظام التعليم بوادي ميزاب، المرجع السابق، ص 72.

⁵ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 160.

بالإضافة على اقتصار هذا التعليم على الرجال دون النساء، فتحرم المرأة منه للمعتقدات الاجتماعية البالية السائدة، التي لا ترى ضرورة في تعلم الذكر فكيف بالأنثى، فيكتفون بتعليمها فرائض الدين من الطهارة والصلاة والصيام وتحفيظها قصار سور القرآن، وعادة ما تأخذ هذه المبادئ على أحد الأقارب كالأب أو الأخ، أو من خلال الاستماع لدروس المساجد¹.

وإلى جانب المحاضر والكتاتيب الدينية، أنشأت الادارة الاستعمارية مدارس نظامية بعد احتلالها للمنطقة، حيث نجد أن مدرسة غرداية فتحت 1889م، ومدرسة بالعطف سنة 1892م، ومدرسة بمليكة عام 1907م، وهكذا انتشرت المدارس الرسمية الفرنسية بمنطقة وادي ميزاب.

وقد كان الأطفال البالغون سن الدراسة يجبرون عليها قهرا وكان أولياؤهم يشتكون من هذا التصرف، ويحاولون تهريب أبنائهم من ميزاب، لذلك كانت السلطات الفرنسية متشددة في مغادرة الأطفال من المنطقة إلا برخصة من طرفها².

ولم يتقبل الميزابيون التعليم الفرنسي وفكرة إدخال أبنائهم في هذه المدارس، فعارضوها وقاطعوها، وامتنعوا عن إرسال أبنائهم إليها، حيث كانوا يرون أن الهدف من هذه المدارس هو مسح الشخصية الإسلامية وتخريب مقوماتها، وأن فرنسا لم تقصد بفتحها تثقيف الشعب وتعليمه بقدر ما قصدت محاربة الإسلام واللغة العربية، لذلك كانوا يحاولون تهريب أبنائهم إلى مدن الشمال، أو إرسالهم ضمن البعثات العلمية الميزابية بتونس³.

فكانت حالة التعليم بمنطقة وادي ميزاب محفزة على الهجرة، فالتعليم المسجدي كان فرصة لطلبة العلم من أجل إكمال دراستهم والاستزادة من العلوم والمعارف في الزيتونة أو في المعاهد التونسية المتعددة هناك في شتى العلوم النقلية أو العقلية، وأما التعليم الفرنسي فلقد كان منفرا للعديد من الطلبة فاختاروا السفر ضمن البعثات العلمية على أن يبقوا في ميزاب وينتسبوا للمدارس الفرنسية.

ج-3- المدرسة الصديقية بتبسة ودورها في انطلاق البعثات العلمية:

تعد المدرسة الصديقية بتبسة من أبرز مظاهر التواصل والتكافل والتآزر بين الإباضية والمالكية بالجزائر، فكانت لبنة تشارك فيها كل من التبسيين والميزابيين من أجل رفع حالة الجهل والامية التي كانت سائدة في تلك الفترة.

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (79-80).

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص 163.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 80.

فأنشأ كل من عباس بن حمّانة¹ والشيخ الحاج بكير العنق² وجملة من الميزابين والتبسين الجمعية الصديقية الخيرية للتربية الإسلامية والتعليم العربي والإصلاح الاجتماعي في سنة 1913م³، ولقد ترأسها الشيخ عباس بن حمّانة، وكان أمين مالها هو الشيخ الحاج بكير العنق⁴.

وكانت المدرسة الصديقية التي أسسها عباس بن حمّانة بأموال أحد تجار وادي ميزاب الكرام الذين استوطنوا تبسة منذ أربعة أجيال كاملة، هي التي فتحت السبيل لتأسيس المدارس الحرة، وكانت الأولى من نوعها في الجزائر، ومن محاسن الصدف التي صادفت الشيخ عباس بن حمّانة في هذا الطريق الإصلاحي أن التجار الميزابين الذين كانوا معه جلهم من تلاميذ الشيخ أحمد اطفيش القطب والشيخ الحاج عمر بن يحي⁵، لذلك كانوا من أكبر أسباب نجاح هذه الحركة المباركة، فأزروها بأنفسهم وأموالهم، وأسرعوا إلى تسجيل أبنائهم بالمدرسة، ومن بين هؤلاء التجار نجد: الحاج بكير العنق، وأخوه الحاج عمر العنق، ومحمد بن بكير التاجر، والحاج بكير بن عمر المرموري

¹ - أحد أعلام مدينة تبسة المعروفين، كان قوي الشخصية شديد التمسك بدينه والغيرة عليه، شجاعا لا يخاف إلا الله، بعيد النظر مثقف العقل ويتقن العربية، ويعرف الفرنسية، شديد الحب للقراءة تأتيه الجرائد والمجلات التونسية وغيرها فيعكف عليها، وكل واسع العلم بالسياسة العالمية، وكان من زعماء الجزائر قبل الحرب العالمية الأولى مع الدكتور محمد بن العربي والشيخ محمد بن رحال، وقد سافر مع الوفد الجزائري الذي ذهب إلى باريس في عام 1912م، ليطالب بإلغاء قانون التجنيد الإجباري، ويدافع عن حقوق الجزائريين لدى الحكومة الفرنسية، وأسس رفقة صديقه الحاج بكير العنق المدرسة الصديقية التي كانت من أول المدارس الجزائرية العصرية، ونتيجة نشاطه الكبير والعظيم حقد عليه الاستعمار واعوانه، فاغتيل يوم 16 جويلية 1914م. ينظر: محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المرجع السابق، ص-ص(266-267).

² - بكير بن ابراهيم بن عمر بن هو العنق، الشهير بـ "أسد القرارة"، (ولد: 1868م/توفي: 1934م)، أخذ العلم بمسقط رأسه على الشيخ عمر بن يحي، وعن الحاج محمد بن الحاج قاسم، استظهر القرآن الكريم، ثم تنقل إلى معهد القطب اطفيش، فكان من أبرز تلاميذه، اشتغل بعد مرحلة التعلم بالتجارة بمدينة تبسة، ثم التحق بسلك العزابة، وبعد وفاة الحاج ابراهيم بن يحي عين رئيسا للعزابة، ويعتبر من أعيان القرارة الذين استعان بهم الشيخ بيوض في حركته الإصلاحية، وترأس العديد من التجمعات السرية بالقرارة، وله علاقات وطيدة مع زعماء النهضة خارج ميزاب كعبد العزيز الثعالبي والامير خالد وشكيب ارسلان، وأسس رفقة صديقه عباس بن حمّانة المدرسة الصديقية بتبسة، وكان الاستعمار الفرنسي يضايقه كثيرا، وسجنه سبع مرات، وفرض عليه الكثير من الغرامات المالية، من أجل التقليل من نشاطه ولكنه لم يتزعزع واستمر بعطائه حتى وافاه الأجل. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج2، ص-ص(181-183).

³ - Amal N. Ghazal: "TENSIONS OF NATIONOMISM : THE MZABI STUDENT MISSIONS IN TUNIS AND THE POLITICS OF ANTICOLONIALISM", int. J. Middle East Studies, 47, 2015, p50.

⁴ - محمد علي دبور: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المرجع السابق، ص 268.

⁵⁵ - عمر بن يحي المليكى القراري، الشهير بـ "نور القلب" (ولد: 1858م/توفي: 1921)، ولد ببلدة القرارة ودخل الكتاب بمسقط رأسه، وهو بن ست سنوات، فحفظ القرآن الكريم، أخذ بعض العلوم على يد مشايخه بالقرارة كالشيخ الحاج عمر بن الحاج مسعود، ثم انتقل إلى غرداية سنة 1891م، ودرس على الشيخ بابكر بن الحاج مسعود، ثم أكمل دراسته العليا على الشيخ اطفيش قطب الائمة ببني يزقن وتخرج سنة 1896م، ثم أسس مدرسة بالقرارة في سنة 1896م، فتصدر لتعليم أبناء المنطقة في شتى العلوم، فكان إماما وواعظا ومصلحا، ثم أصبح شيخا للقرارة بعد وفاة شيخه الحاج ابراهيم الابريكي في سنة 1911م، وكان يرسل بعثات علمية إلى شيخه اطفيش ببني يزقن، وبعد وفاة القطب توجهت تلك البعثات صوب تونس ابتداء من سنة 1916م، كان عضوا بارزا في الجمعية السرية بميزاب، التي تعتبر من فروع الجامعة الاسلامية بتركيا خلال الحرب العالمية الأولى، ولقد سجن وعذب من طرف الاستعمار، ولقد تخرج على يديه أبرز الشخصيات العلمية التي قادت النهضة الإصلاحية بوادي ميزاب بعده. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج3، ص-ص(654-655).

واخوانه عيسى وإبراهيم، وهما اللذين تبرعوا بدارهم الجديدة الأنيقة الواسعة، فكانت المدرسة الصديقية ومقر الجمعية الصديقية، وهي في مكان جميل في تبسة يسمى (ساحة الجمارك)¹، وكانت مبنية على أربعة أدوار، وبالجملة فهي أنضر وأزهى قصور تبسة².

وأما عن منهاجها التعليمي فكان حديثا يشمل مواد القرآن والتربية الإسلامية والأخلاق والتاريخ الإسلامي بما فيه تاريخ الجزائر، وكذا الجغرافيا والمواد الرياضية، إلى جانب التربية البدنية واللغة الفرنسية³، وينص برنامج المدرسة على ثماني سنوات مدة الدراسة، ومن حق التلاميذ القادمين من بعيد في نظام هذه المدرسة الاستفادة من إقامة داخلية، على أن يدفع التلميذ مبلغا ماليا بسيطا⁴.

ولما علم أذنان الاستعمار بالمدرسة وبنائها العظيمة التي بدأت في الظهور، فقامت قائمتهم، وأسرعوا إلى قسنطينة فأبلغوا الحاكم على المنطقة، وقاموا بالوشاية بين كل أوساط المعمرين هناك، وعلموا أن مثل هذه المدارس ستجعل الشعب الجزائري يستفيق ويعلم حقوقه وسوف تكون نهايتهم، فأسرع والي قسنطينة وأمر بغلق المدرسة، ونفي المعلمين وحل الجمعية الصديقية بعد مرور ستة أشهر على ميلادها، وأسرو في أنفسهم شرا كبيرا للشيخ عباس بن حمادة رائد الإصلاح في منطقة تبسة⁵.

وبعد مدة وجيزة من غلق المدرسة الصديقية، بدأت دسائس الاستعمار في تدبير خطة للقضاء على الشيخ عباس بن حمادة زعيم النهضة بالمنطقة، وبالفعل فقد استطاعوا الوصول إليه بمزمرته واغتالوه عن طريق ضربه على رأسه بالفأس، حينما كان بمزمرته يطالع جريدة الزهرة⁶، فاستشهد رحمه في يوم 16 جويلية 1914م⁷.

كان الاستعمار يظن أنه بقضائه على الشيخ عباس بن حمادة سوف يقضي على الحركة العلمية والإصلاحية التي بدأت تتغلغل في نفوس الجزائريين، فبعد الحادثة مباشرة قام التبسيون والميزابيون بإرسال أبنائهم إلى تونس الخضراء في أول بعثة علمية ميزابية¹.

¹ - محمد الأمين بلغيث: فصول في تاريخ الجزائر المعاصر، بحث غير منشور (مخ)، ص-ص (120-121).

² - محمد علي دبوزر: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المرجع السابق، ص 268.

³ - لقد جلب المشرفين على المدرسة الصديقية معلمين ماهرين من تونس وهما: الاستاذ أحمد بن صالح، والاستاذ: محمود بن محمد، حيث كان الأول للغة العربية، وأما الثاني فكان للغة الفرنسية، وأما فيما يخص القرآن الكريم فلقد كان الشيخ والعالم المكي بن علي، وهو من الوجهاء والعلماء بمنطقة تبسة، ينظر: محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص 121.

⁴ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 134.

⁵ - محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص 127.

⁶ - جريدة من اشهر الجرائد التونسية، صدرت بتونس لصاحبها الشيخ عبد الرحمن الصنادلي سنة 1890م، وبعد وفاته انتقلت إلى ابنه محمد الصنادلي، الصنادلي، وقد صدرت يومية، وأسبوعية ونصف أسبوعية، وعرفت بالإيقاف الإضراري والإختياري، وهي ذات طابع وطني سياسي، احتجبت في بداية عهد استقلال تونس. ينظر: أبي اليقظان إبراهيم عيسى: تاريخ صحف أبي اليقظان، المصدر السابق، ص 11.

⁷ - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج2، المرجع السابق، ص 273.

ج-4- نشأة أول بعثة علمية ميزابية إلى تونس:

يمكن القول أن العامل المباشر في ظهور أول بعثة لإباضية الجزائر في تونس هو ما وقع للمدرسة الصديقية العصرية بتبسة، بعد وأدها في مهدها بطريقة مقبلة كما رأينا، فكان رد فعل أولياء التلاميذ هو التفكير الجدي والعزم الأكيد على تحدي هذه الخطوة الاستعمارية بإرسال أبنائهم إلى تونس لاستكمال دراستهم في مدارسها العربية العصرية المماثلة للمدرسة الصديقية، التي أرادت السلطات الاستعمارية أن تحرم أبنائهم من الدراسة والتعلم فيها.

وقبل هذه البعثة بسنة واحدة كان الشيخ إبراهيم أبي اليقظان² متواجدا هناك، وكانت فكرة الخروج من وادي ميزاب تراوده منذ فترة حينما طرحها على زملائه من الطلبة في سنة 1912م، وهم يدرسون في حلقة شيخهم الحاج عمر بن يحيى، ولكن لم يوفق في إقناع رفقاته، فقدر الله وأن مرض من عينيه فكان السبب المباشر للسفر نحو تونس بحثا عن العلاج وكان ذلك في سنة 1913م، وما إن نزل هناك حتى التحق بجامعة الزيتونة وواظب على حضور حلقات كبار المشايخ هناك، وهنا تواصل أولياء تلاميذ المدرسة الصديقية مع الشيخ أبي اليقظان من أجل التولي والإشراف على هؤلاء الطلبة ومتابعة دراستهم فهم لا يزالون في مرحلة دراستهم الابتدائية وبحاجة إلى الرعاية والمراقبة، فوافق الشيخ أبو اليقظان على هذا المشروع مباشرة وتشجع للفكرة، ورأى أن حلمه الماضي بدأ في التحقق³.

وضمت البعثة في أول الأمر حوالي أربعة عشرة طالب فمن المدرسة الصديقية نجد: دحمان بن الحاج بكير المرموري، وحمو عيسى المرموري، وسعيد بن الحاج إبراهيم المرموري ومحمد بن مسعود المرموري ويسوف بن الحاج بكير المرموري، ثم انضم اليهم طلبة جدد ميزابيون كانوا متواجدين في تونس وهم بوهون بن قاسم الزيتون وأخوه

¹ - محمد الأمين بلغيث: المرجع السابق، ص 128.

² - إبراهيم بن عيسى حمدي أبو اليقظان، (ولد: 1888م/توفي: 1973م)، من العلماء الأعلام في القرارة بميزاب، تعدت شهرته الحدود الوطنية، بدأ مشواره العلمي بالكتاب بمسقط رأسه بالقرارة، واستظهر القرآن عند الشيخ الحاج إبراهيم بن كاسي، ثم درس في معهد الشيخ عمر بن يحيى، ثم انتقل للدراسة بمعهد القطب اطفيش ببني يزقن سنة 1907م، وكان من أبرز تلامذته، وكان قد رافقه في الدراسة بالمعهد في هاته الفترة كل من الشيخ أبو اسحاق اطفيش، والشيخ سليمان الباروني، ولقد كان تواقا للسفر نحو تونس وبالفعل تمكن من ذلك سنة 1912م، وانتسب للزيتونة، ثم ترأس أول بعثة علمية ميزابية بتونس سنة 1914م، وعاد في بداية الحرب العالمية الأولى إلى ميزاب، وبعدها ترأس البعثة مرة أخرى من سنة 1917-1925م، ثم عاد إلى ميزاب ووقف بجانب الشيخ إبراهيم بيوض في حركته الإصلاحية، ولقد كان من الأعضاء المؤسسين لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ويعتبر الشيخ أبو اليقظان شيخ الصحافة الجزائرية، حيث أصدر ثمان جرائد وطنية إسلامية باللغة العربية، فيما بين 1926-1938م، ولقد ترك الشيخ أبو اليقظان تراثا علميا وفكريا عاما، وترك مؤلفاته عن 60 مؤلفا في شتى الفنون والعلوم، أصيب بالشلل النصفى سنة 1957م، ولكنه استمر بالعبء والنشاط العلمي والثقافي، إلى أن وافته المنية بمسقط رأسه بالقرارة. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج2، (52-56).

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص (569-570).

بكبير ومحمد بن عمر بوعصبانة ويحيى بن الحاج يوسف مزوز وإبراهيم بن حمو بغباجة وأخوه أحمد و يحيى بورورو من غرداية ومحمد بن إبراهيم المفنون من بني يزقن ومحمد بن الحاج عمر العنق¹.

ويمكن أيضاً أن نشير إلى الدور البارز الذي لعبه عبد الحميد بن باديس من خلال رحلته باتجاه جامع الزيتونة سنة 1908م، حيث كانت هذه الرحلة هي الجسر الذي عبرت عليه جل البعثات العلمية التي تتابعت على تونس بعد هذه الرحلة²، ولعل فكرة البعثات العلمية الميزابية التي كان يحلم بها الشيخ أبو اليقظان تولدت لديه من خلال ما كان يتابعه من أحداث حول جامع الزيتونة وما يشهده من نهضة فكرية وعلمية هناك.

وإن لجامع الزيتونة المعمور دور كبير في استقطاب الطلبة الجزائريين إلى تونس نظرا للمكانة العلمية المرموقة التي يحتلها في نفوسهم³، وكان طلاب العلم من الجزائريين يرون في طلب العلم من الزيتونة واجبا لا بد منه، كما يمثل ضرورة فرضتها ظروف الاحتلال، وأيضاً من العوامل التي جعلت الطلبة يستقرون في رحلتهم العلمية بتونس تحديداً في رحاب جامع الزيتونة، طبيعة البرامج والمناهج المدرسة والمعتمدة في الجامع، وهي البرامج والمناهج التي استقرت بعد سلسلة من الإصلاحات التي نادى بها الطلبة كما نادى بها شيوخهم، فضلا عن وزن شيوخ الجامع وكفاءاتهم الكبيرة⁴.

هكذا كانت الأوضاع الثقافية عاملا مهما ومباشرا ومميزا في حركة الهجرة نحو البلاد التونسية، وخاصة نحو المعاهد العلمية وجامع الزيتونة من أجل طلب العلم والاستزادة من العلماء العظماء هناك، وانتظمت الرحلات بشكل مستمر.

3 - أنواع الهجرات الميزابية إلى تونس:

إذا تحدثنا عن أنواع الهجرة بشكل عام فلدينا نوعان رئيسيان وهما :

الهجرة الداخلية: والتي تعني انتقال الأفراد والجماعات من إقليم لآخر دون اجتياز الحدود السياسية للدولة، كالانتقال بين منطقتين لهما نفس الخصائص الإقليمية، أو يختلفان فيما بينهما كالهجرة من المناطق المتضرسة إلى

¹ - عبد القادر قوبع: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920-1954م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ المعاصر، اشراف: مولود عويمر، جامعة الجزائر، 2007-2008م، ص 63.

² - محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م، ص 34.

³ - للتوسع والاطلاع أكثر حول دور جامع الزيتونة في الحياة الفكرية والعلمية والنهضة الإصلاحية بالجزائر ينظر: رابح فلاحي: جامع الزيتونة والحركة الإصلاحية في الجزائر 1908-1954م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري- قسنطينة، 2007-2008م.

⁴ - علي بن حراث: المرجع السابق، ص 6.

المناطق السهلية، وقد تكون الهجرة الداخلية من الريف إلى المدينة أو العكس¹، وذلك لأسباب الطرد والجذب كما حدث للسكان الجزائريين بعد عمليات الغزو الفرنسي للجزائر، وما أعقبها من سياسة الاغتصاب للأراضي الزراعية الخصبة، وطرد مالكيها إلى المناطق الجبلية الفقيرة.

الهجرة الخارجية: وهي التي يكون فيها انتقال الأفراد أو الجماعات إلى خارج الحدود السياسية للدولة، وقد تكون في الظروف العادية في عهد السلم والحرية، أو تكون في عهد الاحتلال والحروب كالهجرة الجزائرية نحو البلاد التونسية، بعد أن اشتدت الهجرة الداخلية وتنوعت أشكالها من المسافات القريبة إلى المسافات البعيدة بالتوسع الاستعماري نحو المناطق الداخلية كان دافع الطرد فيها قويا من طرف قوات الاحتلال².

ولكننا في حديثنا هنا سوف نركز على الهجرة الخارجية وهي موضوعنا، والهجرة الخارجية في حد ذاتها اتخذت أشكالا وأنواعا، من حيث الكيف والنوع والهدف.

فكانت هناك الهجرة الجماعية التي يتم فيها تهجير السكان الأصليين من إقليم إلى إقليم، بهدف القيام بمشاريع تنموية في الظروف العادية، أو تشريدتهم من موطنهم الأصلي ليحل محلهم آخرون من بلدان أخرى، كما قامت به السلطات الفرنسية بالجزائر في إطار سياستها الاستيطانية للمهاجرين الأوروبيين، والضغط على الجزائريين ودفعهم إلى الهجرة الخارجية، فكانت الهجرات الجماعية من المدن كالجزائر ووهران وتلمسان، ومعسكر وعنابة وغيرها من المناطق الجزائرية نحو البلاد التونسية³.

وهناك الهجرات الفردية باتجاه البلاد التونسية، فمنهم من كانوا يخرجون مهاجرين من الجزائر بإذن من سلطات الاحتلال وبرخصة سفر فرنسية، وهناك من كان يهاجر مختفيا عن أنظار سلطات الاحتلال، وهذا الصنف من الهجرة الفردية لم يتوقف منذ بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، فمن المهاجرين من كان يخرج بدعوى التجارة ببلاد المشرق، أو لأداء فريضة الحج، أو هروبا من الظلم والتعسف الاستعماري.

ومن بين الأشكال أيضاً نجد الهجرة القسرية، وهي التي تمثلت في عمليات النفي الجماعي أو الفردي، أو اللجوء الإجباري الذي يكون بسبب النزاعات الداخلية، أو بدافع النجاة من الحروب، وفي هذا النوع من الهجرة

¹ - يوسف الجفالي: الجالية الجزائرية بجهة الكاف من 1881 إلى 1929م، رسالة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، اشراف: الكراي القسنطيني، السنة الجامعية: 1992/1993م، ص31.

² - احمد بن جابو: المهاجرون الجزائريون ونشاطهم في تونس (1830-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: يوسف مناصرة، جامعة بوبكر بلقايد-تلمسان، 2010-2011م، ص59.

³ - أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954م، ج6، ط1، بيروت، لبنان، 1998م، ص356.

يكون القرار مفاجئاً بعد استنفاد كل الوسائل المتاحة للدفاع عن النفس، فتكون الهجرة بمثابة المقاومة، كما حدث بعد ثورة المقراني والهجرة الجماعية نحو البلاد التونسية¹.

ولم تخرج الهجرة الميزابية أيضاً من هذه الأنواع العامة للهجرة الجزائرية إلى البلاد التونسية أو إلى بلاد المشرق العربي وغيرها، وسوف نقسم الهجرة الميزابية على حسب الغاية والهدف من الهجرة، وأيضاً على حسب الحجم العددي لبعض الرحلات، إن كانت فردية أو جماعية، وهي كالتالي:

أ- الهجرة الفردية:

وتكون هذه الهجرة ذات صلة بالفرد المهاجر، أي أنها ذات أبعاد خاصة بفرد واحد، بحيث قد يكون مطارداً من طرف الإدارة الاستعمارية، أو يكون مبعداً من الجزائر أو بغرض التجارة أو بغرض طلب العلم وغيرها من الأسباب الأخرى التي تجعل من الأفراد يتركون أوطانهم ويهاجرون².

ونجد أن الهجرة الفردية بمنطقة وادي ميزاب كانت موجودة بحكم أن أهالي المنطقة يغلب عليهم الطابع التجاري، فكانوا ينتقلون إلى المناطق الشمالية من أجل الاشتغال بالتجارة، ومنهم من كان يخرج خارج البلاد بعد أن يلتحق بمدن التل الجزائري.

ولعل أبرز من تزعم الهجرات الفردية هم العلماء الميزابيون، الذين تنقوا إلى تونس أو إلى بلدان المشرق والحجاز من أجل الاستزادة من العلم، مثل رحلة هجرة ابن عدون يوسف، حيث كان من أوائل من اعتنق الإصلاح في وقته، ولد ونشأ في بني يزقن وخلف الشيخ عبد العزيز الشميني في إمامة مسجد بني يزقن، شد رحاله إلى المشرق واستقر بالقاهرة بعد أداء فريضة الحج مدة أربعة سنين حيث لقي أكابر العلماء هناك، وفي طريق عودته عرج على تونس وبقي فيها مدة من الزمن، حيث شارك في حياتها الفكرية ونهضتها العلمية³.

ونجد أيضاً رحلة الشيخ صالح الأفضلي، والشيخ اطفيش قطب الأئمة في رحلته الحجازية، وهجرة الشيخ أبي اليقظان الذي كان يتوق للسفر إلى تونس وبالفعل تمكن في سنة 1913م من الذهاب هناك، وكان سببا في تكوين البعثات العلمية بعده⁴.

¹ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص-ص(61-62).

² - يوسف الجفالي: المرجع السابق، ص49.

³ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج1، المرجع السابق، ص311.

⁴ - أبي اليقظان إبراهيم عيسى: تاريخ صحف أبي اليقظان، تق-تع: محمد صالح ناصر، د.ط، د.د.ن، 2003م، ص-ص(12-13).

وإن هجرة العالم لا تعني هجرة فرد أو أسرة، إنما تعني هجرة مكتبة تضم نفائس المعرفة إلى موطن الهجرة ولقد كانت الظروف كما رأينا وراء هجرة هؤلاء، ولعل من الأسباب الأولى في هجرة العلماء هو عدم وجود مدن علمية زاهرة، مثل الزيتونة و الأزهر وغيرها من المراكز العلمية في البلاد الإسلامية¹.

ب - الهجرة الجماعية:

وتكون هاته الهجرة بتنقل عائلة بأكملها، أو عرش من العروش، أو مجموعة من الأشخاص، وتتعدد الأسباب الدافعة لهجرة هؤلاء، فمنهم الاضطرابية وهم المبعدون قصريا من البلاد، والاختيارية التي فضل أصحابها مغادرة البلاد²، ولعل من أبرز الهجرات الجماعية لبني ميزاب هي البعثات العلمية التي توجهت صوب جامع الزيتونة ونحو المعاهد العلمية التونسية، وكما رأينا سابقا أن انطلاق هاته الهجرات كان مع البعثة الميزابية الأولى سنة 1914م، بزعماء أبي اليقظان الذي أشرف عليها، وعلى العديد من البعثات العلمية بعدها، وكانت سنة حميدة تولت بعدها بعثات علمية متعددة³، وهو ما سنعرفه في الفصل القادم.

ومن الهجرات الجماعية، هي تلك الهجرات التي قادها جملة من حملة العلم بين جزيرة جربة ووادي ميزاب، وكانت دافعا للعديد من المبادلات العلمية والاجتماعية بين المنطقتين منذ فترات زمنية بعيدة عن الفترة المعاصرة⁴.

هذه الهجرات من ناحية الحجم العددي للمهاجرين، وأما من ناحية الهدف والغاية من الهجرة فيمكن أن نقسمها على النحو التالي:

ج - الهجرة العلمية:

تعتبر منطقة وادي ميزاب من المناطق المعروفة والشهيرة بالجزائر، بكثرة المحاضر والكتاتيب، وبالمشايع الذين تصدروا للتدريس والتعليم بالمنطقة، ووجود المكاتب الخاصة للمشايع، وللمساجد أيضاً، وبوجود هيئة العزابة التي كانت تدير نظام المجتمع.

وساهم علماء المنطقة أيضاً في نشر الحركة العلمية بشكل كبير، وبث روح العلم وطلبه لدى طلبة العلم، والخروج لتونس من أجل الاستزادة وأخذ العلم من هناك، ونشره في منطقة وادي ميزاب، ولعل من أبرزهم الشيخ عمي بن يحيى، والشيخ الحاج بكير العنق⁵.

¹ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج1، المرجع السابق، ص 153.

² - يوسف الجفالي: المرجع السابق، ص 50.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 571.

⁴ - إبراهيم محمد طلاي: المرجع السابق، ص 5.

⁵ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج2، ص-ص(181-183).

فكانت الهجرة الميزابية إلى البلاد التونسية متميزة جداً، لكونها أخذت الصبغة العلمية بشكل كبير، وكان طلبة العلم يقصدون الحاضرة التونسية فرادى وجماعات، نظراً لما اكتسبته تونس من الشهرة العلمية والثقافية، ومكانة جامع الزيتونة المعمور، ولكون تونس دولة حماية مثلها مثل منطقة ميزاب¹.

د - الهجرة العمالية:

تعد الأمة الميزابية أمة تمتاز بالنشاط التجاري بشكل مميز وكبير، لهذا فلقد كانت الهجرة العمالية موجودة وبكثرة في أوساط الشباب الميزابي، حتى أننا نجد في التشريعات الخاصة ببيئة العزابة، أن المرأة تشتترط على زوجها قبل عقد القران، عند الغياب عنها لمدة زمنية لا تتجاوز السنتين²، وهو ما يدل على انتشار ظاهرة غياب الرجل عن المنطقة لفترات طويلة، وهذا مرده للعمل الذي يكون خارج المنطقة وخاصة في مدن الشمال الجزائري.

ونجد أن الميزابيين كان لهم أيضاً نشاط عمالي مميز في تونس خاصة فيما يخص التكفل بالحمامات وهذا النشاط ليس بالجديد عليهم، فلقد كانوا منذ الدخول العثماني للجزائر يمتهنون هذه المهنة، بل وتزعموها أيضاً في الفترة العثمانية³.

أما في تونس فكانت لهم مكانة مرموقة أيضاً، فنجد على سبيل المثال أنه في عهد الباي التونسي علي باشا (1742-1743م)، كان هناك شخص يدعى "بكير"، حيث كان المكلف بالإشراف على حمامات الباي، ويلقب بـ "معلم حمامي"، وهذا الاسم يدل على أنه ميزابي.

فباستثناء أقلية ليست ذات أهمية تذكر. كانت تتعاطى الفلاحة، فإن الأغلبية من الميزابيين كانت إما تشتغل بالتجارة كتجارة الأقمشة وخاصة تجارة الفحم، أو تشتغل بقطاع الحمامات إلى حد اعتبار أن الميزابية كانوا محتكرين لقطاع الفحم والحمامات بتونس⁴.

ويوجد من الميزابيين الذين كانوا في رحلة البحث عن العمل وعن التجارة، من وصل إلى البلدان الإفريقية كالسنغال، وهو ما تثبته أحد الوثائق الفرنسية، من أن السيدان بوقايلة باحمد بن موسى من مواليد (1929)، والعلواني عيسى بن بلحاج من مواليد (1930)، قاما برحلة إلى دكار في بحث عن العمل، وكان في استقبالهم هناك أحد المهاجرين السابقين وهو السيد يحي زكريا اليزقني، وهذا الأخير كان قد استقر رفقة أخيه سعيد في

¹ - أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، ج1، المرجع السابق، ص219.

² - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، المرجع السابق، ص231.

³ - محمد وقاد: المرجع السابق، ص164.

⁴ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص-ص(528-552).

بماكو منذ حوالي سنة 1940م، منتقلا للتجارة بين نيامي، أبيدجون (كوت ديفوار)، ودكار، ويذكر في التقرير أنه كان يحسن عدة لهجات افريقية¹.

وكانت الهجرة العمالية لبني ميزاب مصدرا مهما من مصادر تعمير الوادي -وادي ميزاب- من خلال ما كانوا يقومون به من مجهودات في كل المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ومساعدة الطلبة الميزابيين الذين يأتون للدراسة سواء في الزيتونة أو المدن الشمالية، ومن أبرز الأمثلة أيضاً ما ذكرناه سابقا حول تبرع الميزابيين بدار مجهزة لصالح المدرسة الصديقية، لهذا نستطيع القول أن الهجرة العمالية كانت من الأسباب التي ساعدت على نمو وازدهار الهجرات والبعثات العلمية إلى تونس.

فكان لهذه الهجرات سواء العمالية أو العلمية، الفردية منها أو الجماعية الدور الكبير والبارز في الحياة التونسية، خاصة في الميدان العلمي والثقافي وفي الجانب السياسي والنضالي، للأهمية الكبيرة التي تولاهها بنو ميزاب هناك في تونس، ولقد كان أثر كل تلك الأعمال أيضاً في وادي ميزاب بالغاً ومهماً، وهو ما سنتعرف عليه في الفصل الأخير.

¹ - I.S.H.M.N. **Dossier** 199 , **doc**04875 , **Cartons** 26 H 9 **Bobines A 58** 05/10/1955

I.S.H.M.N. **Dossier** 199 **doc**1866/s , **Cartons** 26 H 9 **Bobines A 58** 26/10/1955

الفصل الثالث:

المهاجرون الميزابيون وأوضاعهم وإسهاماتهم في الحياة التونسية.

- 1- أماكن استقرار المهاجرين في تونس.
- 2- أوضاع المهاجرين الميزابيين في تونس.
- 3- الأنشطة والأعمال التي مارسها المهاجرون في تونس.
- 4- إسهامات المهاجرين الميزابيين في الحياة السياسية والفكرية

التونسية:

- أ- في مجال الصحافة.
- ب- في مجال السياسة.
- ت- في المجال الثقافي والعلمي.

تعرفنا في الفصل السابق عن الجذور التاريخية التي كانت تربط بين منطقة وادي ميزاب، وجزيرة جربة التونسية، والتي كانت تربطهم علاقات مذهبية وعقدية متميزة، تمتد بالرحلات العلمية والاجتماعية بينهما، وعن أهم الدوافع التي كانت وراء هجرة الميزابيين نحو البلاد التونسية، وأنواع وأشكال تلك الهجرات التي اتخذت عدة أنواع كما تطرقنا لها سابقاً، أما في هذا الفصل فسوف نتطرق في المبحث الأول، إلى حالة المهاجرين بتونس، وعن أهم الأماكن التي تواجد فيها الميزابيون بتونس، وكيف كانوا يختارون تلك الأماكن؟ وأما في المبحث الثاني فسوف نتحدث على حالة أوضاع المهاجرين المختلفة، وكيفية تنظيماتهم الإدارية هناك، وعلاقاتهم الإدارية مع السلطة الفرنسية ومع التونسيين على حدا سواء، وكما ذكرنا في الفصل السابق، إن الهجرة كانت نابعة من عدة أسباب، وتشكلت في أنواع مختلفة، فكانت الهجرة العمالية والعلمية، وهو ما سنتعرف عليه في المبحث الثالث من خلال التطرق إلى أهم الأعمال والأنشطة التي مارسها الميزابيون في تونس، إذا كان المبحث الثالث حول الأنشطة والأعمال المهنية التي مارسها الميزابيون بتونس، فسوف يكون المبحث الرابع والأخير، حول إسهامات النخبة الميزابية بتونس في الحياة الفكرية والعلمية، وفي الحياة الصحفية التونسية، وعن أهم النشاطات الثقافية والفكرية التي كان طلبة البعثات العلمية يقومون بها هناك، وأيضاً عن الجانب النضالي والسياسي الذي مارسه الميزابيون بتونس رفقة الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وتحت غطاء الحزب الحر الدستوري.

لقد كانت تونس ملاذاً آمناً لكل المهاجرين الجزائريين الذي فروا من نير الاستعمار الفرنسي وجوره، وعن إسهامات النخبة الجزائرية وخاصة الميزابية في الحياة التونسية سواء الفكرية منها أو السياسية أو الاقتصادية.

1- أماكن استقرار المهاجرين بتونس.

منذ الاحتلال الفرنسي للجزائر، بدأت الهجرة الجزائرية نحو البلاد التونسية تشهد نوعاً من النمو والتطور، ومع انتصاب الحماية الفرنسية على تونس سنة 1881م، واكتشاف الفوسفات بمنطقة قفصة، تم الارتكاز على الأيدي العاملة الجزائرية، وخاصة منهم الوافدون من عمالة الجزائر، ثم من تلاحم من مختلف المناطق الجزائرية خاصة الجنوب، الذين قدموا إلى تونس بحثاً عن لقمة العيش.

أ - أماكن تواجد الميزابيين بتونس

كان عدد الجزائريين في تزايد مستمر، كما كانت بعض المناطق تستقطب المهاجرين بنسبة تزيد عن (71%) من مجموع المهاجرين الجزائريين وهي كل من مدينة تونس وضواحيها، والكاف وتبرسق وبنزرت، استقر بهم حوالي (29140) جزائري من المجموع الكلي لإحصاء 1936م، البالغ عددهم (40816)، واستقطبت مدينة تونس لوحدها أكثر من (27%) من مجموع المهاجرين لسنة 1936م.

وهناك مناطق احتلت المرتبة الثانية من حيث استقطاب المهاجرين ما بين (1000) و(2500) مهاجر وهي كل من توزر وسوق الأربعاء ومكثر وتالة وبها حوالي (6260) مهاجر جزائري بنسبة (15.33%) من مجموع الجزائريين الواردة في تعداد 1936م.

وأما المناطق التي انتشر في الجزائريون بنسب أقل من (1000) نسمة حسب إحصاءات 1936م فهي تركز في الجهات الجنوبية الوسطى التي لا تتوفر بها فرص العمل، وهي تعتبر مناطق طاردة للسكان حتى بالنسبة للتونسيين¹.

وتعد الفئة الميزابية المهاجرة إلى البلاد التونسية من أهم الفئات التي استقرت هناك، وذلك راجع إلى العلاقات التاريخية التي تربط المنطقتين خاصة ما يخص جزيرة جربة، إذ نجد أن نسبة الميزابيين بتونس كانت 19.5% من مجموع الجزائريين المتواجدين هناك بالنسبة لإحصاء سنة 1921م، وتعتبر هذه النسبة مهمة جدا إذا علمنا أن نسبتهم في الجزائر هي 0.5%، يتركز 66.5% منهم في جزيرة جربة².

ولقد كان هناك تطور في تعداد الميزابيين بتونس عبر مختلف السنوات، وكان تطور هذا التعداد راجع لظروف الهجرة، وعواملها من منطقة وادي ميزاب، أو الأوضاع في تونس.

السنة	العدد
1921	395
1926	205
1939	765

تطور تعداد المهاجرين بتونس خلال 1921-1936³

واستقر المهاجرون الجزائريون في مختلف المناطق التونسية، وتوزعوا عبر مختلف ربوع البلاد، وسكنوا في مختلف الأماكن والمحلات.

فنجد من هذه الأماكن التي أستقر بها المهاجرون مايلي:

¹ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص-ص (179-180).

² - عبد القادر قوبع: المرجع السابق، ص61.

³ - Jamal hagu: **les algériens originaires du sud dans la ville de tunis pendant l'époque colonial (1881-1956) (mozabites, souafas, ouarglias)**, mémoire DEA, université de manouba, année universitaire 2003-2004, p55.

الوكالات: وهي مساكن دائمة للجزائريين القادمين من الجنوب بشكل خاص، وتكون الوكالة للطبقة الفقيرة في أغلب الأحيان، أو القادمين الجدد إلى تونس¹، وغالباً ما تكون هذه الوكالات في حالة من البؤس، ويتجمع في كل غرفة من غرف الوكالة حوالي خمسة أو ستة أشخاص، وكانوا أيضاً يستغلون أحد الأماكن منها كمطبخ لهم².

المقاهي: وتعتبر المقاهي من أهم الأماكن الفضلى للمهاجرين، حيث يجد المهاجر نفسه منظماً إلى جماعته ويلعبون لعبة الورق، ويتبادلون أطراف الحديث المتنوعة، وكانت أيضاً أماكن إرسال واستقبال الرسائل من طرف الأهل والأصدقاء، وكانت من أهم الأماكن لبعض الأفراد الذين لا يملكون وثائق ثبوت الهوية³.

ومن المهاجرين من كانوا يقوموا بإكتراء أو شراء المنازل أو المحلات من أجل السكن فيها، ويوجد من المهاجرين أيضاً من انتقل إلى ضواحي مدينة تونس العاصمة واستغلوا المناطق التي مازالت غير أهلة بالسكان، واشتروا الأراضي وبنوا المنازل البسيطة، كما فعل مهاجرو وادي سوف بمنطقة الجبل الأحمر وجبل جلود بضواحي تونس العاصمة⁴.

ولكن المهاجرين الميزابيين شذوا عن هذه القاعدة التي جمعت المهاجرين الجزائريين الآخرين، فنلاحظ غياب الجاليات الميزابية بتونس في هذه الأماكن العامة والاجتماعية التي تجمع عدداً كبيراً من المهاجرين من مختلف الأماكن سواءً في المقاهي أو الوكالات، ويرجع ذلك إلى أسباب دينية وثقافية للمجتمع الميزابي في حد ذاته، وكانوا يفضلون أماكن أخرى، فلقد كانوا يختارون الحمامات، أو المحلات التجارية، والمساجد، ومحلات المطابع أو مؤسسات المساعدة الميزابية، التي كان يديرها الميزابيون⁵.

فكان من خصائص الجاليات الميزابية أيضاً سواءً في الشمال الجزائري أو في تونس وغيرها من الأماكن التي يهاجرون إليها، أنهم يخصصون داراً لنزول مسافريهم مجاناً، يطلق عليها دار العرش، وفيها قاعة للصلاة، وهي مجهزة بالمرافق ووسائل الطهارة، وعليها قيم، ومسجداً للصلاة، بجواره شقق لنزول المسافرين الميزابيين⁶.

لهذا نجد إن الميزابيين سكنوا الحمامات والمتاجر التي كانوا يعملون بها، سواءً كأصحاب محلات أو كموظفين بها، ولعل أشهر هذه الحمامات كانت موجودة بسيدي محرز، سوق السلاح، شارع المار، شارع القعدين، باب

¹ - عبد القادر عزام عوادي: هجرة سكان وادي سوف إلى تونس خلال 1912-1962 تونس العاصمة نموذجاً، ط1، دار اللمعية، قسنطينة، 2014م، ص160.

² - Marty: " les algériens à tunis", revue I.B.LA, N43, et N44, tunis, 11ème année, 3ème et 4ème trimestre 1948, p317.

³ -jamal hagu: op, cit, p46.

⁴ - عبد القادر عزام عوادي: المرجع السابق، ص171.

⁵ -jamal hagu: op,cit, p 47.

⁶ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص70.

منارة، ولم يكن لديهم أحياء خاصة لهم أو تحمل أسمائهم كما كان للسواقة مثلاً في تونس العاصمة، حيث نجد أحياء تحمل أسماءهم لكثرة وجود المهاجرين بها فكانت تسمى بـ " حومة السواقة"، ربما الحي الوحيد كان قرب شارع باب العسل ممراً هناك يحمل اسم ميزاب¹، ولقد حلت الجاليات الميزابية بكثرة في تونس العاصمة، وخاصة في غرب مدينة تونس وشمالها².

ولم يكن المتجر الميزابي مؤسسة اقتصادية فقط، وإنما كان كذلك خلية اجتماعية تضم أرباب الحركة والمستخدمين، يتقاسمون العمل ويسكنون محلاً واحداً، يتناولون وجباتهم معا ويسهرون حول المائدة نفسها، فقد كان الجو السائد جو ثقة واطمئنان وتعاون ونصح³.

وكان من خصائصهم في هذا الجانب أيضاً اعتمادهم على مؤسسات تجارية تأخذ صبغة عائلية فهم يستثمرون في الحمامات والمطابع والفنادق، ويتعدون عن الاستثمار في القطاعات التي تتعرض لخطورة كبرى، وأنهم كانوا يعتمدون على ثقة اليد العاملة الميزابية فيوظفونها لديهم، وبهذا يكون صاحب المحل والموظف في المحل كلهم من الجالية الميزابية، ويكون المحل في حد ذاته عبارة عن خلية للنشاطات الميزابية في بلد الهجرة⁴.

أما عن الأملاك الخاصة بالميزابيين في مجال العقار، فلقد كان لهم أملاك معتبرة في تونس، وامتلكوا مساحات عقارية هامة، جعلتهم في مكانة مرموقة ومحترمة، ومن ضمن هؤلاء نجد: الحاج علي بن عمر بكير الذي كان يملك عدة عقارات برادس وبمدينة تونس ومستثمرات فلاحية بالعالية جهة بنزرت، وكان عضواً في جمعية الأيتام ونال نيشان الافتخار سنة 1904م، وله أيضاً حمامات بباب الجديد ومنزلاً وأربعة متاجر بباب المنارة ومنزلين بزقة اللبن بنهج المار، أما الشخص الثاني فهو حمو بن محمد بن موسى المولود بمنطقة بني يزقن سنة 1870م، والذي قدم إلى تونس سنة 1908م، فقد امتلك منزلاً قيمته (70 ألفاً) فرنك بنهج الأحجار وعقارات أخرى، وتولى تجارة الأقمشة، أما الملاك الثالث من الفئة الميزابية فهو محمد بالحاج بوعروة فلقد كان يمتلك حماماً بنهج الزاوية البكرية أين كان مقر إقامته هناك، وأما عمارة بن الناصر بن يوسف بن عمارة من مدينة القرارة له عمارة بنهج الخليل بمدينة تونس، بالإضافة إلى ملكيات أخرى بالعلمة وميزاب وله استثمارات أخرى أيضاً في مجال الفلاحة⁵.

الفلاحة⁵.

فكان للميزابيين في تونس العاصمة مسجداً، وذلك بعد تكاثر أعدادهم ونشاطاتهم بتونس، وكان يقع في شارع حسن بتونس العاصمة، أثّره تأثيراً حسناً للصلاة والوضوء والطهارة، فكان الساكنون قريباً منه يؤمنونه

¹ -jamal hagu: op, cit, p-p (47-49).

² - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص165.

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص70.

⁴ - مختار هوارى: المرجع السابق، ص9.

⁵ - عبد الكريم الماجري، المرجع السابق، ص-ص(540-541).

للصلاة في أوقاتها، وكان هذا المسجد هو جامعة الميزابيين في تونس، يوثق الصلوات بينهم، ويزيدهم تذكرا وعناية وخدمة لوطنهم¹.

ونظرا للخصوصية المذهبية التي يمتاز بها الميزابيون بحكم أنهم يتبعون المذهب الإباضي، فقد ظلت الخصوصية حتى فيما يتعلق بموتاهم، وكان لديهم مقبرتين الأولى وهي القديمة موجودة في باب العسل، والمقبرة الثانية موجودة في مقبرة الجلاز تحت ربوة برج سيدي علي ريس².

فكان الميزابيون الموجودون في تونس يشكلون طائفة لا بأس بها من تعداد المهاجرين الجزائريين، وأيضاً كانوا ذوو مكانة مرموقة في المجتمع التونسي خاصة أصحاب الأملاك والأثرياء منهم، وكانت لديهم خصوصية حتى في أماكن إقاماتهم حيث كانوا يتجمعون في أماكن مخصصة كما رأينا سواء في الحمامات التي كانوا يمتلكونها أو في المحلات التجارية المختلفة، أما الشكل الثاني من الإقامات الميزابية بتونس فهي التي تخص البعثات العلمية، فكانت لديها مقرات خاصة بها.

ب - مقرات البعثات العلمية "دار البعثة":

بعد أن تم غلق المدرسة الصديقية بمدينة تبسة من طرف الاستعمار الفرنسي، بدأ أولياء تلاميذ المدرسة في التفكير من أجل إرسال أبنائهم لإكمال الدراسة في تونس، ولقد اهتم هؤلاء الأولياء إلى الشيخ أبي اليقظان الذي كان متواجدا هناك في تونس، فتواصلوا معه وأخبروه عن مشروعهم فقبل مباشرة لأنه كان يطمح في ذلك منذ فترة زمنية سابقة.

هكذا بدأ الشيخ أبي اليقظان في الاستعدادات لاستقبال فوج التلاميذ، فبدأ في البحث عن منزل مناسب لاستئجاره، يكون مقرا لبعثتهم، ويؤويهم ويعينهم على مزاولة دراستهم، ولقد كان رفقة الشيخ أبي اليقظان في هذه المهمة كل من الشيخ الحاج عمر العنق والشيخ سعيد بن عيسى النفوسي³، وبالفعل تمكن هؤلاء من إيجاد دار فسيحة وجميلة في الطابق الثاني من نهج تربة الباي، في النصف الأول من جهة جامع الزيتونة، وفي هذه الدار نحو خمس حجرات واسعة، وصحن يتوسطها، وسطح فسيح، ولقد كانت الدار مضيئة وفسحة، وبها كل المرافق اللازمة الأخرى.

¹ - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص168.

² - مختار هوراي: المرجع السابق، ص10.

³ - الشيخ سعيد بن عيسى النفوسي، صهر الشيخ سليمان الباروني، وهو من جبل نفوسة بليبيا، كان مثقفا وراجح العقل، حافظ لكتاب الله، كتب بعض المقالات في جريدة الفاروق للشيخ عمر بن قدور، ولقد استقر بتونس عندما قامت القوات الإيطالية باحتلال ليبيا، ثم تنقل نحو تبسة منذ سنة 1913م، وذلك لكثرة وجود إخوانه الميزابية من أصحاب المذهب الإباضي هناك، ثم احترف الخياطة في بلدة الشريعة بتبسة، ثم جعله الميزابية هناك بتبسة معلما لأبنائهم، ولما تقرر إرسال أول بعثة ميزابية إلى تونس أرسله الشيخ الحاج بكير العنق ليساعد الشيخ أبا اليقظان في مهمة الإشراف عن البعثة. ينظر: محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المرجع السابق، ص153.

ثم تنقل كل من الشيخين أبي يقظان و الشيخ عمر العنق من مسكنهما من وكالة الجمل في سوق العطارين بتونس، ليكونا مع أبنائهم التلاميذ يرعونهم ويتولون مهمة الإشراف عليهم¹.

سطر الشيخ أبو يقظان لفتية دار البعثة برنامجا مكثفا بالأنشطة ومحكما في الأوقات وحازما في التربية، ولقد كان هدفه هو الجمع بين التربية والتعليم وبناء الشخصية السليمة القويمة لهؤلاء الفتیان، والقيام بالأشغال المنزلية والترفيه والرياضة.

حيث حدد الشيخ أبو يقظان المهام والأدوار التي كان يقوم بها في البعثة كآلاتي:

- إلقاء الدروس عليهم في العقائد وفي الفقه الإباضي يوميا
- تفقد كرايسهم ودروسهم المدرسية
- مراقبة أحوالهم الدينية والعملية
- ضبط سيرتهم وتقويم أخلاقهم
- المحافظة على حالتهم الصحية والاقتصادية
- إدارة شؤونهم المنزلية.²

هكذا كان جو البعثة مفعما بالنشاط والحيوية والاستفادة بين المدرسة والبعثة لمدة عشرة أشهر كاملة، قبل أن يضطر القائمون عليها للعودة بالتلاميذ إلى أهاليهم بتبسة أو إلى منطقة وادي ميزاب، نظرا للظروف السياسية واندلاع الحرب العالمية الأولى، وتوقف مشروع البعثة سنة 1915م³.

وقد استقبل الميزابيون سواء في الشرق الجزائري بتبسة، وعين البيضاء، أو في وادي ميزاب وبالأخص مدينة القرارة، البعثة الميزابية أحسن استقبال، واستقبلهم الشيخ عمر بن يحيى، وأعجب الكل بحسن النتيجة، وبأثار الشيخ أبي يقظان الحسنة في تلاميذ البعثة، وتفاءلوا خيرا بالبعثات العلمية التي ترسل من ميزاب إلى تونس تحت إمرة وتوجيه الشيخ أبي يقظان وأمثاله⁴.

فكان أثر البعثة الميزابية الأولى كبيرا في نفوس طلبة العلم خاصة بوادي ميزاب، لذلك بدأت التحركات من أجل تنظيم بعثة علمية ميزابية نحو البلاد التونسية بقيادة الشيخ أبي يقظان، وبعد إتمام الترتيبات انطلقت كوكبة من الطلبة نحو تونس، فوصلت هناك في شهر جانفي من سنة 1917م.

¹ - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص-ص(153-154).

² - أبو يقظان إبراهيم عيسى: إرشاد الحائرين، مطبعة العرب، تونس، 1923م، ص-ص(6-7).

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص573.

⁴ - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص192.

وكانت البعثة مكونة من ستة طلبة وأبو اليقظان سابعهم، حلت بتونس واستأجرت داراً، وما لبث أن التحق بها أعداد من الطلبة من قرى وادي ميزاب ومن الميزابيين المقيمين بتونس، فكان أفرادها في تزايد متسارع مستمر حتى قارب المائة طالب وتلميذ بعد نهاية الحرب العالمية الأولى وخلال العشرينيات¹.

ومع التزايد المستمر لمنتسبي البعثة، صار مع أبي اليقظان في رئاسة البعثة العلمية الميزابية الكبرى رئيسان آخران، وصارت لها داران أخريان جديدتان، وأصبح عددهم بالضبط خلال العشرينيات ونهاية الحرب العالمية الأولى اثنين وتسعين طالباً في ثلاثة ديار²، وهكذا تم تقسيمهم على ثلاثة أفواج كل فوج في دار³، فدار كان يرأسها السيد الحاج صالح بن باعلي⁴، ودار يرأسها الشيخ محمد بن الحاج صالح الثميني⁵ ومعه الشيخ إبراهيم اطفيش⁶، فسارت البعثة الميزابية في ديارها الثلاث السيرة الحسنة ونجحت النجاح الباهر¹.

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 576.

² - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 3، المصدر السابق، ص 225.

³ - محمد زغبنة: أبو اليقظان ونثره، دكتورا دولة في الأدب الحديث، إشراف: العربي دحو، جامعة باتنة، 1998-1999م، ص 27.

⁴ - صالح بن علي باعلي، (ولد: 1879/توفي: 1967)، من قصر بني يزقن بمنطقة وادي ميزاب، وعالم فذ من علمائهم، وثري سخي من أثرياء المنطقة، أخذ العلم بمسقط رأسه ببني يزقن على يد قطب الأئمة الشيخ اطفيش، وكان من الساهرين على البعثة الميزابية بتونس، وتخرج على يديه شاعر الثورة مفدي زكرياء، وهو شيخ عزالي في الحلقة، عرف بالفتوى والوع والارشاد، في سنة 1951م، اشترى بماله الخاص ومال بعض المحسنين عقارا بالمملكة السعودية وجعلها وقفا للحجيج الإباضيين، ولقد تولى رئاسة البعثات الحجازية الميزابية لسنوات. ينظر: جمعية التراث، المرجع السابق، ج 3، ص 473.

⁵ - محمد بن صالح بن يحيى بن عيسى الثميني، (ولد: 1897/ توفي: 1970م)، أحد رجال بني يزقن المخلصين، برز في ميادة عديدة، وساهم مساهمة فعالة في الحركة العملية والاجتماعية والسياسية، أخذ مبادئ العلم بمسقط رأسه عند الشيخ قطب الأئمة، وفي سنة 1917م توجه نحو تونس لاستكمال دراسته بجامع الزيتونة، وتخرج على يد علمائه منهم الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، أسهم في الحركة العلمية والسياسية منذ لحاقه بتونس، حيث انضم للبعثة الميزابية وكان مساعدا للشيخ أبي اليقظان والشيخ إبراهيم اطفيش في تسيير شؤونها، ثم تولى رئاستها بعد نفي الشيخ اطفيش إلى مصر، وتعرف على الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي، وكان عضوا بارزا في قيادة الحزب الحر الدستوري، وسعى بكل جهوده في دعم الحزب خاصة ماديا، وكان أيضا مبعوث الحكومة المؤقتة إلى أمريكا والمغرب، وكان مساعدا لأبي اليقظان في تسيير جرائده، وكان يدير مكتبة الاستقامة التي كانت موردا هاما لكل المثقفين التونسيين والجزائريين وكانت مقرا لكل الأحرار، وقام بطبع العديد من الأعمال، خاصة كتب جده الشيخ عبد العزيز الثميني، توفي بتونس سنة 1970م. ينظر: جمعية التراث: الرجوع السابق، ج 4، ص-ص (803-805).

⁶ - إبراهيم بن محمد ابن إبراهيم بن يوسف اطفيش (أبو إسحاق)، (ولد 1886/ توفي 1965م)، أحد علماء بني يزقن، أخذ مبادئ العلم بمسقط رأسه عن عمه قطب الأئمة الشيخ اطفيش، ثم توجه صوب العاصمة وتعلم عن الشيخ عبد القادر المجاوي، بعدها سافر صوب تونس ليستزid من العلوم العقلية، فأخذ عن الشيخ محمد بن يوسف الحنفي والعلامة الطاهر بن عاشور، ولقد كان من المسؤولين والقيمين على البعثة العلمية الميزابية إلى تونس رفقة الشيخ أبي اليقظان والشيخ الثميني، واقتحم العمل السياسي منذ تأسيس الحزب الحر الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي فكان من الرجال الأوائل الذين وقفوا إلى جنبه، ثم أصدرت السلطات الفرنسية بتونس قرار بإبعاده من تونس فأختار القاهرة وكان ذلك سنة 1923م، وعند وصوله للقاهرة شرع في أداء رسالته ونشاطه، في التأليف والتحقيق والطبع والفتوى، ولقد كان سياسيا بارزا حيث شارك في تأسيس جمعية الهداية الإسلامية بزعامة الخضر حسين، ونشط في جمعية الشبان المسلمين بزعامة حسن البناء، وتولى مهمة الإشراف عن الأوقاف الإباضية بمصر، وكانت له علاقات وطيدة مع زعماء وشخصيات تلك الفترة، مثل السيد قطب، ومحمد رشيد رضا، واختير ممثلا للقضية العمانية بالأمم المتحدة، وكانت له رحلات عديدة في مختلف ربوع العالم الإسلامي. ينظر: جمعية التراث، المرجع السابق، ج 2، ص-ص (44-47)، وينظر: مصطفى بن الحاج بكير حمودة: "أبو

هكذا أصبح للبعثات العلمية الميزابية بتونس دور هامة يسكنون بها ويقومون فيها بنشاطاتهم المختلفة، واستمرت هذه البعثات تقوم بدورها على أحسن وجه إلى غاية قيام الحرب العالمية الثانية أين نشهد توقف البعثات العلمية في مرحلتها الأولى.

لتظهر لنا المرحلة الثانية بعد الحرب العالمية الثانية أو في نهاياتها، البعثات العلمية البيوضية، التي بدأت تتوافد على تونس بشكل غير منتظم في الأول وذلك راجع إلى منع السلطات الفرنسية الجزائريين من الدخول إلى تونس، فكان الطلبة يسلكون مسالك جبلية وعرة، من أجل الوصول إلى هناك، حتى تكونت هناك بعثة علمية، فقامت جمعيات الحركة الإصلاحية المشرفة على التعليم بتأطيرهم، وتنظيم الحركة العملية الناشئة، فاشترت لهم سنة 1952م، دارا فسيحة في قلب العاصمة تونس بالقرب من جامع الزيتونة تأويهم وتضمهم جميعا، بعدما كانوا يسكنون متفرقين في دور يستأجرونها، أو ينزلون عند بعض العائلات الميزابية المقيمة في تونس²، وجعلت لهم طباحا ورئيسا من أبناء المعهد يوجههم ويواصل فيهم التربية البدنية والخلقية والعقلية³.

ونجد أيضاً أنه مع تزايد أعداد البعثة وحركة الطلبة المستمرة القادمين من منطقة وادي ميزاب، كانت الدار الأولى قد ضاقت على الطلبة، فقامت جمعية الفتح بريان بشراء دار ثانية ليتسع إليها الطلبة، وتسهل عملية المراقبة والتأطير والتوجيه والرعاية⁴.

هكذا كان الميزابيون يختارون أماكن إقاماتهم بتونس، سواء العمال منهم الذين كانوا يقيمون في أغلب الأحيان في أماكن شغلهم، سواء في الحمامات أو في المحلات التجارية، وطلبة العلم من أصحاب البعثات العلمية الذين كانت لهم دور خاصة كما سبق وأن تحدثنا في هذا المجال.

2- أوضاع المهاجرين الميزابيين في تونس:

توجه الميزابيون نحو تونس بأعداد كبيرة، وكانت مدينة تونس الأكثر حضورا للمهاجرين الميزابيين على غرار جزيرة جربة بالطبع التي كانت تشهد أيضاً حضورا ميزابيا معتبرا، ومرد ذلك كما ذكرنا آنفا للقرب المذهبي الذي يجمع بين المنطقتين.

إسحاق اطفيش الجزائري محققا كتاب " الملاحن" لابن دريد أنموذجا"، مجلة المنهاج، العدد: الأول، نوفمبر 2011م، جمعية الشيخ أبي إسحاق اطفيش لخدمة التراث، غرداية، ص-ص(24-28).

¹ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص225.

² - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص585.

³ - محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، المصدر السابق، ص117.

⁴ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(585-586).

وذلك راجع للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي كانت تشهدها الجزائر بصفة عامة، ومنطقتهم وادي ميزاب تحت حكم الاستعمار الفرنسي، وتأثر الحالة الاقتصادية والاجتماعية بهذا الوضع، وأيضاً الحالة العلمية والثقافية مما أدى بهم للخروج والسفر نحو الشمال أو إلى تونس من أجل تحسين أوضاعهم.

أ- التنظيم الإداري للمهاجرين الميزابيين:

نعلم أن للميزابيين نظام ديني واجتماعي محكم يتمثل في هيئة العزابة والهيكل الهرمي الاجتماعي الذي يسيّر الحياة العامة للمجتمع الميزابي من مختلف النواحي، لكن عند الهجرة إلى خارج منطقة وادي ميزاب، في مدن التل أو خارج الجزائر كان عليهم اتباع نظام معين يتماشى مع الظروف التي تحيط بهم.

وقد كان للميزابيين منذ العهد العثماني في المدن الكبرى أمين ينتخبونه يشرف على شؤونهم، ويمثلهم لدى السلطات العثمانية، وكان بيده صندوق للتضامن، تسدد منه ديون كل تاجر ميزابي أصيب بنكبة في تجارته، وكانت جماعة بني ميزاب تعطي قروضا من هذا الصندوق لدايات الجزائر، وتدفع لحكومة الأتراك سنويا أربعمئة سائمة، كما كانت جماعة عنابة تدفع لهم مائة سائمة¹.

ومن مداخيل هذا الصندوق الإتاوات السنوية المقدرة بين (40) إلى (50) بوجو يجمعها الأمين عن كل متجر ميزابي وحمام ميزابي، بالإضافة إلى الإتاوات الأسبوعية التي كان يدفعها كل ميزابي يستأجر دابته بغرض حمل ونقل مختلف السلع والأغراض، هذا بالإضافة إلى حق الإجارة التي كان يدفعها كل ميزابي موجود داخل مدينة الجزائر عند حلول شهر رمضان المعظم من كل سنة².

وبعد الاحتلال الفرنسي للجزائر وما حولها، أصدرت السلطات الفرنسية مرسوما، يوم 4 جوان 1837م، يقضي بإقرار نقابات البرانيين الخمس، ومرسوما آخر يوم 31 جوان 1937م يحدد التنظيم العام لهذه النقابات³.

فجعل الفرنسيون هذه النقابات تحت نظرهم وحاسبوها الحساب العسير، وضيقوا عليها الخناق، حتى أفلس الكثير منها، وتولى الأوروبيون واليهود مهام تلك الجماعات، وقد تحول البرانية، أو اليد العاملة الجزائرية التي تأتي من الريف للإقامة المؤقتة من أجل العمل، إلى عمال غير حرفيين، بل ورجع البعض منهم إلى مناطقهم الأصلية بعد أن فقدوا الأمل في مواصلة العمل في المدن الكبرى⁴.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص70.

² - محمد وقاد: المرجع السابق، ص-ص(164-165).

³ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص71.

⁴ - أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، المرجع السابق، ص250.

ونص المرسوم الصادر من طرف الوالي العام سنة 1838م على أن تتألف نقابة الميزابيين من الأشخاص المنتمين إلى أعراش غرداية ومليكة وبنى يزقن وبونورة والعطف، يحتفظ العرشان الأولان كلاهما بمقدمين، أما الأعراش الثلاثة الأخرى بثلاثة مقادير لكل واحد¹.

وعلى هذه الشاكلة كانت التنظيمات الإدارية للميزابيين في الجزائر وفي مدن التل بصفة عامة خلال الحقبة العثمانية والفترة الفرنسية، ولم يختلف الأمر كثيرا عنه في تونس حيث شكلوا هناك بأمر من السلطات الفرنسية ممثلا لهم لدى السلطة الفرنسية.

فكان للهجرة الميزابية نحو تونس، وارتفاع عددهم هناك ضرورة تنظيم صفوفهم على أساس التنظيمات التي تعودوا عليها في بلدهم ميزاب، وأسسوا الحلقة أو نظام العزابة بمدينة تونس خلال سنوات 1846/1847م، بإشراف القنصل العام الفرنسي حسب الروايات الفرنسية والميزابية، فهيئة العزابة متكونة من سبعة أعضاء، ممثلة لسبعة قرى وادي ميزاب، وهم بدورهم ينتخبون رئيسا لهم وعادة ما يكون من غرداية عاصمة وادي ميزاب، مع موافقة القنصل الفرنسي على ذلك الاختيار حيث يكون بإمكانه إقالة الرئيس المنتخب من طرفهم.

ولذا تواصل نظام الجماعة إلى غاية قيام الحماية الفرنسية على تونس سنة 1881م، وقد تم التخلي عنه عهد المقيم العام بول كامبون، نظراً للخلافات الدائمة بين الميزابية².

وإن المهاجرين الميزابيين مرتبطون بنظام الجماعة، فالشيخ الذي يمثلهم لدى مؤسسات الحماية الفرنسية لا بد أن ينتخب من الجماعة المشكلة من القرى السبع كما ذكرنا، وتذكر المصادر أن أول رئيس للجماعة هو إبراهيم أقاصي، ثم خلفه عمر بن بكير الذي عين خارج إطار " الجماعة"، وهو ما تحفظ منه الميزابيين، فراسل أعيانهم بتاريخ 16 ماي 1892م، الوزير المقيم العام يدعونه إلى التخلي عن المؤسسة المشيخية الميزابية وطالبوا بالسماح لهم بانتخاب سبعة مشايخ، وهم ينتخبون فيما بينهم رئيسا منهم يمثل الميزابية لدى السلطات الفرنسية بدلا عن عمر بن بكير³.

وتم رفض عمر بن بكير بسبب تعيينه خارج دائرة الجماعة وأيضاً أتهم من طرفهم بالتدجيل والتحايل، واعتبروا مناوراتهم للحصول على الرئاسة خيانة، بالإضافة أنه ينتمي إلى قرية غرداية التي لا يمثل مقيمها بتونس وزنا عدديا كبيرا على غرار القرى الأخرى، ولقد أهل غرداية من أول المعارضين لهذا الشخص.

¹ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص72.

² - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص-ص(534-535).

³ - مختار هوارى: المرجع السابق، ص8.

وأمام هذه الضجة والمطالبة بتغيير عمر بن بكير، قام الوزير المقيم بتعيين الحاج علي بن عمر بكير شيخاً على الميزابية، وأمر المراقبة المدنية بتونس بالقيام ببحث لمعرفة الرغبات الحقيقية للميزابية في مستوى النظام الإداري المناسب لهم، وكان اختيار أغلبية الميزابية في الاستجواب الذي قامت به المراقبة المدنية بتونس، هو إعادة تكوين مؤسسة الجماعة، وانتخاب شيخ لتمثيل الميزابية لدى السلطات الفرنسية، غير أن المراقب المدني رأى أنه ليس من الضروري إعادة الانتخاب والعمل بنظام الجماعة، ورأى أيضاً أنه إذا ظهر للإقامة العامة ضرورة تعيين شيخ للميزابية فلها أن تجربهم على قبول ذلك، ولما أدرك الميزابيون تعنت الإدارة الفرنسية وإقرارها لحقها في تعيين شيخ للميزابية دون الرجوع إليهم، فلم يهتم الميزابية لهذا الأمر لكون أن جميع أمورهم كانت تتم عن طريق الجماعة المرتبطة بالمجلس الأعلى للعزابة¹.

وهكذا استمرت الإدارة الفرنسية في تعيين ممثلين لجماعة بني ميزاب بتونس، وتولى هذا المنصب العديد من الشخصيات الميزابية، وكانت الإدارة الفرنسية تختار هذا الممثل على شرطين رئيسيين يهتمان السلطات الفرنسية بالدرجة الأولى وهما: الثراء، وأيضاً الولاء لفرنسا.

والمهمة الأولى لصاحب هذا المنصب هو جمع الضرائب والجبايات التي تفرضها السلطات الاستعمارية على السكان، وكان كل مهاجر يدفع ضريبة قدرها (60) فرنكا تدفع إجبارياً للذين تتراوح أعمارهم بين 18-60 سنة، وكان من مهامه أيضاً تسجيل الشباب المؤهل للخدمة العسكرية، ويمنح الأفراد جميع الوثائق التي يحتاجونها²، ويقوم بإحصائيات دقيقة للسكان الموجودين بتونس لكي يقدمها للسلطات الفرنسية³.

ولعل من أبرز الملاحظات حول هذا النظام، هو غياب التنافس من أجل الظفر والفوز برئاسة هذا المنصب، فلم تظهر عملية التحزب بين أفراد الجالية الميزابية بتونس، فنجد أنهم لم يكونوا يعارضون أي شخص تقترحه الإدارة الفرنسية، ولم يتدخلوا في المسألة أبداً، سوى في فترة أحد الأشخاص يدعى عمارة بالحاج عمارة عندما كشفوا النقاب عن ماضيه، وأنه من أصحاب السوابق حيث حوكم في مناسبات عدة بالجزائر، وسجن من أجل خيائته لمؤتمن، وامتلاكه بصفة غير شرعية لمعدات حربية، أما غير ذلك فلم يحدث أي صراع على المشيخة وكأنها لم تكن تعني الميزابين بصفة مباشرة⁴.

¹ - مختار هواري: المرجع السابق، ص8.

² - علي غنازية: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1888-1954م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف: عمر بن خروف، جامعة الجزائر، 2008/2009م، ص291.

³ - بوطيبي محمد: دور المثقفين الجزائريين في لحركة الوطنية التونسية ما بين 1900-1930، ط1، دار الهدى، عين مليلة، 2012م، ص50.

⁴ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص-ص(541-543).

فترة الحكم	اسم صاحب المشيخة	سبب التخلي
1896-1912	عبد الجليل بالحاج إبراهيم	الوفاة
1912-1920	الحاج علي بن عمر بكير	الوفاة
1920-1927	حمو بن محمد بن موسى	استقال
1927-1927	علي بن محمد بن حاج ابراهيم بوعروة	مرض
1927-1934	عمارة بن الناصر بن يوسف بن عمارة	استقال
1935-1946	بالحاج محمد بن الحاج بابا موسى	الوفاة
1947	أحمد بكير بن محمد بن حامد	

جدول يوضح أسماء اصحاب مشيخة الميزابية وفترة بقائهم على رأس المشيخة¹

هكذا كان التنظيم الإداري الذي يسير المهاجرين الميزابيين بتونس مع الإدارة الفرنسية، وكان هذا التنظيم بالنسبة للميزابيين تنظيم شكلي فقط من أجل تسيير أمورهم الإدارية، أما انتمائهم وتعلقهم الكبير كان مع هيئة العزابة العليا بقرى وادي ميزاب، فهي التي كانت تقوم بإصدار الأوامر والتعليمات اللازمة لكل الميزابيين في مختلف المناطق.

ب- الخصوصية المذهبية لمهاجري بني ميزاب ودورها في شبكة العلاقات المختلفة:

يتبع الميزابيون المذهب الإباضي كما هو معلوم، لهذا كانوا أقلية معتبرة من أصحاب هذا المذهب في تونس، وكان لهم تنظيمات اجتماعية ودينية معينة كانوا يتبعونها ويلتزمون بتعاليمها، وحتى في بلاد الهجرة كانت لهم خصوصيات في هذا الجانب يطبقونها ولا يخالفونها.

لهذا نجد أن الميزابيين بتونس كانوا يطالبون الإدارة الفرنسية بإحداث محاكم شرعية إباضية للنظر في شؤون أحوالهم الشخصية أو السماح لـ " الجماعة " بني ميزاب بتسوية الأوضاع الشرعية الخاصة بالميزابية، ومما كان يزيد من إصرارهم في هذا الجانب هو إنشاء محاكم خاصة للإباضية بالجزائر تتولى الإشراف عن الأحوال الشخصية الخاصة بميزابية الجزائر.

ونظرا لعدم تلبية طلبهم من طرف السلطات الفرنسية، فإنهم واصلوا ارتباطهم بالوطن الأم " وادي ميزاب "، والتعاون مع مؤسساته القضائية لحل القضايا المطروحة ببلد المهجر بعد عجز الجماعة المحلية المسؤولة عنهم بتونس عن حلها، لهذا ذكر الميزابيون المقيم العام بتونس سنة 1893م، بأن جماعة بني ميزاب هي التي تتولى حصر التركة وتوكل أحد الميزابية للتصرف في الميراث والحفاظة عليه والإشراف على تربية الصغار.

¹ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص-ص(538-539).

- jamal hagu: op, cit, p 67.

- A.N.T: S: A, C: 0001, DOC: 2/17.

وحاول الميزابية التذكير بأن قوانينهم المستمدة من " كتاب النيل"¹ لا تقبل دخول الأجانب، فالمتوكل على ميراث القصر، يجب أن يكون ميزابيا، ويمكن للفرنسي أن يحل محل الميزابي في حالة عدم وجود شخص ميزابي يتكفل بهذه المهمة، أما التونسي فهو يعد أجنبيا، ولا يمكن له الإشراف على تسيير شؤون القصر، لهذا نجد أنه عندما توفي شخص ميزابي يسمى أحمد بن علّال، وترك ابناً وبناتاً وأرملة تونسية (مالكية)، رفض الميزابية الوكيل التونسي الذي عينته المحكمة الفرنسية للإشراف على التركة، ورفضوا هذا الإجراء معتبرين أن هذا الرجل التونسي أجنبي، وعينوا مكانه شخص ميزابي.

ومن خلال هذه الحادثة يتبين لنا ظهور حالات تصاهر بين التونسيين والميزابيين، رغم محاولة الميزابيين الإنطواء على الذات وعدم إشراك أهالي البلاد في شؤونهم الخاصة باعتبار التونسيين أجانب، ولكن دائما ما كان الميزابيون يطالبون المقيم العام للنظر في القضايا الطارئة والتجاوزات الشاذة التي تحدث في بعض الأحيان من طرف أشخاص معينين، بوقفها والنظر فيها بجدية لكي تبقى العلاقة الطيبة التي تجمع بينهم وبين الأهالي التونسيين².

ونجد في هذا الجانب أيضاً وقوع بعض الخلافات المذهبية بين الأهالي والمهاجرين الميزابيين، فعلى سبيل المثال نجد قضية القدح في شهادة الإباضية، ولكن السلطات القائمة على مثل هذه الشؤون بتونس، عملت على الحد من هذه التجاوزات التي يمكنها أن تضر بالتواجد الميزابي، وردوا على هذه الإشاعات واتفقوا على تجويز شهادة الإباضية، وذلك على غرار منشور شرعي صدر مختوما من طرف الباي حسين، سنة 1120هـ، جاء فيه أن علماء تونس اتفقوا على تجويز شهادة الإباضية -بني ميزاب- في العموم والخصوص ولا سيما أهل الصلاح منهم.

ومما جاء في نص الرسالة أيضاً«... فالمقصود أن من قدح في شهادة الإباضي الميزابي لزمه الكفر على كل حال...، فالقدح في أعراضهم مما لا يجوز في الشريعة المحمدية والمعارض في شهادتهم قد ارتكب معصية شديدة ويؤمر بالإستتابه بسرعة فإن أبي قتل من ساعته»³.

ولكن كل هذه الخصومات سواء المذهبية أو الإدارية لم تأثر على جانب العلاقات المتنوعة التي كانت تربط الميزابية مع التونسيين، وكانت عبارة عن خلافات بسيطة الآثار.

¹ - " النيل"، إشارة إلى كتاب " النيل وشفاء العليل" من تأليف الفقيه عبد العزيز الثميني (1720-1808)، ويعتبر هذا الكتاب وهو في مجلدين عمدة المذهب الإباضي في العبادات والمعاملات، وهو الذي شرحه القطب اطفيش عليه رحمة الله. ينظر: صالح خري: من أعماق الصحراء، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1991م، ص54.

² - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص-ص(549-551).

³ - ناصر بالحاج بن باحمد: الصلات الثقافية بين إباضية الجزائر وتونس والإباضية بها في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م، ص6.

ف نجد أن الميزابيين كان لهم ملكية واسعة فيما يخص الحمامات بتونس، وكان التونسيون يجدون في هذه الحمامات الميزابية النظافة والنظام والأمانة، فأشدد الإقبال عليها لا سيما من الطبقات العليا ومن العائلات الشريفة التونسية، فكانت مزدهمة في أغلب الأحيان بالمستحمين، فكثرت بها اختلاط الميزابيين بالتونسيين وتم التعارف والصدافة بينهم، وصار الميزابيون في تلك العهود أحسن سفير للجزائر بتونس، يوثقون صلات الأخوة بين الجزائر وتونس، ويحبطون دسائس الاستعمار الفرنسي الذي يجتهد للتفريق بين شعوب المنطقة في مختلف الجوانب¹.

ج- المرأة الميزابية ودورها في ظروف المهاجر الميزابي:

تعتبر الهجرة الرجالية هي السمة الطاغية على نوعية المهاجرين الجزائريين إلى تونس، وكان عنصر النساء قليل جدا مقارنة مع الرجال حيث قدرت هجرتهم بعشر هجرة الرجال (10/1)². وذلك يرجع بالطبع إلى العرف الميزابي، وإلى خصوصيات المذهب الإباضي في التشديد حول مسألة سفر المرأة وخروجها خارج منطقة وادي ميزاب³، حيث أصدر جماعة بني يزقن اتفاقا في أبريل من سنة 1899م، ينص على: «لا يخرج أحد زوجته من أهل البلد إلى مدن التل مطلقا، كما هي عادتنا واتفاق أهل بلدنا الأولين منهم والآخرين، وإن كان أحد يريد أن يسافر بزوجه إلى بيت الله الحرام... ليس ذلك ممنوعا».

ثم في 28 مارس 1928م، أصدر مجلس وادي ميزاب ممثلا في قصوره السبعة قرارا ينص على: «... أننا لا نرضى على ميزابي أن يخرج زوجته أو بنته أو حرمه ميزابية مطلقا، أي يخرجها من ميزاب إلى بلدة من سائر البلدان مطلقا، غير إحدى القرى السبع المذكورة، فجعلنا ذلك حدا محدودا...»⁴، هكذا كانت مجالس الإباضية بوادي ميزاب متشددة في قضية سفر المرأة وخروجها خارج منطقة وادي ميزاب.

وتعود قراراتهم هذه حفاظا على الرابطة العاطفية بين المهاجر وموطنه بوادي ميزاب، وإلى الحفاظ على البنية الاجتماعية للفرد الميزابي وفق المنظور العربي للميزابيين والخصوصية المذهبية للإباضية، ولعل أبرز الاعتبارات التي كانت وراء هذا الأمر هي:

- بقاء المرأة في الوطن يجعل رب الأسرة مرتبطا عاطفيا بوطنه، فهو يعمل كل وسيلة للرجوع إليه متى سنحت الفرصة.

¹ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص167.

² - محمد بوطيبي: المرجع السابق، ص54.

³ - مختار هوارى: المرجع السابق، ص7.

⁴ - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص-ص (214-215).

- بقاء المرأة في الوطن يجعل أبناء الأسرة ينشؤون على المثاليات المعروفة عندهم ويحافظون على السلوك الذي اعتاده المجتمع هناك
- السماح للرجل باصطحاب زوجته وأطفاله إلى مقر عمله التجاري قد يكون سببا أن تروق لهم الحياة هناك، ويقل الشوق إلى الوطن، ثم يكون البقاء الدائم والابتعاد عن الوطن¹.

فلهذا نجد أن المهاجر الميزابي كان مرتبطا ماديا ومعنويا بمدينته الأصلية، وهذا ما جعل أيضاً هجرتهم تتسم بالصبغة العائلية، حيث إن المهاجر يعبد الطريق لأقاربه من الرجال للحاق به، وقد ساعد الموروث الاجتماعي والديني لبني ميزاب على التضامن والمرافقة للمهاجر الميزابي الوافد إلى تونس حيث يكون مرتبطا مع نظام العزابة، الذي يؤمن له الإقامة ويساعده على إيجاد منصب الشغل ومساعدته حتى يستقر على حال، وتمتاز هجرتهم بالفردية في البداية كما ذكرنا آنفا، ثم أصبحوا ينتقلون في مجموعة تتراوح ما بين (40) و (50) نفراً، ولقد كانت تستمر مدة الهجرة للفرد الميزابي قبل أن يعود إلى أرض الوطن من أجل زيارة أقاربه ما بين السنتين و الثلاثة سنوات²، وهذا ربما يساعد الميزابيين على ادّخار أكبر قدر من المال قبل عودتهم، وكذلك التقليل من نفقات السفر³.

ورغم هذا كانت هناك حالات استثنائية لبعض المهاجرين الذين كانوا مع أسرهم بتونس، مثل المهاجر أحمد بن علّال على سبيل المثال الذي تزوج من تونسية، وأيضاً الشيخ محمد بن صالح بن يحيى الشميني الذي كان مستقرا في تونس مع أفراد عائلته ومازال لحد الآن أحفاده بتونس⁴.

د- وضعية البعثات العلمية الميزابية بتونس:

قد سبق وأن تحدثنا عن البعثات العلمية الميزابية التي كانت السبابة نحو تونس، وأنها كانت سببا في بعثات علمية متوالية عليها.

ولكن تلك البعثات لم ترسل عبر طريق مفروشة بالورود، فلقد لاقى في بداياتها الأولى مجموعة من الصعوبات والظروف القاسية. فبعد أن تم غلق المدرسة الصديقية بتبسة وتوجهت أول بعثة علمية نحو تونس، تحت قيادة الشيخ أبي اليقظان، واستمرت تلك البعثة لمدة عشرة أشهر لتعود للديار بسبب الظروف الأمنية الغير

¹ - علي يحيى معمر: المرجع السابق، ص-ص (386-387).

² - ربما الفترة التي تستمر لمدة سنتين هي تخص فئة المهاجرين المتزوجين، لأنه يوجد في شروط الزواج بالنسبة للميزابيين، عدم غياب الزوج عن زوجته لمدة لا تتجاوز السنتين، وإلا فإن المرأة يكون لديها الحق في الطلاق.

³ - مختار هواري: المرجع السابق، ص 7.

⁴ - لقاء شفوي مع الشيخ صالح بن إبراهيم باجو، يوم 31 ديسمبر 2013م، على الساعة 10 صباحا، ببيته بالقرارة.

مستقرة بتونس جراء اندلاع الحرب العالمية الأولى، فعاد الشيخ أبي اليقظان الذي مكث في تونس لمدة سنتين، كانت عشرة أشهر منها في تسيير البعثة الميزابية هناك¹.

فاستقبلت هذه البعثة بحفاوة بالغة بمنطقة وادي ميزاب، ورحب بالشيخ أبي اليقظان ترحيب الأبطال نظرا للمجهودات التي قام بها من أجل تلاميذ البعثة، وقد رجع الشيخ أبي اليقظان وكله أمل في نشر التجربة الإصلاحية والنهضوية والعلمية التي أخذها من تونس، ومن جامع الزيتونة المعمور، ومن المدارس العصرية هناك، وبالفعل فقد أسس الشيخ أول مدرسة عصرية على نمط المدارس التونسية سنة 1915م، بدعم من رجال الإصلاح².

وتكونت في منطقة وادي ميزاب، وبالأخص منطقة القرارة، نخبة من طلبة العلم الذين تخرجوا من معهدي الشيخ الحاج عمر بن يحيى، والشيخ الحاج إبراهيم بن كاسي، الذين أحبوا السفر نحو تونس من أجل الاستزادة من معين العلوم التي تقدمها المدارس العصرية التونسية، والانخراط في حلقات العلم بجامع الزيتونة، فطلبوا من الشيخ أبي اليقظان الرجوع نحو تونس على رأس بعثة علمية، وبالفعل استشار الشيخ أبو اليقظان معلمه الشيخ عمر بن يحيى، وجملة من زعماء الإصلاح بمنقطة وادي ميزاب، وأشاروا عليه برئاسة البعثة العلمية والإشراف عنها.

وبعد أن أتم الشيخ أبو اليقظان المشاورات والاستعدادات انطلقت الكوكبة العلمية نحو تونس، وسافرت عبر الجمال من القرارة نحو مدينة تفرت، ثم ركبوا القطار من مدينة تفرت إلى غاية مدينة قسنطينة، ثم التوجه نحو تونس أيضاً عبر القطار، وكان وصولهم لتونس في سنة 1917م³.

كانت نواة هذه البعثة العلمية الثانية مكونة من سبعة أشخاص في بادئ الأمر وهم :

- الشيخ أبو اليقظان
- يوسف بن بكير العطفراوي
- أبو إسحاق إبراهيم اطفيش
- صالح بن يحيى
- صالح بن علي
- يحيى بن باحمد سليمان
- عمر بن الحاج محمد بوحجام
- الناصر بن صالح ملالي

¹ - محمد ناصر بوحجام: أبو اليقظان في الدوريات العربية، د.ط، المطبعة العربية، غرداية، 1985م، ص46.

² - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص574.

³ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، المصدر السابق، ص222.

- عبد الله بن إبراهيم أبو العلاء
- يوسف بن بكير حمو علي
- أحمد بن الحاج إبراهيم بن كاسي¹.

فكانت بداية البعثات العلمية الميزابية نحو تونس، ولكن الأمر الذي عكّر صفو هذه البعثات العلمية هي الحملة التي قامت ضد هؤلاء الشباب الذي يدعون لإصلاح التعليم والعديد من المجالات في الميدان الفكري والعلمي بمنطقة وادي ميزاب.

إذ أسفرت هذه المبادرة الجديدة التي لم يعتدها وادي ميزاب من قبل في مجال تكوين الأجيال الناشئة، والذين ساروا فيه دون أن يأخذوا الإذن والموافقة من المرجعيات الدينية والعلمية بوادي ميزاب، المتحكمة في مجريات الأمور، ولقد قاد هذه المعارضة مجموعة من الفقهاء والعزابة من تيار المحافظة والجمود والذين ساروا ضد تيار الإصلاح بمنطقة وادي ميزاب، وضد التوجه الجديد نحو الاستفادة من الحواضر العلمية المجاورة².

ولعل من أبرز الذرائع التي استندوا عليها في معارضتهم لهذه البعثات هي:

- صغر سن التلاميذ المتوجهين إلى تونس للتعليم، وابتعادهم عن أسرهم وعائلاتهم قبل استيفاء حظهم من التربية.
- مخالطتهم لبيئة مخالفة لبيئة وادي ميزاب في عوائدها وتقاليدها وأعرافها مما يؤثر عليهم سلبا، فيفسد طباعهم ويخرب أخلاقهم.
- تعلمهم علوما عصرية دنيوية غير شرعية، لا فائدة ترجى من ورائها، بل تحولهم ماديين وتزهدهم في دينهم.
- اتهام القائمين على البعثات العلمية بالانشغال عن مراقبة التلاميذ ورعايتهم بتكوين أنفسهم، وبشؤون السياسة والتجارة، وتلونهم بأفكار الأحزاب التي يناضلون فيها.

وتزامنت هذه الحملات مع مطلع العشرينيات، وبالذات بين سنتي 1920/1922م، أي بعد البعثة اليقظانية الثانية، مما جعل العديد من الآباء يستردون أبنائهم ويقطعونهم عن دراستهم استجابة للنداء المنبعث من المسجد ومن الهيئة العليا في ميزاب.

¹ - أحمد بن حمو كروم: العلامة الجليل يوسف بن بكير حمو علي (1887-1984)، نشر جمعية الأمل للتربية والثقافة، غرداية، 1995م، ص14.

² - للتوسع أكثر حول العوائق والصعوبات التي واجهت البعثات العلمية الميزابية لتونس، ينظر: مصطفى بن الحاج بكير حمودة: "البعثة العلمية بتونس: أهداف وعوائق"، مجلة الحياة، ع: 17، أوت 2013م، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية.

تأثر تلاميذ البعثة العلمية بتونس بهذه الإساءات التي كانت تصدر في حقهم، وذهلوا لما كان يروج عنهم هناك في منطقة وادي ميزاب، وحاولوا مسك أعصابهم وعدم الاندفاع وراء ردود الفعل والإشاعات المروجة عنهم¹، فكان أول رد من طرف مسؤولي البعثة، والمسؤول الأول عن البعثات العلمية الميزابية الشيخ أبي اليقظان، من خلال مقال منشور بجريدة الإقدام الجزائرية للأمير خالد، ثم توالى العديد من المقالات الأخرى كما يقول الشيخ أبي اليقظان بنفسه حول هذا الأمر: «وكان جوابنا أن فتحنا عليهم حملة عشواء في الجرائد التونسية: الاتحاد، لسان الشعب، الأمة...»²، ودافع الشيخ أبو إسحاق اطفيش أيضاً عن البعثة العلمية الذي كان أحد مسؤوليها بتونس، وحارب آفة الجمود وغيرها من آفات الجهل والانغلاق، ولم يعتبر الصراع صراعاً بين فئتين وإنما هو صراع بين العلم والجهل، والحق والباطل، والثبات والتطور.

فكان لهذا الصراع دور كبير في إكمال الشيخ اطفيش مع البعثة وإصراره على إبقائها، ومدها بالمعونة المادية والمعنوية والروحية، وقاوم حركة الجمود التي كانت ضدهم، لأنه رأى فيها معوقاً من معوقات النهضة واعتبرها مثلها مثل الاستعمار والاستشراق والتبشير³، وقامت حركة المعارضة بإصدار كتابين، كان فيهما هجوم لاذع ضد المسؤولين عن البعثات العلمية، والكتابان هما:

1- إمطة اللثام على بعض اللثام: صالح لعللي

2- البراهين القاصفة لمتتبعي الفلاسفة: صالح لعللي

بعد إصدار هذين الكتابين اللذين احتويا نقدا لاذعاً وهجوماً صارخاً على الشباب، ناعتا إياهم بأنكر الأوصاف، قام الشيخان أبو اليقظان وأبو إسحاق اطفيش بإصدار كتاب لكل منهما، يردان فيه وبمنهج محترم وبأسلوب علمي حول ما جاء في تلك الكتب السابقة وصد الاتهامات الموجهة لهم ولطلبة البعثة.

والكتابان هما:

1- إرشاد الحائرين: للشيخ أبي اليقظان

2- الدعاية إلى سبيل المؤمنين: للشيخ أبي إسحاق اطفيش

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص-ص(589-592).

² - أبي اليقظان إبراهيم عيسى: تاريخ صحف أبي اليقظان، المصدر السابق، ص13.

³ - محمد ناصر: الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م، ص-ص(85-86).

بعد هذه المعارك الطاحنة عبر صفحات الجرائد والكتب، والمساحلات التي وقعت طوال سنتين، انتهى الصراع بتفوق أصحاب الفكر الإصلاحية، ونجحوا في مشروعهم العلمي، وسارع الأولياء بعد ذلك في إرسال أبنائهم إلى تونس من أجل الانضمام في نظام البعثات العلمية¹.

حرص الشيخ أبو اليقظان في تونس وكل المشرفين على البعثة هناك، على السير الحسن لنظام البعثة، ووسطروا برنامجا خاصا يسير عليه التلاميذ داخل دار البعثة وخارجها، واهتم الشيخ أبو اليقظان بالتربية الإسلامية لتلاميذ البعثة، فكان يقيم لهم الدروس القوية العميقة والمستمرة في الفقه الإسلامي، وكان يذكّرهم بتلك الدروس في كل فرصة يجدها مناسبة، وقد ملأ تلاميذه بإحائه القوي وبدرسه الدينية الدائمة، وأحاديثه الممتعة المفيدة، ملأهم بهذا بالدين وبالخلق الإسلامي، فغرس في نفوسهم كل الفضائل والخصال الحسنة والطيبة²، وكان رحمه الله مع لطفه وحنانه للتلاميذ، حازما وشديدا يقيظ في مراقبة سلوكهم، لأنه كان مسؤولا عن تربيتهم الخلقية ودينهم فإذا رأى في تلميذ ما لا يليق يؤنبه ويحاول إقناعه، يستبقيه مع بعض زملائه إذا خرج التلميذ إلى الزهة في الجمعة، فيؤنبه وإذا لم يجد فيه الدين يجلده ويحرمه من الخروج إلى الزهة، ولكن الجلد لا يقع إلا قليلا، ولقد كان التلميذ يحبون شيخهم ورئيسهم أبا اليقظان³.

واختار الشيخ أبا اليقظان فيما يخص البعثة العلمية الأولى المدرسة العربية العصرية التي كان يديرها الشيخ محمد صفر وهو خريج جامع الزيتونة، وكانت هذه المدرسة تعنى بتعليم اللغة العربية وعلومها وتحفيظها القرآن الكريم والحديث الشريف وتدريس العلوم العصرية واللغة الفرنسية، واستمر تلاميذ البعثة في هذه المدرسة حوالي ثلاثة أشهر، وفي هذه المدرسة يذكر الشيخ إبراهيم بن بابا بوعروة أنه قرأ كتاب " قطر الندى وبل الصدى " مع شرحه على الأستاذ الشيخ عبد العزيز الباوندي، المدرس الرسمي للزيتونة، و اللغة الفرنسية على الأستاذين علي الرياحي، وصالح رضا الأحمر⁴، لينتقلوا بعدها إلى مدرسة السلام⁵ التي تأسست حديثا، والتي كان يديرها الشيخ الشاذلي المورالي.

وضع الشيخ أبو اليقظان كل ثقته في الشيخ الشاذلي المورالي من أجل تعليم الفتية، مما جعل الشيخ أبي اليقظان يدعمه معنويا وماديا حيث تكفل بدفع إيجار مبنى المدرسة⁶، وبالإضافة إلى ما كان يدرّس للتلاميذ في

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 594.

² - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح بالجزائر، ج 3، المصدر السابق، ص 156.

³ - نفسه، ص 177.

⁴ - هو بن عمر فخار: إبراهيم بن بابا بوعروة حياته وآثاره، تق: مصطفى صالح باجو، د.ط، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، 2003م، ص 44.

⁵ - بالإضافة إلى هذه المدارس العصرية التونسية، فلقد انخرط الطلبة الميزابيون أيضا في المدرسة الصادقية وأيضاً المدرسة الخلدونية وهما مدرستان عصريتان ذو شهرة واسعة في تونس.

⁶ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 573.

المدارس الأهلية التونسية، فإن دروسا وحصصا إضافية كانوا يتلقونها في دار البعثة، ففي مادة القرآن كان يتولى التدريس في بداية العشرينات الشيخ الفقيه علي بن يعقوب النفوسي، وفي الحديث كانوا يتلقون الأربعين النووية للإمام النووي، وفي العقيدة متن التوحيد الذي عربه أبو حفص عمر بن جميع من اللغة الأمازيغية للعربية، ويتولى ذلك رئيس البعثة الشيخ أبو إسحاق اطفيش، كما يتناولون بالحفظ المتون الأجرومية وألفية بن مالك في النحو وأرجوزة الرحبية في علم الميراث¹.

أما عن النظام داخل دار البعثة فلقد سطر الشيخ أبي اليقظان للتلاميذ برنامجا مكثفا بالأنشطة ومحكما في الأوقات وحازما في التربية، وكان هدفه من كل هذا هو الجمع بين التربية والتعليم وبناء الشخصية، والقيام بجميع الأشغال المنزلية والترفيه والرياضة²، فكانت دار البعثة عبارة عن خلية نحل عندما يكون الطلبة موجودون بها، فكان كل طالب أو مجموعة من الطلبة مكلفين بعمل معين³، وتكون قائمة الأسماء ونوع المهام قد حددت من طرف مسؤولي البعثة، وتلصق في مكان معين من دار البعثة، فهناك من يتكفلون بالطبخ، وهناك من يهتمون بالغسيل، وآخرون مكلفون بشراء لوازم الطبخ من خضر وغيرها، هكذا كانت توزع المهام بين الجميع من دون استثناء، في جو عائلي يسوده الود والأخوة، ويتعلم من خلالها الطلبة كل الأشغال المنزلية التي تنفعهم في مستقبلهم⁴.

أما عن الوضعية المالية للطلبة الميزابيين فقد تنوعت حالاتهم المادية حسب ثراء أو فقر كل عائلة من عائلات الطلبة، ونجد أن العشيرة كانت تتكفل بالطلبة الذين لم يكن لديهم أموال تكفيهم من أجل الذهاب إلى تونس والدراسة هناك، ونجد أيضاً بعض الأثرياء من التجار الميزابيين كانوا يتكفلون بمجموعة من الطلبة⁵.

فنجد على سبيل المثال السيد يحيى بن حمو الواهج⁶، الذي كان تاجرا في تونس، تحمل العديد من النفقات في مجال البعثات العلمية، وتكفل بنفقات الكثير من الطلبة الميزابيين أيام الأزمة الاقتصادية وانقطاع المدد عليهم، وكان رحمه الله على اتصال دائم مع أهالي الطلبة الميزابيين¹ في أوطانهم².

¹ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 136.

² - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص(572-573).

³ - خلال زيارة للجزائر العاصمة في 2014/10/15، كانت لي زيارة لإقامة طلابية للميزابيين، تسمى " إقامة الثانويين"، وهي إقامة خاصة بطلاب المرحلة الثانوية للطلبة الميزابيين المتواجدين بالعاصمة، وهي داخلية، تسع ما يقارب 20 طالبا، وبها نظام محكم وحازم، ويسيرها قيم على الإقامة يهتم بجميع شؤون الطلبة، وكل الطلبة لديهم مهام معينة يكلفون بها من أجل السير الحسن لنظام الإقامة، وهي مقتبسة من نظام دار البعثات العلمية للميزابيين بتونس.

⁴ - لقاء شفوي مع الشيخ يحيى أبي اليقظان، يوم 31 ديسمبر 2013م، ببيت الشيخ صالح باجو، بالقرارة.

⁵ - لقاء مع الشيخ صالح باجو، المصدر السابق.

⁶ - يحيى بن حمو الواهج: (ولد: 1900/ توفي: 1995)، من أعلام مدينة بريان البارزين، عرف بالسخاء والانضباط وروح المبادرة، اشتغل بالتجارة في تونس فكان الأب السخي للبعثة الميزابية، وقد تكفل بنفقات الكثير منهم أيام الأزمة الاقتصادية وانقطاع المدد، عمل مع أعضاء الحكومة المؤقتة بتونس

ففي رسالة قام بإرسالها الشيخ عبد الرحمن بن عمر بكلي إلى الشيخ العساكر الحاج حم، يخبره فيها عن تحمل الأعباء المالية لبعض الطلبة الميزابيين، والوقوف معهم مهما كلف الأمر، ويخص بالذكر فيها أيضاً الشيخ يحي بن حمو الواهج في مساعدته للطلبة إذا احتاجوا إلى أي شيء، ومما جاء في الرسالة«...»، وبالفعل بحثنا المسألة على ضوء الحالة في القرارة وسير التعليم فيها فتقرر بعد دراسة ساعات مايلي:

1 أفراد البعثة كلهم يجب أن يستمروا في التعليم إلى أن يثمروا ولو أدى ذلك إلى أن يستجدي لهم استجداء، إذ من المحال أن نجد أفراداً من أبنائنا تتوفر فيهم شروط الاستعداد مثلما توفرت في هؤلاء

2 أن يستقروا³ أولاً في المحل الذي يسكنه بالحاج بن عدون في العلي ريثما يوجد لهم الأخ الواهج محلاً أليق.

3 أن يتولى الإشراف العام عليهم الأخ الواهج ويعينهم سيما إذا احتاجوا أمراً...⁴.

ونظراً للحالة الاقتصادية التي كان يعيشها الطلبة، فلقد كان هناك كراس خاصة لجميع المصاريف التي ينفقها الطلبة، أو المصاريف التي تدخل لهم، وكانوا يسجلون في هذا الكراس، كل صغيرة وكبيرة، وبشكل دقيق.

وسوف نأخذ عينة من هذه الكرائيس لكي نبين بصورة عامة، أهم المصاريف و المداخيل التي كانت بين طلبة البعثة، وصاحب الكراس هو الطالب: يوسف بن إبراهيم اطفيش، التحق بالبعثة - حسب كراسه - في 01 جمادى الثانية 1360هـ، الموافق لـ 05 جويلية 1941، وآخر تاريخ ورد في الكراس لمجموع التكاليف هو 195/08/07⁵.

منذ سنة 1955م، وكان مكلفاً بتبليغ المصالح والملفات، ونقل الرسائل بين الحكومة المؤقتة بتونس والولايات الجزائرية المختلفة. ينظر: جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص960.

¹ - رسالة مرسلة إلى الشيخ يحي بن حمو الواهج من بلدة القرارة، يوم 23 جانفي 1957م. سلمت لنا من طرف يوسف الواهج، ابن الشيخ يحي الواهج.

² - جمعية التراث: المرجع السابق، ج4، ص960. لقاء شقوي مع الشيخ صالح باجو، المصدر السابق.

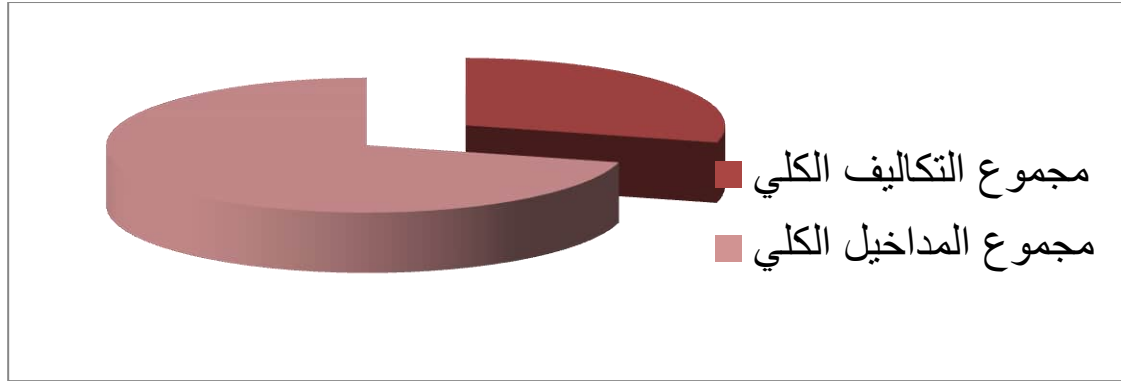
³ - ويقصد هنا ثلاثة طلبة جدد سوف ينتقلون إلى تونس للانضمام إلى صفوف البعثة العلمية الميزابية بتونس، وهم: ابن زايد يوسف، الأطرش إبراهيم، ومحمد العساكر، وهذا الأخير سوف يصبح رئيس البعثة العلمية هناك بتونس.

⁴ - عبد الرحمن بن عمر بكلي: **جمهرة رسائل البكري**، نشر مكتبة البكري، المطبعة العربية، غرداية، 2007م، ص-ص(178-179).

⁵ - كل الإحصائيات التي تخص كراس الطالب يوسف بن إبراهيم اطفيش مأخوذة من دراسة الدكتور عبد العزيز خوجة حول كرائيس الطلبة الميزابيين بتونس.

503599.28	مجموع التكاليف الكلي
1227141.05	مجموع المداخل الكلي
723541.77	الفرق بين المداخل الكلية والتكاليف الكلية

جدول يبين المداخل والتكاليف الكلية

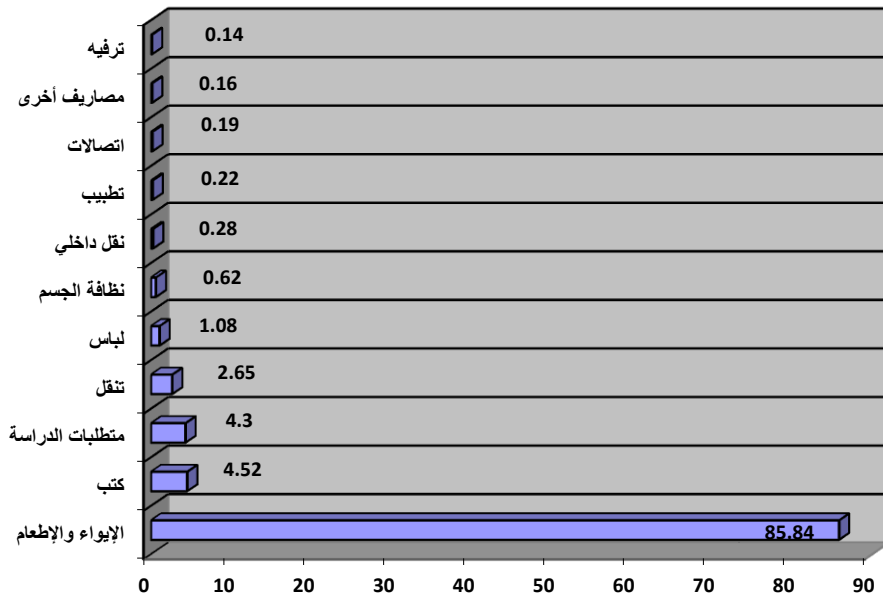


مخطط يوضح المداخل والتكاليف الكلية

ويمكن أن نوضح أكثر مجموع التكاليف لكل نشاط معين في الجدول والمخطط التالي:

الترتيب	الفئة	محتواها	التكلفة	النسبة
1.	الإيواء والإطعام	الأكل، السكن، إصلاح الأثاث...	432105.9	85.84%
2.	كتب	أسماء الكتاب	22751.1	4.52%
3.	متطلبات الدراسة	كراريس، أقلام، اشتراكات...	21662.75	4.30%
4.	تنقل	انتقال إلى الجزائر	13315.5	2.65%
5.	لباس	مختلف الألبسة والأحذية وإصلاحها	5430.25	1.08%
6.	نظافة الجسم	حلاقة، حمامة	3131.25	0.62%
7.	نقل داخلي	نقل أمتعة من جهة إلى أخرى	1427	0.28%
8.	تطبيب	علاجات مختلفة	1096.56	0.22%
9.	اتصالات	طوابع، رسائل، هاتف، تلغراف...	969	0.19%
10.	مصاريف أخرى	تبرعات، بيده...	820	0.16%
11.	ترفيه	سياحة، معارض...	690	0.14%
	المجموع		503399.3	100.00%

جدول يبين نوعية التكاليف ونسبها



مخطط يوضح نوعية التكاليف ونسبتها¹

هكذا كانت وضعية المهاجرين الميزابيين بتونس، سواءً منهم الطبقة العاملة في مختلف المهن والحرف، أو فئة الطلبة الذين كانوا يزاولون التعليم في المعاهد العلمية التونسية وفي جامع الزيتونة، ومدى ارتباط المهاجرين الميزابيين بالوطن الأم ميزاب، وعلاقتهم المتينة مع بعضهم البعض في بلاد المهجر، وابتعادهم عن كل ما يسئ إلى فئتهم هناك، سواءً في الجانب الإداري أو في الجانب الاقتصادي وغيرها من الجوانب، بل كانوا يسعون دائماً للحفاظ على مكانتهم المرموقة في الوسط الاجتماعي التونسي.

3- الأنشطة والأعمال التي مارسها المهاجرون في تونس.

مع استقرار الميزابيين في تونس كان على المهاجر أن يباشر في العمل الذي جاء من أجله، وإن لم يكن لديه عمل فإن الجالية الميزابية والمسؤولين عنهم يضمّنون للعديد من المهاجرين فرص للعمل والنشاط، ونجد أن المهاجرين الميزابيين في تونس كانوا مهيمنين وبقوة على قطاع الحمامات في تونس، كما كانت لهم نشاطات تجارية في بعض المواد الأخرى.

¹ - عبد العزيز خواجه: قراءة في كرايس مصاريف البعثة الميزابية إلى تونس، بحث غير منشور.

أ - أهم الأنشطة والأعمال الممارسة من طرف الميزابيين في تونس:

وإننا نجد أن سيطرة الميزابيين على قطاع الحمامات في تونس لم يكن وليد الصدفة أو عن طريق امتيازات خاصة قدمت لهم هناك، فلقد للميزابيين دراية وخبرة في هذا الميدان منذ الوجود العثماني بالجزائر.

فقد قدمت السلطات العثمانية للميزابية امتيازات خاصة لهم بمدينة الجزائر، وذلك راجع للموقف البطولي الذي قاموا به في دحر الحملات الإسبانية على السواحل الجزائرية والتونسية، فنجد أن لهم صلاحيات وامتيازات اقتصادية في مدينة الجزائر، لا ينازعهم فيها أحد¹، ونظم الأتراك في مدينة الجزائر خمس نقابات من البرانيين، هي نقابات الميزابيين والأغواطين والبسكريين وقبائل مزيتا والزنج، ووضعت على رأس كل واحدة منها أمينا، مسؤولا عن الأمن والنظام داخل نقابته، يمثلها لدى السلطة الحاكمة، ومنحت السلطات العثمانية لبني ميزاب احتكار المجازر ومطاحن القمح التي بلغ عددها في القرن الثامن عشر خمسا وعشرين، وكذا المخازن والحمامات، مقابل إمداد الإنكشاريين بما يحتاجونه من اللحوم مجانا، وإعارة دوابهم للخدمات البلدية².

ولكن مع الاحتلال الفرنسي للجزائر ساءت وضعية كل القطاعات وخاصة منها القطاع الاقتصادي الذي احتكره الفرنسيون والمستوطنون الأوروبيون الذين جاؤوا رفقة الحملة الفرنسية للجزائر، فاستولوا على كل المرافق الاقتصادية بها، وبهذا أضطر الجزائريون للبحث عن لقمة العيش في البلدان المجاورة.

وهو ما حدث للميزابيين أيضاً الذين كانوا بمدينة الجزائر، يسيطرون على العديد من القطاعات وخاصة قطاع الحمامات، ففكروا جديا بالهجرة نحو المناطق القريبة، فكانت تونس الوجهة القريبة منهم، وتفيد المعلومات التي أدلى بها الميزابية للسلطات الفرنسية عند مغادرتهم لمدن الجزائر في اتجاه مدينة تونس من سنة 1830-1864م، أن نسبة كبيرة من الميزابية كانت تنتمي إلى قطاع الحمامات.

وهذه الهجرة هي التي فتحت الأبواب على كل الميزابيين الآخرين من مختلف المناطق الجزائرية للحاق بأهاليهم وذويهم وأصدقائهم، والجدول الموالي يوضح بشكل كبير نوعية عمل المهاجرين الذين تنقلوا لتونس بطريقة قانونية وتحصلوا على جواز السفر من السلطات الفرنسية.

¹ - محمد وقاد: المرجع السابق، ص-ص(50-51).

² - يوسف بن بكير الحاج سعيد: المرجع السابق، ص69.

الفصل الثالث:..... المهاجرون الميزابيون بتونس أوضاعهم وإسهاماتهم في الحياة التونسية.

الإسم	السن	مكان الولادة	مكان الإقامة	المهنة	تاريخ الإصدار	الملاحظات المكتوبة على جواز السفر
سليمان بن علي	32	بني ميزاب	مدينة الجزائر	تاجر	1845/05/05 مدينة الجزائر	رعية فرنسية له الحق في حماية فرنسا
محمد بن مسعود	35	بني ميزاب	قسنطينة	-	1845/05/12 عناية	يحافظ على مقر إقامته بالجزائر
إبراهيم باكير	20	بني ميزاب	بني ميزاب	عامل بحمام	1845/05/13 عناية	يحافظ على مقر إقامته بالجزائر
الحاج عيسى بن محمد	35	بني ميزاب	مدينة الجزائر	لا حرفة له	1845/06/14	يحافظ على مقر إقامته بالجزائر
إبراهيم بن عيسى	40	بني ميزاب	عناية	عامل بحمام	1847/08/28 عناية	حرم من الحماية لأنه دفع المجى
سليمان بن يوسف	40	بني ميزاب	عناية	حمامجي	1848/11/05	مصحوبا بإخوته الثلاثة
بكير بن أحمد	32	بني ميزاب	عناية	تاجر	1849/07/15	يسافر بنية العودة
محمد بن ميلود	35	بني ميزاب	عناية	حمامجي	1849/02/12	يسافر بنية العودة
عمر بن باكير	24	بريان - بني ميزاب	بريان	تاجر	1849	يسافر بنية العودة
عمر بن إبراهيم	24	بني ميزاب	بني ميزاب	حمامجي	1849/04/11	مصحوبا بأخيه أحمد يسافر بصفة نهائية
عمر بن باكير	55	بني ميزاب	قسنطينة	عامل يومي	1849/05/12 عناية	مصحوبا بابنه يسافر بنية العودة
باكير بن عيسى	18	القرارة	قسنطينة	حمامجي	1849/05/27	يسافر بصفة نهائية
باكير بن علي	35	القرارة	قسنطينة	حمامجي	-	يسافر بصفة نهائية
اسماعيل بن الحاج	20	القرارة	عناية	حمامجي	1850/12/13 عناية	يسافر بصفة نهائية
الحاج قاسم بن محمد	44	القرارة	عناية	حمامجي	1850/05/13 عناية	يسافر بنية العودة

جدول يوضح المهاجرين المرخص لهم بالسفر إلى تونس ونوع المهنة الخاصة بهم¹

يتبين لنا من خلال هذا الجدول حالة المهاجرين الميزابيين الذين هاجروا مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، ويظهر الجدول أن أغلبهم كانوا من فئة العمال في قطاع الحمامات، وهو ما سوف يؤثر على طبيعة عملهم في تونس أيضاً، واحتلالهم لهذا القطاع بامتياز هناك.

¹ - عبد الكريم الماجري: المرجع السابق، ص-ص(345-348).

وكان معظم الميزابيين الذين هاجروا إلى تونس من الفقراء الذين يسعون إلى تأمين لقمة العيش، خاصة في الحجرات الأولى من القرن التاسع عشر، ومع مرور الوقت تمكنوا من فرض مكانتهم بمدينة تونس مستفيدين من مرافقة الجماعة الميزابية لهم، ومحافظتهم على النسق الاجتماعي الخاص بهم¹، ولكن نستثني من هؤلاء من تواجدوا بتونس قبل هذه الفترة، مثل الشخص الميزابي الذي يدعى باكير وهو الذي كان المشرف على حمام علي باشا باي 1742/1743م، وأيضاً تفيد روايات أحد الرحالة الأوربيين، أن شخصا من التجار الميزابيين تمكن من اقتناء حمام بتونس سنة 1816م، بعد أن انتقل وعمره عشرة سنوات بين المدن الجزائرية واشتغل بحماماتها، وقد تمكن هذا التاجر بفضل حسن تصرفه من الارتقاء إلى فئة المالكين، إلا أنه فرط في هذا الحمام سنة 1847م.

واستمر الميزابيون في امتلاك الحمامات التونسية، أو التصرف بها كمستغلين للحمامات العامة أو الخاصة، أو كعمال يعملون في هذه الحمامات، واشتهروا في تونس كثيرا بهذه المهنة.

اسم الحمام	الوضع العقاري	المتصرفون 1896	المتصرفون 1909	المتصرفون 1912	المتصرفون 1920
حمام الجزيري	ملك خاص	-	الحاج بكير بن سليمان	ابراهيم من عبد الجليل بن ابراهيم	
حمام الحلفاوين	وقف جامع صاحب الطابع	باكير بن صالح المزابي	باكير بن صالح	محمد بن عمارة	باكير بن صالح المزابي
حمام الديوان	وقف جامع محمد باي	صالح بن عومر بن سعود القراري	إبراهيم بن علي	عيسى بن إبراهيم بن علي بن حمو	-
حمام القعادين	وقف النفاثة	إبراهيم بن إبراهيم المزابي	إبراهيم بن الناصر	الحاج محمد بن سالم	-
حمام المر (نساء)	ملك خاص	محمد بن عيسى بن علي	-	عبد القادر بن باكير	
حمام المطهرة (سوق البلاط)	ملك خاص	حمد بن فرج المزابي	-	حمد بن فرج المزابي	-

جدول يوضح تناوب الميزابية على استغلال الحمامات بمدينة تونس من سنة 1896 الى 1920م²

من خلال الجدول يتبين أن الميزابيين كانوا يتناوبون على استغلال الحمامات الموجودة بتونس بين بعضهم البعض، والجدول يمس نماذج فقط من الحمامات المستغلة من طرف الميزابيين في تونس، لأن الحمامات المستغلة كانت كثيرة ومتفرقة بين الأحياء والضواحي المختلفة لمدينة تونس.

¹ - مختار هواوي: المرجع السابق، ص8.

² - عبد الكريم المجري: المرجع السابق، ص-ص(553-556)، هناك بعض الأسماء المستغلة للحمامات من غير الميزابيين لم تذكر، واعتمدنا على المستغلين الميزابيين فقط.

وبهذا تعرف الميزابيون في تونس على عصب هام من الحياة اليومية للشعب التونسي الذي يعتمد في نظافته اليومية على الحمامات الساخنة العمومية، حيث كان يسارع إليها في كل يوم زرافات من الرجال في أوقاتهم وجماعات من النساء في أوقاتهن، وكانت الحمامات الكبيرة والشهيرة المقصودة في تونس أغلبها لهؤلاء الميزابيين، الذين كانوا يقومون بها أحسن قيام، وكان داخلها قصراً فخماً مليئاً بالنقوش البديعة، والرخام المزركش الجميل، يسطع في أنحائه البخور الميزابي، وتميزت هذه الحمامات أيضاً لكونها مجالس للمستحمين يجدون فيها القهوة والشاي، فيطول مجلسهم هناك، فكانت مزدحمة بكل فئات الشعب التونسي، بدءاً من الطبقات العليا ومن العائلات الشريفة، والعائلات العامة فكون الميزابيون هناك رابطة صداقة كبيرة مع التونسيين وأصبحوا عنصراً هاماً في المجتمع التونسي¹.

وامتهن الميزابيون أيضاً مهناً أخرى متعددة ولعل أبرزها كان في مجال التجارة، وخاصة في الاستثمارات التي يكون بها الكسب مريحاً مثل مهنة القصابة (الجزارة)، وبيع مادة الفحم، وتذكر بعض المصادر الميزابية أن ميزابياً كان يشغل منصب كاهية لباب السويقة، اشتغل ببيع الزيت والمواد الغذائية وكانت له القدرة على تخزين قناطير منها، وتشاركه في ذلك مؤسسات فرنسية متخصصة ببيع الزيت والمواد الغذائية².

ونجد أن بعض القوانين التونسية أيضاً قد ساهمت في النشاط الاقتصادي للمهاجرين الجزائريين، فنلاحظ القانون الصادر عن الإيالة التونسية سنة 1857م، ودستور سنة 1861م، اللذان فتحا المجال لامتلاك العقارات للمسلمين المستقرين بالبلاد التونسية، وبذلك تمكن المهاجرون من امتلاك الدكاكين، والحمامات والمقاهي والأراضي الفلاحية الواسعة، فاستثمروا أموالهم وتوسع نشاطهم الاقتصادي.

وهناك فئة من الميزابيين أيضاً تميز نشاطها بتجارة متنوعة بالمدن والمناطق الحدودية المشتركة بين البلدين انطلاقاً من الحدود الشمالية على البحر إلى المناطق الحدودية جنوب تبسة، وتنوعت مواد هذه التجارة من: السكر، الشاي، والحبوب والأملح، والجلود، الدهون، وغيرها، وكانت هذه المناطق تمثل شريان النشاط الحيوي للتجارة والعمل، وكان التجار يتنقلون إلى داخل البلاد التونسية محملين بأنواع السلع ويبيعونها بالأراضي التونسية، ويشترون أو يتقايضون بالبضائع ثم يعودون إلى مناطقهم الأصلية بالجزائر³.

أما في المجال النقابي للعمال فلم يكن يجذب الميزابيين العمل النقابي، على غرار بقية المهاجرين الجزائريين الآخرين الذين نجدهم قد انخرطوا في النقابات العمالية المختلفة، مثل المهاجرين السوافة على سبيل المثال الذين تزعموا بعض النقابات العمالية، مثل نقابة العمال في أم العرائس التي تزعمها عبد الحميد بن الأخضر منذ سنة

¹ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص167.

² - مختار هوارى: المرجع السابق، ص9.

³ - أحمد بن جابو: المرجع السابق، ص-ص(209-210).

1936م¹، ولكن عدم انضمام المهاجرين الميزابيين إلى هذه النقابات لا يدل على قلة الوعي النقابي لديهم، بل يرجع إلى طبيعة العامل الميزابي الذي يعمل في شبه مؤسسة عائلية تضم مجموعته من الميزابية وبالتالي فحقوقه مضمونة من الجماعة في تونس ومن مجلس العزابة الأعلى بميزاب².

هكذا كانت أهم القطاعات التي استحوذ عليها الميزابيون في المجال الاقتصادي، حيث برزوا في قطاع الحمامات وفي بعض المهن التجارية كالأقمشة والفحم.

ب - نشاطات البعثات العلمية بتونس:

لم تكن البعثات العلمية مرتكزة على الجانب العلمي الذي كان هدفها الأساسي فقط، إنما كانت دار البعثة العلمية عبارة عن مؤسسة ثقافية وعلمية متنوعة، تعددت نشاطاتها ومهامها طوال فترة وجود الطلبة بتونس، فمارست العديد من النشاطات والاحتفالات التي كان يسودها الطابع العلمي والثقافي والتربوي بشكل أساسي، فكان لهم دور هام في الحياة الثقافية التونسية في تلك الفترة.

ب-1- استقبال البعثات العلمية للشخصيات والزعامات الوطنية والإسلامية:

كان من أنشطة البعثة التي أولى لها المسؤولون العناية الكبيرة، هي عقد لقاءات وجلسات مع الشخصيات العلمية والسياسية الموجودة بتونس، وأيضاً الشخصيات الجزائرية التي كانت تقصد تونس بين الحين والآخر، حيث كان القائمون يسارعون إلى ضيافتها في مقر البعثة لاطلاعها على أنشطتهم، وتقديمها كلمات توجيهية لأبنائهم الشباب.

ومن أبرز الشخصيات العلمية أو السياسية التي زارت البعثة نجد:

زيارة عبد الحميد بن باديس: ويروي أحد الطلبة الميزابيين هذا الحدث الهام فيقول: «... حل بتونس علم من أعلام الجزائر يقع استدعاؤه من طرف رؤساء البعثة إلى إحدى دارهما، ولما كانت دار بعثة الشيخ باعلي الحاج صالح فسيحة ويتوسطها صحن³ وهي ملاصقة لدار أبي اليقظان رحمه الله، وقع فيها استضافة الشيخ باديس بمناسبة زيارته لتونس ليطلع على أبناء وطنه في غربتهم ومهاجرين إلى تونس لتلقي العلوم العصرية باللغتين العربية والفرنسية...، وكان ذلك في صيف 1921م، وكنت ممن شارك في إعداد تلك الحفلة، وكان عمري إذ ذاك ثلاثة

¹ - عثمان زغب: الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في منطقة وادي سوف 1918-1947م وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة باتنة، إشراف: يوسف منصارية، 2005/2006م، ص 205.

² - مختار هوارى: المرجع السابق، ص 10.

³ - تقع بنهج المدرسة السليمانية، ولقد كانت هذه الدار تستقبل أعلام الجزائر وأولياء التلاميذ الذين يزورون تونس.

عشرة عاما...، وكان ذلك بمحضر الساد باعلي الحاج صالح، الشيخ يوسف بن بكير، الشيخ الشميني محمد، الشيخ أبي اليقظان، الشيخ أبي إسحاق اطفيش، الشيخ الحاج محمد بابانو، الشيخ أحمد بن عيسى قزريط...¹.

ابتهج الشيخ عبد الحميد بن باديس بهذه الفئة الطلابية التي تحملت عناء الغربة والسفر، طلبا للعلم وأشاد كثيرا بدور الميزابيين في الحياة العلمية والثقافية، ودعاهم للتمسك بهذا الأمر، لأنهم أمل الجزائر ومستقبله الزاهر، وفي هذا كتب الشيخ عبد الحميد بن باديس مقالا تحت عنوان " نخبة جزائرية بالحاضرة التونسية " بجريدة النجاح الجزائرية ومما جاء فيه: «... حلت تونس فاستدعتني جماعتهم للحضور عندهم في دارهم ليلا، فلما فرغنا من العشاء خرجت إلى صحن الدار شبيبته المتعلمة بالمدارس التونسية على الأسلوب الحديث الذي يجمع بين العلوم الدينية والدنيوية واللغة العربية والفرنسية مع حفظ القرآن الكريم، فاصطفوا بنظام، وشنفوا أسماع الحاضرين بالأناشيد الوطنية والمدرسية وتحاوروا بالمناظرات السيفية القلمية، كل ذلك باللهجة الفصيحة والألسن الذلاقة والجأش الثابت فرأينا منهم أهلة توشك أن تكون أقمارا، وغروسا طيبة توشك أن تجنى ثمارا، وكنت أنا إزاء ذلك بين عاملين متناقضين عامل سرور وأمل بمن أرى من بني ملتنا ووطننا من تلك الشبيبة المتنورة بأنوار العلوم، وعامل حزن وأسف على حالة أبنائنا الآخرين الذين منهم أهملهم آباءهم فقتلهم الجهل، وأكلتهم الشوارع، وأهلكتهم المفاسد والمنكرات...»².

عبد العزيز الثعالبي: تعد العلاقة بين الشيخ عبد العزيز الثعالبي والبعثات العلمية الميزابية علاقة وطيدة وقوية جدا، وذلك بحكم الرابطة الوثيقة التي كانت تجمع الزعيم الوطني عبد العزيز الثعالبي برؤساء البعثات العلمية الميزابية خاصة الشيخ صالح بن يحيى، والشيخ أبي اليقظان، والشيخ أبي إسحاق اطفيش، والشيخ الشميني، وكانت زيارته لمقرات البعثات الميزابية مستمرة، ويروي الشيخ أبي اليقظان عن ذلك فيقول: «فكان كثير التردد على مقر البعثة، ينجز فيها أبحاثه، ومقالاته، ويحكم خططه واتصالاته، ويطلع على الجرائد ويعقب عليها، ويمضي سحابة يومه بين إخوته وبنيه وأهله وذويه»، هكذا كانت علاقة الثعالبي مع أبناء البعثة الميزابية، واستمرت هذه العلاقة بين الشيخ والبعثة حتى هاجر غاضبا وناقما عن الأوضاع التي آلت إليها تونس وحزبه، وكان ذلك في عام 1923م، وقبل مغادرته تونس خطب في الطلبة الميزابيين كلهم في دار البعثة خطابا حارا، ضمنه آماله في البعثة لنهضة الجزائر وآلامه ولوعته، فكان خطابا مؤثرا فجر الدموع، وكانت البعثة آخر من ودع الثعالبي وداعا جماعيا³.

¹ - هو بن عمر فحار: المرجع السابق، ص42.

² - محمد ناصر: مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، د.ط، نشر جمعية التراث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989م، ص29.

³ - الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص-ص(136-137).

وإن هذا التكوين على يد الزعيم الوطني لتونس ورفقائه في هذه الفترة سمح لرؤساء البعثات الطلابية من نقل هذا الحس الوطني والسياسي إلى طلبتهم، فربوهم على حب الوطن والاستعداد للتضحية في سبيله، والدفاع عن أرضه وحماه، والنضال من أجل دينهم وقيمهم¹.

الشيخ سليمان الباروني: لقد كان الشيخ سليمان الباروني من الأصدقاء المخلصين للشيخ أبي اليقظان، ولقد تعرف عليه أول مرة ببلدة بني يزقن عندما كان في معهد الشيخ اطفيش قطب الأئمة، وكان نجم الشيخ الباروني قد سطع في ميدان العلم والأدب والكفاح، ولما سافر الشيخ أبي اليقظان لتونس التقيا هناك، وتعرف الشيخ أبي اليقظان على جهود الشيخ سليمان الباروني في مجاهدة الاستعمار الإيطالي على ليبيا، وصارا صديقين حميمين، ولما تكونت أول بعثة علمية ميزابية إلى تونس -طلبة معهد الصديقية- فرح الشيخ سليمان الباروني كثيرا بهذا الأمر وقدم أثنائا من بيته لصالح البعثة الميزابية، كراسي، وأسرة، وطاولة كبيرة للجلوس، وأصبح على صلة وثيقة بهذه البعثة وبزعيمها أبي اليقظان.

وقد استقر الشيخ سليمان الباروني في فرنسا، ولما زار تونس في شهر أوت 1923م، فزاره وفد من زعماء البعثة الميزابية بالفندق الذي يقيم به، ولقد طال الحديث حول البعثة العلمية الميزابية بتونس، ولقد كان سرّ الشيخ الباروني بالنتائج التي تحقّقها البعثة، واشتاق لرؤية تلاميذ البعثة، وضرّبوا موعدا من أجل زيارة الشيخ لمقر البعثة.

ولكن سرعان ما علمت السلطات الفرنسية بالأمر فأسرعت بتطويق المكان الذي يقيم به الشيخ الباروني، ومنعت التواصل مع الشيخ، وأمرته بمغادرة البلاد.

وكان شوق تلاميذ البعثة كبيرا لملاقاة الزعيم والمجاهد سليمان الباروني، ولكن الاستعمار منعهم من ذلك، فقام الشيخ أبي اليقظان بالاستخبار عن الساعة التي سوف يغادر فيها الشيخ الباروني البلاد، ثم توجه مع جميع تلاميذ البعثة نحو الميناء الذي سوف يركب منه الشيخ الباروني، واصطف الطلبة من المكان الذي يمر عليه الشيخ، فرآه الطلبة ورآهم فحيّاهم من بعيد وكان المنظر مؤثرا في نفوس الطلبة ونفس الشيخ الباروني².

ولقد قال الشيخ أبي اليقظان في هذا الحدث المؤثر شعرا نقّبتس منه هذه الأبيات:

هلالان هلا بالرحاب والقا	وبدران من أفق السماءين إشراقا
هلال به عام جديد تألّأت	مباسمه فوق السماء فترونقا

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: "آثار النهضة العلمية التونسية في فكر الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب خلال القرن العشرين"، مجلة الحياة، ع:11، أكتوبر 2007م، جمعية التراث، المطبعة العربية، ص219.

² - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، صص(281-283).

ثم يقول:

بنفس "البروني" العظيم الذي رنا إليه شمال إفريقيا وتشوقنا
تباهت به الخضراء واهتز عطفها فنافسها الجيران فيه تعشقا¹
وكتب الشيخ سليمان الباروني قصيدة رائعة في حق الطلبة الميزابيين جاء فيها:

يا شباب العصر يا روح البلاد يا رجال الغد يا نور الفؤاد
يا دعاة الاتقاء والاتحاد يا جمال القطر لكن بعدما
أنتم للشعب حصن وسلاح عندما تنشر أعلام الكفاح
أنتم عند اللقاء كبش نطاح يدفع الأضرار عند ذاك الحمى²

العقيد عميروش: ومن بين الزعامات الوطنية والثورية التي زارت مقر البعثة الميزابية أثناء الثورة الجزائرية، نجد الزيارة التي قام بها العقيد عميروش زعيم الولاية الثالثة إبان الثورة التحريرية، وذلك بعد الدعوة التي قدمها المشرفين على البعثة من أجل زيارتهم لهم، وفي هذا الإطار قبل العقيد عميروش الدعوة التي تقدم بها إليه الطلبة الميزابيين، الذين كانوا يقيمون بنهج بن خلدون بالعاصمة التونسية³، فكان اللقاء رائعا سواء من جانب الطلبة أو من جانب عميروش والوفد الذي رافقه⁴، ولقد اهتزت المشاعر وكثرت الأسئلة والاستفسارات حتى ساعات متأخرة من الليل نظرا لشغف طلاب البعثة لمعرفة بكل ما يدور من أحداث تخص بلادهم⁵.

ويروي الشيخ يحيى أبي اليقظان الذي كان متواجدا في هذه المناسبة تلك اللحظات بكل عاطفة فيقول: «لقد كانت زيارة العقيد عميروش جد هامة، لأنها زادت من قوة عزيمتنا في بلوغ الغايات والأهداف التي جئنا من أجلها ولقد أجمع العقيد عميروش فينا عاطفة حب الوطن والتضحية من أجله، ولكن كما صرح لنا العقيد في رد على أحد أسئلة الطلبة، يجب أن نجاهد ونثابر في طلب العلم، لأن جزائر الغد تحتاج إلى إطارات أكفاء في جميع المجالات، وأن الرجال في الجبل يقومون بعملهم وانتم عليكم بعملكم»⁶، هذا وأثنى العقيد عميروش على نظام البعثة وأوصى طلبتها بالتفرغ للعلم والاستعداد لبناء الجزائر الحرة والمستقلة⁷.

¹ - محمد ناصر: ديوان أبي اليقظان، ج 1، ط 1، جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، ص 73.

² - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 3، ص 285.

³ - لقد كانت هذه من ضمن البعثات العلمية الميزابية البيوضية، والتي كان يقودها الشيخ محمد العساكر.

⁴ - لقد كان من ضمن الوفد المرافق للعقيد عميروش، الشيخ عبد الرحمن شيبان عليه رحمة الله.

⁵ - شوقي عبد الكريم: دور العقيد عميروش في الثورة الجزائرية 1954م، دار هومة، الجزائر، 2003م، ص 123.

⁶ - لقاء مع الشيخ يحيى أبي اليقظان، المصدر السابق.

⁷ - الحاج عيسى بن عمر: المرجع السابق، 136.

زارت البعثات الميزابية بتونس العديد من الشخصيات العلمية والوطنية سواءً الجزائرية أو التونسية أو الإسلامية كالشيخ الفاضل بن عاشور¹، والشيخ عباس التركي، والدكتور فرحات عباس وغيرهم².

كما كان الطلبة أيضاً يقومون بنشاطات ترحيبية كلما قدم إليهم أحد من الأولياء أو الضيوف، حيث يقومون بعد العشاء، بحفل يتلون فيه القصائد النبوية والأناشيد الحماسية والأحاديث النبوية، ويكون في ختامها مناظرة بين السيف والقلم، ليأخذ الضيوف صورة جديّة عن المستوى التعليمي الذي بلغه هؤلاء الطلبة، فيكونون بذلك حافزا ومشجعا لأولياء التلاميذ الآخرين على إرسال أبنائهم لمزاولة التعليم ضمن هذه البعثات بتونس³.

ب-2- البعثة الميزابية تشرف على النشيد الوطني الجزائري "قسما"

تزامنا مع اندلاع الثورة التحريرية المباركة في 1954م، انضم العديد من الميزابيين لصفوفها والانخراط ضمن خلاياها، ولقد التحق الشاعر الجزائري الميزابي مفدي زكرياء بالثورة في سنة 1955م، وكان مناضلا في صفوف الحزب بالعاصمة الجزائرية، وكانت داره مقرا لاجتماعات المناضلين، ولعل من أبرز الأعمال التي قام بها مفدي زكرياء في هذه الآونة هو نظمه لنشيد الثورة الجزائرية "قسما بالنزالات الماحقات"، فقد اتصل به بعض مناضلي جبهة التحرير بالعاصمة وطلبوا منه أن يؤلف للثورة نشيدها، وفي ليلة واحدة تفجر هذا النشيد الذي يحمل في طياته تاريخ أفضل جهاد في سبيل العقيدة والوطن، وسافر مفدي زكرياء نحو تونس ليحضر بنفسه تجارب إنشاده من طرف طلاب البعثة الميزابية⁴.

وبدأت التدريبات حول هذا النشيد بدار البعثة الميزابية بنهج بن خلدون بقيادة رئيس البعثة محمد لعساكر، والملحن التونسي محمد التريكي⁵، ويروي صالح خرفي⁶ في هذا الصدد: «... لقد كنا نتدرب على هذا النشيد في

¹ - محمد الفاضل بن محمد الطاهر بن عاشور: (ولد: 1909/توفي: 1970)، أديب وخطيب تونسي، وخريج جامع الزيتونة، ويعد من طلائع النهضة الحديثة التونسية، وتقلد الاستاذية ثم العمادة بالزيتونة، ينظر: قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: المرجع السابق، ص 587. ينظر: محمد الفاضل ابن عاشور: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ط3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م، ص-ص (10-18).

² - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية عند إباحية الجزائر، المرجع السابق، ص 587.

³ - هو بن عمر فخار: المرجع السابق، ص 42.

⁴ - محمد ناصر: مفدي زكرياء، المرجع السابق، ص 18.

⁵ محمد التريكي: (ولد: 1899/توفي: 1989)، موسيقار تونسي من مواليد عاصمة تونس، كان أحد أقطاب الحركة الفنية طوال القرن العشرين، كان والده من أساطين شيوخ العيساوية مما دفعه إلى تعلم أصول الموسيقى على قواعد صحيحة على أساتذة أوربيين، عمل كموظف للشؤون المالية لمدة ستة سنوات ولكنه انقطع وانتسب للعمل الفني وانخرط في جمعيات مهتمة بالعمل الموسيقي، حيث أصبح مفتشا عاما لمادة الموسيقى في وزارة التعليم التونسية، وبلغ انتاجه الموسيقي ما يقارب 2000 قطعة فنية بين غنائية وآلية، ولقد كانت له علاقة ودية مع الشاعر مفدي زكرياء الذي توجه إليه بتلحين قسما". ينظر: الأمين بشيشي، عبد الرحمن بن حميدة: تاريخ ملحمة نشيد قسما، د.ط، مؤسسة مفدي زكرياء، منشورات الفا، الجزائر، 2008م، ص 122.

⁶ - صالح خرفي: (ولد: 1932/توفي: 1998) ولد ببلدة القرارة، التحق بمدرسة التربية والتعليم بباتنة سنة 1938م، ثم عاد إلى القرارة والتحق بمدرسة الحياة، أين استظهر كتاب الله سنة 1946م، ثم أكمل دراسته الثانوية بمعهد الحياة، غادر الجزائر متوجها نحو تونس سنة 1953م، لكي يكمل دراسته

في جناح الظلام، وفي القاعة الداخلية لدار البعثة ذات الطراز الأندلسي، بعد أن نوصد الأبواب وتتناوب الحراسة على نهج ابن خلدون، حرصا على سرية النشيد، قبل توجيهه إلى داخل الجزائر...»¹.

وكان ذلك سنة 1956م، وأما عن الطلبة الذين أشرفوا على أداء الصيغة اللحنية للنشيد الوطني فهم:

- | | |
|---------------------------|--------------------|
| 1 بأحمد بكلي بابه | 10 السعيد لعساكر |
| 2 صالح بن إبراهيم باجو | 11 عيسى لعساكر |
| 3 صالح خرفي | 12 حمو أيوب |
| 4 عبد الوهاب بكلي | 13 يونس حاج عيسى |
| 5 يحي حمدي أبو اليقظان | 14 محمد ابن لولو |
| 6 إبراهيم تقموت | 15 محمد ابن يوسف |
| 7 محمد بن عمر الشيخ أحمد | 16 حمو أولاد داود |
| 8 صالح بن عمر سماوي | 17 محمد كاسي موسى |
| 9 عمر بسيس | 18 بكير أبو الصديق |
| 19 محمد لمسن ² | |

كما كان للبعثات العلمية الميزابية مشاركات مختلفة في المهرجانات والاحتفالات التي كانت تقام احتفاء بالمناسبات الوطنية أو الدينية، وكان لهم مشاركات مع الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين³ في تونس في الاحتفالات التي ينظمها بمناسبة الثورة الجزائرية ونشاطاتها المختلفة.

في الزيتونة والمدرسة الخلدونية هناك، ولقد كانت له نشاطات ثقافية وعلمية في تونس، ثم تنقل إلى مصر وتحصل منها على شهادة الليسانس من جامعة القاهرة سنة 1960م، ثم تحصل على الماجستير سنة 1966م، والدكتورا سنة 1970م بنفس الجامعة، ولقد تقلد عدة مناصب علمية وثقافية في الجزائر، وساهم في الحياة الفكرية والعلمية بالمنشورات والمؤلفات التي انتجها، ينظر: قاسم أحمد الشيخ بالحاج: الشاعر صالح الخرفي صفحات في مساره الفكري والأدبي، ط1، نشر جمعية أنغام الحياة الثقافية القرارة، 2014م، ص-ص(13-30).

¹ - الحاج عيسى بن عمر: المرجع السابق، ص137.

² - الأمين بشيشي، عبد الرحمن بن حميدة: المرجع السابق، ص123.

³ - للإطلاع أكثر حول دور الاتحاد ونشاطاته إبان فترة ثورة التحرير، ينظر: السعيد عقيب: دور الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين خلال ثورة التحرير 1955-1962م، د.ط، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.

4- إسهامات المهاجرين الميزابيين في الحياة السياسية والفكرية التونسية.

لم يكن أثر الميزابيين في الحياة التونسية مقتصرًا على الجانب الاقتصادي فقط، أو مقتصرًا على التواصل الديني المذهبي بين جزيرة جربة ومنطقة وادي ميزاب، بل تعدى كل هذه الجوانب إلى مساهمة فعالة في الحياة السياسية والفكرية التونسية، فلقد كان الميزابيون العضد الأيمن المتين للشيخ عبد العزيز الثعالبي في نضاله السياسي وجهاده ضد الاستعمار الفرنسي، كما كانت لهم مساهمة في الحياة الصحفية التونسية أيضاً من خلال كتابات النخبة الميزابية فيها، فكانت أقلامهم تسيل بالإنتاج الأدبي والفكري الغزير، وهذا ما عزز الجانب الثقافي والعلمي وساعد على التواصل الفكري بين ميزاب وتونس، في صورة راقية جعلت العلاقات الفكرية والعلمية والسياسية التونسية والجزائرية في أرقى مراحلها بمجهوداتهم ومجهودات المهاجرين الجزائريين الآخرين.

وسوف نركز على أهم إسهامات النخبة الميزابية في المجالات الموالية:

أ- في مجال الصحافة:

كانت الصحافة التونسية منبرا مفتوحا، وساحة فكرية وأدبية وسياسية هامة للجزائريين، وخاصة النخبة المثقفة منهم الذين كان لهم الدور البارز على صفحات تلك الجرائد.

وحفلت الصحافة التونسية بالأقلام الجزائرية منذ بدايات القرن العشرين وإلى غاية توقف النشاط الصحفي بسبب بعض القرارات المحقة سنة 1912م¹، ثم بدأت مساعي الإفراج عن الصحافة التونسية من خلال نشاطات الزعيم عبد العزيز الثعالبي الذي كان من أهم أهدافه تحرير الصحافة من خلال رفع القيود التي كانت مفروضة عليها منذ سنوات².

وقد اشترك الجزائريون بصفة عامة في الحياة التونسية من خلال تحرير المقالات التي كانت تنشر على صفحات الجرائد والدوريات التونسية، منذ مطلع القرن العشرين وإلى غاية استقلال الجزائر 1962م، ومن هذه الجرائد والدوريات نجد: التقدم، المنير، المشير، الزمان، الزيتونة، صبرة، لسان الشعب، الوطن، الأسبوع والوزير، وغيرها الكثير ممن احتضنت على صفحاتها كتابات المثقفين الجزائريين، وكان لها أثر في الوسط الثقافي التونسي والجزائري وحتى المغاربي بصفة عامة³.

وسوف يقتصر حديثنا هنا على إسهامات الأقلام الميزابية على صفحات الجرائد التونسية، وبالرغم من إسهاماتهم المختلفة والمتنوعة والمتعددة، ولكننا سنركز على نماذج ميزابية شاركت في الميدان الصحفي التونسي بقوة:

¹ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، المرجع السابق، ج 1، ص 503.

² - محمد الفاضل ابن عاشور: المصدر السابق، ص 135.

³ - محمد بوطيبي: المرجع السابق، ص 100.

أ-1- الشيخ إبراهيم أبو اليقظان: يعد الشيخ أبو اليقظان رائد الصحافة الجزائرية بلام منازع، فلقد كان سباقا في الكتابة الصحفية، وأيضاً في تأسيس الجرائد الوطنية في الجزائر، ويقول الشيخ أبي اليقظان في وصفه لدور الصحافة ما يلي: " فهي الأم المثقفة لأولادها، والمدرسة السيارة المذبة لأبنائها، والمعلم النصح لتلاميذه، والمرشد الحكيم لمريده، والطبيب الحاذق لمرضاه، والمصلح الكبير لشعبه"¹.

ويقول فيه شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا : «إذا كان لقب شيخ الصحافة جديرا بأحد من أرباب الصحافة بالجزائر، فالشيخ أبو اليقظان يمتاز بهذا اللقب بجدارة واستحقاق، فلقد قطع عشر سنوات كاملة من الكفاح الصحفي المجيد يتحدى إدارة الاستعمار في الجزائر، بصبر وأناة وعزم، لا يعرف التراجع، وذلك في فترة تعد من أصعب الفترات وأقساها في مراحل الكفاح القلمي بالجزائر»².

وفي الجدول الموالي جملة من إسهامات الشيخ أبي اليقظان في الصحافة التونسية:

عنوان المقال	اسم الجريدة	سنة النشر	نوعه
الجزائر والإسلام	المنير	1920/08/19	مقال
الجزائر والاتحاد	المنير	1920/09/2	مقال
الجزائر والعلم	المنير	1920/09/16	مقال
حياتنا بحياة أخلاقنا	المنير	1920/10/14	مقال
مستقبل الأمة	المنير	1921/01/29	مقال
شكوى الجزائر	المنير	1921/02/11	مقال
حياة الأمة بحياة لغتها	المنير	1921/02/25	مقال
شكوى الجزائر	المنير	1921/03/25	مقال
مزاج يستغيث	المنير	1921/6/20	مقال
كتاب إلى الوالي العام	المنير	1921/10/18	مقال
ابن الشيخ سليمان الباروني	الإرادة	1934/02/24	مقال
الصحافة مراقبة الحياة	المنير	1920/07/22	قصيدة
الحياة	المنير	1920/09/23	قصيدة
الدستور	المنير	1921/01/14	قصيدة
تحية الشيخ الرئيس	المنير	1921/06/05	قصيدة
تهنئة الجزائر	المنير	1921/07/22	قصيدة ³

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية، المرجع السابق، ص443.

² - مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، تح: أحمد حمدي، مؤسسة مفدي زكرياء، دار هومة، الجزائر، 2003م، ص165.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: أعلام الميزابيين في الصحافة التونسية 1920-1962م، ط1، نشر جمعية التراث، غرداية، 2006م، ص-ص(36-39).

أ-2- مفدي زكريا: يعتبر مفدي زكريا من أوائل المؤسسين للصحافة الوطنية بالجزائر، التي كانت تحمل مشعل الدفاع عن الوطن وتحث على توحيد الصفوف ولتحريره من قبضة المستعمر، وتنضوي أغلبها تحت لواء "حزب الشعب الجزائري" الذي كان مفدي عضوا فيه¹.

ويعتبر جو البعثة الذي نشأ فيه مفدي زكريا من أهم مكونات شخصيته، الإسلامية والوطنية والعلمية، وهي التي وجهت الحياة هذا التوجيه الأدبي والسياسي، من مشاهداته المستمرة في دار البعثة لزعماء الإصلاح والحركات الوطنية التونسية والجزائرية كعبد العزيز الثعالبي، والباروني، وابن باديس وغيرهم الكثير، ولقد كان أيضاً يقرأ المجلات والصحف الواردة من المشرق العربي ويشترك هو وزميله رمضان حمود² في مناقشة محتوياتها³.

وكانت أول خطوة في مجال الصحافة يقوم بها مفدي زكريا هي مبادرته إلى جانب رفيقة رمضا حمود، عندما أسس جمعية الوفاق الأدبية التي أصدرت صحيفتها في الفترة ما بين 1930/1925م في تونس.

وبعد مغادرة مفدي زكريا تونس واستقراره بالجزائر، وكثرة انشغالاته الوطنية والتزاماته العائلية، ظل مراسلا لعدد معتبر من الصحف والمجلات التونسية، بأسماء مستعارة مثل "الفتى الوطني" و "أبو فراس"⁴.

قدمت الصحافة التونسية ومسؤوليها لمفدي زكريا في جميع مراحل حياته النضالية والثورية ما لم يجده في غيرها تقديرا وإجلالا وتكريما، والجرائد التونسية تشهد على ذلك كجريدة الزهرة والنهضة وتونس والشباب والفكر والصبح وغيرهم، ويلمس بحق كيف كان يحل من دوائرها الثقافية محلا عظيما وكيف كانت تربطه بأدبائها الكبار من أمثال أبي القاسم الشابي ومحمود بوقريبة، وبيرم التونسي، ومحمد العربي والحبيب شيبوب وغيرهم كثير صداقات حميمة⁵.

¹ - مفدي زكريا: تاريخ الصحافة العربية، المصدر السابق، ص14.

² - رمضان حمود بن قاسم: (ولد: 1906/ توفي: 1929)، ولد ببغداية، تلقى تعليمه الابتدائي بالمدرستين العربية الحرة والفرنسية الرسمية بمدينة غليزان، ولما بلغ السادسة عشر أرسله والده إلى تونس لينظم إلى صفوف البعثة الميزابية بقيادة الشيخ أبي القبطان، وكان في جو البعثة يملأ أوقات فراغه القليلة بالتمرن على الكتابة والخطابة والشعر وكان كثير المطالعة في شتى الكتب، ولقد ترك رمضان حمود العديد من الكتابات والمؤلفات. ينظر: مجموعة مؤلفين: موسوعة أعلام الجزائر 1954/1830م، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، ص-ص(139-143).

³ - محمد ناصر: مفدي زكريا، المرجع السابق، ص9.

⁴ - مفدي زكريا: تاريخ الصحافة العربية، المصدر السابق، ص15.

⁵ - محمد ناصر: مفدي زكريا، المرجع السابق، ص21.

عنوان المقال	اسم الجريدة	سنة النشر	نوعه
نقد على نقد	الوزير	1925/07/07	مقال
عش مع الخالدين	الفكر	ماي 1961	شعر
إلى الريفيين	لسان الشعب	1956/05/6	شعر
رسالة من بربروس	صبرة	1937	مقال
غني للأرض تساجلك السماء	الإلهام	جانفي 1956	شعر
الشمال الإفريقي يتحد	الوطن	1937/08/15	شعر
صوت الجزائر	الشباب	1937/03/05	شعر
ليلة القدر الكبرى	الصباح	1958/05/14	شعر
من وحي الثورة	الفكر	ديسمبر 1957	شعر
فكرة المغرب العربي الموحد	الفكر	نوفمبر 1960	مقال ¹

جدول يوضح اسهامات الشاعر مفدي زكرياء في الصحافة التونسية

وقد أثرت المشاركة الصحفية للميزابيين في الجرائد الصحفية التونسية²، على مسارهم الفكري والعلمي والصحفي أيضاً، فنجد على سبيل المثال الشيخ أبي اليقظان عند رجوعه إلى الجزائر يؤسس جرائد وطنية ذات بعد إصلاحي واجتماعي، ولقد كان عددها ثمانية جرائد متتالية، وهي: وادي ميزاب، ميزاب، المغرب، النور، البستان، النبراس، الأمة، الفرقان³، كما نجد مفدي زكريا أيضاً يشارك في تحرير جريدتين وطنيتين سريتين بالجزائر وهما: الوطن والحركة الوطنية، وأيضاً مشاركته الفعالة على صفحات جريدة المجاهد⁴.

ب- في مجال السياسة:

تعد مشاركة الميزابيين في الحياة السياسية التونسية من أبرز مظاهر الإسهامات التي قاموا بها في تونس، لكون هذه المشاركة كان لها الدور البارز والفعال على مسار الحركة الوطنية التونسية الفتية، فلقد شارك الميزابيون منذ بداية العمل السري النضالي للشيخ عبد العزيز الثعالبي، وكانوا عضده المتين في كل نشاطاته، سواءً بالمشاركة الميدانية، أو بالإسهامات المادية المقدمة للحزب.

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: "نشاط الميزابيين في الصحافة الوطنية التونسية"، مجلة الحياة، ع: 09، أكتوبر 2005م، جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، 2005م، ص-ص(250-251).

² - هناك العديد من الأسماء الميزابية التي شاركت في الحركة الصحفية التونسية، مثل: صالح خري، صالح خباشة، بكير باجهون، محمد لعساكر، صالح فرحات، رمضان حمود، الشيخ الثميني، وغيرهم كثير.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية، المرجع السابق، ص454.

⁴ - محمد ناصر: مفدي زكرياء، المرجع السابق، ص-ص(18-20).

ولا يمكن التطرق لنشأة الحركة الوطنية التونسية من دون التحدث عن دور الميزابيين في هذه الحركة منذ انطلاقتها الأولى، وكانوا يعتبرون القضية التونسية من بين قضاياهم ويعترف بهذا الرئيس التونسي بورقيبة بذلك فيقول: «أنهم كانوا مخلصين في صفوف الحزب، يعملون للوطن، ولا يطمعون لنيل منصب أو لمنفعة ذاتية»¹.

ويذكر محمد علي دبوز في رواية عن الشيخ أبي اليقظان حول تأسيس عبد العزيز الثعالبي لجمعية سرية فدائية قبل تأسيس الحزب فيقول: «... في آخر الحرب العالمية الأولى سنة 1917م، أنشأ الشيخ عبد العزيز الثعالبي في تونس جمعية سرية فدائية غرضها إحداث حركة تحررية في المغرب الكبير كله: تونس والجزائر والمغرب وليبيا، وكان للجمعية رموزها واصطلاحاتها، ولها فروع في الجزائر وليبيا والمغرب الأقصى، وفي تونس كان رئيسها هو الشيخ عبد العزيز الثعالبي ومعه خمسة أعضاء، والجمعية تتركب من ستة، ولكل من هؤلاء الستة أن يستأذن الجمعية في إنشاء فرع من أنس تثق بهم الجمعية وترضاهم يكون هو رئيسهم، لا يعرفون غيره من أعضاء الجمعية المركزية، وكان للشيخ صالح بن يحيى فرع من الميزابيين في تونس يتركب من ستة: أبو اليقظان، والشيخ يوسف بن بكير، والشيخ عبد الله بن إبراهيم أبو العلاء، والناصر بن صالح ملاي، وأحمد بن الحاج إبراهيم بن كاسي، وعمر بن محمد بوحجام، وكان لنا جلسة في كل أسبوع تحت رئاسة الشيخ صالح بن يحيى، وكنا لا نعرف غيره من أعضاء اللجنة الأصلية، كان هو صلتنا بها، ينقل إلينا أوامرها، وكان القائد التركي جمال باشا عازما على احتلال مصر ثم غربها إلى الجزائر والمغرب الأقصى.

وكان المغرب يستعد لوصوله، وبمضي نفسه بالتحرير، فأنشأ في أنحائه كلها فروعاً لهذه الجمعية السرية، فصارت تستعد لوصوله، لتثير المغرب كله على فرنسا إذا طرقت جيوش الدولة العليا بقيادة جمال باشا أبوابه، فلما أخفقت خطة جمال لاحتلال مصر ألغيت هذه الجمعيات السرية، فتأسست على أنقاضها في تونس اللجنة التنفيذية»².

هكذا كان للميزابيين السبق في الانخراط في صفوف النضال السري العربي والإسلامي بحكم أن هذه الجمعيات السرية كانت في إطار الجامعة الإسلامية التي أنشأت من طرف الدولة العثمانية في تلك الفترة في محاولة لرأب الصدع الذي ضرب العالم الإسلامي³.

وبعد تأسيس اللجنة التنفيذية والحزب الحر الدستوري كان الميزابيون أيضاً متواجدين وبقوة في دعم الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وفي دعم القضية التونسية مادياً ومعنوياً، ويذكر توفيق المديني «أنه كان يشغل منصب أمين عام مساعد يتولى التعليم العربي باللجنة التنفيذية منذ أول جلسة تأسيسية للوطنيين في 29 ماي 1921م، وكان

¹ - عيسى قرقب: الامام إبراهيم بيوض رائد الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري (1920-1981)، بحث دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: ابراهيم فخار، جامعة قسنطينة، 1995-1996م، ص 87.

² - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج 3، ص 241.

³ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج 1، ص 247.

ذلك تحت إشراف الشيخ عبد العزيز الثعالبي الذي انتخب أعضاء اللجنة التنفيذية وكان من أعضائها عدد من الجزائريين: أحمد توفيق المدني، عبد العزيز الثعالبي، صالح بن يحيى، الطيب بن عيسى، إبراهيم اطفيش، عبد السلام القلي، محمد بن حسين، قاسم الجزائر، حسن قلائي، كما تم تشكيل لجان تشريعية للحزب منها : لجنة نشر الدعوة التي تضم الثعالبي، صالح بن يحيى والطيب بن عيسى، أما اللجنة المالية فهي تضم الشيخ صالح بن يحيى¹.

فانخرط الميزابيون في صفوف الحزب بكل حماسة وفعالية، وكان من أبرز هؤلاء المنضمين الشيخين صالح بن يحيى مدعم الحزب المالي، والشيخ أبي اسحاق اطفيش الذي كان سفيرا للحزب في الجزائر وأيضاً في الدعاية له.

ب-1- الشيخ صالح بن يحيى ودوره في دعم الحزب الحر الدستوري:

إذا تحدثنا عن الدعم الميزابي للشيخ عبد العزيز الثعالبي فسوف يكون في المرتبة الأولى من هؤلاء هو الشيخ صالح بن يحيى، الذي كان الظهر المتين للشيخ الثعالبي، وكان الداعم الأول للحزب بالمال.

فلقد تعرف الشيخ صالح بن يحيى على الزعيم التونسي عبد العزيز الثعالبي بتونس، عندما كان الشيخ صالح بن يحيى على رأس البعثة الميزابية هناك، ثم أصبح تاجرا بتونس، وتوثقت الصلة بينهم، وأصبح صالح بن يحيى ضمن الجمعية السرية كما رأينا، ثم أشركه الشيخ عبد العزيز الثعالبي في الدعوة إلى مناصرة الحزب والترشح لعضوية لجنته المركزية لما لمس فيه من الحمية والإخلاص، والاستعداد السياسي².

هكذا إذاً كان الشيخ صالح بن يحيى من المؤسسين الأوائل ومن الأعضاء الإداريين البارزين للحزب الدستوري وعضو لجنته التنفيذية، وعضو لجنة الدعاية، وعضو رئيسي في لجنة المالية، كما كان عضو في كل وفود الحزب، وبهذا فقد كان أمتن عضو للشيخ الثعالبي³.

ومن أهم الأعمال الجليلة التي قدمها الشيخ صالح بن يحيى للحزب ولنشاط الشيخ الثعالبي هي مؤازرته المالية المستمرة، فلقد قام برحلة إلى الجزائر سنة 1920م، لجمع المال من التجار الجزائريين ودعم ميزانية الحزب، فجمع من التجار الميزابيين ثمانين ألف فرنك، تبرعوا بها للحزب الدستوري، وهي أمثاله من تبرعات الميزابيين المتصلة للحزب هي التي مكنت الشيخ الثعالبي من السفر إلى فرنسا للتعريف بقضية تونس⁴.

¹ - نفسه، ص 359.

² - محمد ناصر: الشيخ القراي حياته وأثاره، المرجع السابق، ص 188.

³ - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج 1، ص 356.

⁴ - محمد ناصر: الشيخ القراي حياته وأثاره، المرجع السابق، ص 189.

ومن بين الخدع التي قام بها الشيخ عند جمعه لهذه الأموال لكي لا تكتشف السلطات الفرنسية أمره، الجمع بحجة إنجاز مشاريع خيرية، حيث كان يجمع المال مثلاً بحجة بناء مسجد للميزابيين، ثم تذهب تلك المبالغ التي يجمعها إلى خزينة الحزب الحر الدستوري¹.

وقال الشيخ الثعالبي في هذا الصدد: «لولا الميزابيين الذين يمدونني بالمال لما استطعت أن أمكث في باريس أكثر من أربعة أشهر، لكنني بفضلهم مكثت عاماً وأربعة أشهر»، ويقول الشيخ اطفيش: «كان يمد -يقصد الشيخ صالح بن يحيى- حزب الدستور كلما احتاج إلى المال في آخر كل شهر، وكان التونسيون يثقون به ثقة كاملة وقد أنفق أمواله الطائلة على الحزب وتشاغل عن تجارته، لاستغراقه في جهاده السياسي فمات فقيراً»².

ويذكر الشيخ إبراهيم بيوض تعليقاً على هذه التبرعات، أنه رأى صورة كاريكاتورية في إحدى الجرائد التونسية في العشرينيات صورة الشيخ عبد العزيز الثعالبي والشيخ صالح بن يحيى يصب له في فمه كيساً من الدنانير، وكتبوا تحت الصورة " زدني من حلالك وحرامك وزقومك يا صالح"³.

ومن خلال اتصالاته الدائمة بالميزابيين بالجزائر فلقد كون الشيخ صالح بن يحيى قاعدة شعبية مهمة خاصة من التجار الميزابيين الذين كان كلما التجأ إليهم الشيخ مدوه بالعون والمدد، ولعل من أبرز هؤلاء الموجودين بالجزائر هم: بعلي الحاج صالح بن محمد، وهو ملاك بناحية قالمة وقاطن بمنقطة بني يزقن، وزكري بن السعيد، وهو تاجر بمدينة قالمة أيضاً، وكان من أعضاء الوفد الذي توجه إلى باريس للاحتجاج حول قانون التجنيد الإجباري، وسيدي عيسى بن الحاج عبد العزيز بن محمد، التاجر بمدينة الجزائر، وترشين عبد الله بن الحاج حمو، تاجر بعنابة ومن مراسلي صحف الشرق، وأبو كامل عبد الله بن الحاج صالح، تاجر بالجزائر العاصمة، وهو صديق لسليمان الباروني ولقد كان بصندوقه هو وحده (200 ألف) فرنك جمعها لتمويل المقاومة في ليبيا، وغيرهم الكثير من الميزابيين الذين كانوا في صلة وثيقة مع الشيخ صالح بن يحيى، من أجل دعم القضية التونسية⁴.

ولقد دخل الشيخ صالح بن يحيى السجن أيضاً بسبب نشاطاته ضمن السرية، حيث أُلقي عليه القبض في 28 أكتوبر 1920م، بتهمة التآمر ضد الدولة التونسية، فطر من تون، وأودع السجن مدة ستة وثلاثين يوماً، رفقة زميله محمد الرياحي، وكان يوم خروجهما من السجن عيداً بتونس، ونظم فيها الشيخ أبي اليقظان قصيدة عنوانها " السجن بمجرة الرجال"⁵.

¹ - محمد بوطيبي: المرجع السابق، ص 93.

² - خير الدين شترة: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة، ج 1، ص 356.

³ - محمد ناصر: الشيخ القراي حياته واثاره، ص-ص (189-190).

⁴ - صالح خرفي: المصدر السابق، ص 51.

⁵ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج 3، ص 488.

ب-2- الشيخ أبي اسحاق اطفيش ودوره في دعم الحزب الحر الدستوري:

كان الشيخ أبو إسحاق اطفيش كنضيره الشيخ صالح بن يحيى في دعم الحزب الحر الدستوري، فلقد انخرط هو أيضاً من بداية النضال رفقة زملائه الشيخ صالح بن يحيى وأبي اليقظان.

ويذكر الشيخ اطفيش حول انضمامه للحزب فيقول: «لما سافرت تونس عام 1917م، لإتمام دراستي العالية في الجامعة الزيتونية، كان الشيخ الثعالبي، والشيخ صالح بن يحيى وصحبهما في جهادهم السياسي الكبير، ولكن يعملون في الخفاء، ولما أنشئوا جمعيتهم السرية التي كانت مقدمة لحزب الدستور دعاني الشيخ صالح بن يحيى إلى الدخول فيها، فامتنت خوفًا من أن تشغلني عن دراستي في الجامعة الزيتونية وغيرها، لقد أعطيت نفسي للعلم، وسافرت إلى تونس لأنقطع عن مشاغل الأهل وميزاب فتكون جهودي للعلم، فألح علي الشيخ صالح والزمني بالدخول في الجمعية السرية، ففعلت، ولما نشأ حزب الدستور بعد ذلك في عام 1920م، كنت عضوا عاملا فيه، وكنت أحضر بعض جلساته الإدارية، ووافق العمل في الحزب مزاجي الثوري، وقد كتب عدة مقالات سياسية حارة نشرتها في بعض الصحف التونسية، جريدة الوزير وغيرها، وفي جريدة الإقدام للأمير خالد في الجزائر»¹.

ويضيف الشيخ: «... وقد أرسلني الشيخ الثعالبي ثلاث مرات في مهمات سرية للجزائر، وذلك أن حركة الأمير خالد السياسية في الجزائر قد نشأت في عام 1919م وسرعان ما شبت وازدهرت لاستعداد الجزائر لها، فصار للأمير خالد دوي كبير في الجزائر لفت إليه أنظار الوطنيين في أنحاء المغرب، فأرسلني إليه الشيخ الثعالبي ليربط صلة حزب الدستور بحركته السياسية، فيكون جهادهما واحد، وخططهما واحدة فشرحت هذا للأمير خالد ورغبته فيه وأبدت له فوائده، فأبى أن يقتدي بأحد في حركته...، فأرسلني إلى الأمير مرة ثانية في عام 1920م، ومرة ثالثة في عرضت عليه الإتحاد مع حزب الدستور فأبى، وكان العضد الأيمن للأمير خالد في جهاده السياسي وأقرب الناس إليه هو السيد محمد بن يحيى باعامر وأخوه إدريس الميزابيان من مدينة مليكة في ميزاب، فاستعنت بهما في إقناع الأمير فتمسك بموقفه الأول»².

وفي هذا الصدد يعترف الأمير خالد في بداية العشرينيات في إحدى مقالاته بجريدة "الإقدام" بأن الفضل في نجاحه في الانتخابات ضد معارضيه من أنصار الفرنسية والتجنيس إنما يعود إلى أصوات بني ميزاب الموجودين بالعاصمة لما حفوه به من رعاية وتأيد قويين³.

ونظير نشاطه الدؤوب مع الحزب فلقد بدأت السلطات الفرنسية تترصد له وتتعقب كل تحركاته عن طريق الجواسيس الذين وضعتهم له، ولقد أحس الشيخ بهذه المراقبة وعلم بأن السلطة الفرنسية تدبر له المكيدة من أجل

¹ - محمد علي دبور: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص242.

² - نفسه، ص243.

³ - محمد ناصر: الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الإسلامي، ط5، كولوروم، الجزائر، 2013م، ص24.

زجه في السجن أو النفي، وما لبث أن جاءه القرار من ديوان المحافظة ومضمونه " الحكومة الفرنسية تدعوك إلى الكف عن كل حركة عداوية واختر لنفسك أي بلد شئت خارج هذا التراب"، هذا هو نص القرار الذي وجهته فرنسا إلى أبي إسحاق اطفيش بواسطة المقيم العام في تونس، وتريد بالحركة العدائية ما يقوم به الشيخ من إرشاد للشباب إلى طريق الإصلاح الوطني والديني.

وأثناء قرار الإبعاد وقعت حادثة بينه وبين الوكيل حيث طلبوا منه أن يذكر أنه يحب فرنسا وسوف يلغون قرار النفي، ولكن الشيخ أبي إسحاق رد عليهم بقوله: «الحب محله القلب فكيف أجرؤ على جرح وإدماء قلبي»، ولقد ألح عليه عدد من أعضاء الحزب في قولها حتى لا يتم إبعاده ولكنه رفض¹، ولقد كان هذا القرار الجائر في حق الشيخ، مضرة جلبت وراءها منفعة، حيث أصبح يعرف بالحزب في مصر، وبالحركات الوطنية في المغرب عامة².

هكذا ناصر الميزابيون القضية التونسية واعتبروها أحد قضاياهم، وكانوا ممولين للحزب ولكل نشاطات الشيخ عبد العزيز الثعالبي، ويذكر توفيق المدني مدى حرص وغيره الميزابيين على القضية التونسية التي تمثل أيضاً القضية الميزابية بحكم أن ميزاب وقعت معاهد الحماية مع الاحتلال الفرنسي، فيقول: " وأكد القوم بما لا يحتاج إلى دليل آخر أن الميزاب بلاد حماية، لا بلاد استعمار، وأنهم يطالبون باحترام معاهدة الحماية التي جنحوا إليها، كما تطالب تونس باحترام معاهد الحماية التي أرغموا عليها، فقضية بلاد ميزاب من هذه الناحية، هي نفس قضية تونس، وإحراز تونس على حقها، يفتح الباب لإحراز ميزاب على ما ضمنته له المعاهدة، لذلك كنت أرى الوفد المبارك، يغار على قضية تونس غيرته على بلاده"³.

كل هذا جعل الميزابيين أصحاب مكانة مرموقة في تونس، وكان لديهم مقام كبير عند الحكومة التونسية والأمة التونسية، وكان باي تونس وحكومته إذا أتته الوفود مهنئة في الأعياد يخص الميزابيين بالحفاوة البالغة، وينظر إليهم وإلى شيخهم بعين الإكبار، وحظي الميزابيين في تونس طوال فترة تواجدهم بالاحترام واللفظ⁴.

هكذا إذا كان الميزابيون يجمعون بين حمل القضية الميزابية في قلوبهم رفقة القضية التونسية، من أجل الظفر بحقوقهم التي كانت مبرمة مع سلطات الاحتلال إبان عقد معاهد الحماية معهم، وكانوا يعتبرون نجاح القضية التونسية وعبد العزيز الثعالبي هو نجاح للقضية الميزابية وبلوغ غاياتها المنشودة.

¹ - أبي راس عبد الله بن محمد الكاملي: أسحق إبراهيم اطفيش، د.ط، الشهاب، قسنطينة، 1966م، ص-ص(39-40).

² - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص243.

³ - أحمد توفيق المدني: حياة كفاح، المصدر السابق، ص219.

⁴ - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص166.

ج- في المجال الثقافي والعلمي:

ولأن المهاجرين الميزابيين كانت نسبة الطلبة والنخبة المثقفة فيهم نسبة مرتفعة، فقد كانت مساهماتهم أيضاً في الميدان الثقافي والعلمي بتونس مساهمة مهمة، وكانت لهم مشاركات في الحياة الفكرية التونسية، سواءً بالكتابات أو بالمشاركات في الندوات والمحافل العلمية والثقافية، أو من خلال التواصل الأدبي بينهم وبين التونسيين، فكان الإسهام في الجانبين العلمي والثقافي للميزابيين في تونس متداخلاً وذلك راجع لكونه راجع إلى أنها مساهمة طلابية في أغلب الأحيان وسنحاول أن نعطي نماذج لكليهما، سواءً على الصعيد الثقافي أو العلمي.

ج-1- المساهمة في المجال الثقافي:

كانت البيئة الثقافية الخصبة التي تعيشها تونس في تلك الفترة، بيئة مساعدة على الإبداع والتألق في هذا الميدان، سواءً في الكتابات الصحفية أو المشاركة في الاحتفالات والندوات الفكرية والثقافية التي كانت تقام في مختلف النوادي الفكرية والأدبية التونسية.

ج-1-أ- الطلبة الميزابيون والمساهمات الأدبية والثقافية:

ولهذا كان الطلبة الميزابيون في تونس متابعين للحراك الثقافي التونسي ومساهمين فيه، من خلال كتاباتهم المتنوعة على صفحات الجرائد التونسية، أو المشاركة في المناظرات الأدبية والشعرية التي كانت تقام.

فوجد الشاعر مفدي زكريا منذ سنة 1925م، ينشر على صفحات الجرائد التونسية قصيدة لاقت الإعجاب من كل التونسيين بل والمغاربة، نظراً لعمق القصيدة المنشورة وأثرها في نشر الوعي النضالي ووحدة المغرب العربي، وكان عنوان القصيدة " إلى الريفيين " ونشرت عبر جريدة "لسان الشعب" وجريدة " الصواب"، ومن أبيات هذه القصيدة:

يهون عليه ركوب الخطر	بني من كان يهوى الحياة
لقوم، سوى فوق هام آخر	فعرش السعادة لا يبتنى
ضحايا نفوس وسجن أسر	وبين البلاد ودستورها
تلوح سنابكها بالشرر	وما الفخر إلا على ضمّر
على رشف الكأس صبر ¹	ولن يبلغ العز إلا الذي

¹ - محمد ناصر: مفدي زكرياء، المرجع السابق، ص-ص(83-85).

وكان مفدي زكرياء أيضاً من خلال تواجده في تونس، قد كون علاقات متينة مع العديد من الشخصيات الأدبية والثقافية في تونس مثل الشاعر التونسي أبو القاسم الشابي، الذي وصلته به صداقة حميمة، ساعدت على ربطها بينهما أيام الدراسة بجامع الزيتونة وجلسات السمر، والمطالعة وندوات الشعر، التي جعلت كلاهما يتأثر بالآخر.، ونشر مفدي زكريا أيضاً العديد من القصائد عبر صفحات الجرائد التونسية، مساهما بذلك بقسط كبير في الحياة الأدبية التونسية¹.

ومن هؤلاء الشعراء أيضاً الذين ساهموا بشعرهم نجد: الشاعر صالح بن إبراهيم باجو عليه رحمة الله²، الذي ترك منتجاً أدبياً قيماً في مجال الشعر، وأغلب قصائده قد كان دونها أثناء تواجده بتونس، وألقاها في المحافل التونسية، أو عبر أثر الإذاعة التونسية، ولقد نال أيضاً العديد من الجوائز الأدبية نظير مشاركته المتميزة في ميدان الشعر، ونجد من بين عناوين قصائده التي جمعت في كتاب تحت عنوان " لبيك يا وطني"، وهذه نماذج منها:

عنوان القصيدة	المناسبة التي أُلقيت فيها
العيد والثورة	أُلقيت بالإذاعة التونسية يوم 30 أبريل 1957
العيد والجزائر الدائمة	أُلقيت بالإذاعة التونسية بمناسبة عيد الأضحى
الذكرى الثانية للثورة الجزائرية العتيدة	كتبت بتونس يوم 1 نوفمبر 1956م
مأساة ساقية سيدي يوسف	أُلقيت بالإذاعة التونسية
طلوع الفجر	أُلقيت بدار البعثة، في تجمع طلابي متنوع
وحدة المغرب العربي	أُلقيت يوم 6 فيفري 1957م، بمناسبة المحاضرة التي ألقاها الشاعر والأديب التونسي "مصطفى خريف" حول "أدب القومية العربية في المغرب العربي الكبير ما بين الحربين العالميتين" .. بقاعة ليسي كارنو. ³

وكان العديد من الشعراء الميزابيين أيضاً قد شاركوا في الإنتاج الأدبي بتونس على غرار مفدي زكريا وصالح باجو، فنجد أيضاً الشاعر صالح خرفي الذي نشر العديد من القصائد والمسرحيات على صفحات الجرائد التونسية المختلفة، ونذكر منها:

¹ - للاطلاع أكثر حول مساهمات مفدي زكرياء في الصحافة التونسية، ينظر: الجدول، الصفحة 142.

² - الشيخ و الشاعر صالح إبراهيم باجو، كان لنا معه لقاء ببيته بمدينة القراة يوم 31 ديسمبر 2013م، ولقد كان رغم كبر سنه ومرضه، ذو ذاكرة جيدة، ويتذكر ذكريات أيام تواجده بالبعثة الميزابية بتونس ضمن البعثات البيوضية، وكان من الطلبة النجباء وتحصل على الشهادة الزيتونية، وتحصل على جوائز من الهيئات التونسية، توفي الشيخ صالح باجو يوم 9 أبريل 2015م، بعد مرض ألم به رحمة الله عليه.

³ - صالح إبراهيم باجو: لبيك يا وطني، ط1، نشر جمعية التراث، غرداية، 2010م. ينظر كله.

عنوان المقال	نوعه	اسم الجريدة
فتى العروبة	شعر	الندوة
سلاحنا وسلاحهم	شعر	الندوة
عيد ولا عيد	شعر	الصباح
الجنون الذري	شعر	اللغات
أطلس المعجزات	شعر	الفكر
الحرية في الشعر الجزائري، أربعة أجزاء	مقالات	الفكر ¹

فساهم هؤلاء الشعراء وغيرهم من الميزابيين في الحياة الفكرية والأدبية التونسية، وجاعلين في المرتبة الأولى قضيتهم الوطنية الجزائرية، فكانت جل مشاركتهم تحمل هم القضية الجزائرية، والتعريف بها في كل المحافل الأدبية أو الفكرية، أو عبر الجرائد والمجلات والإذاعات من أجل توصيل صوتهم إلى كل مرتبة يستطيعون إدراكها.

ج-1-ب- مجلة الوفاق:

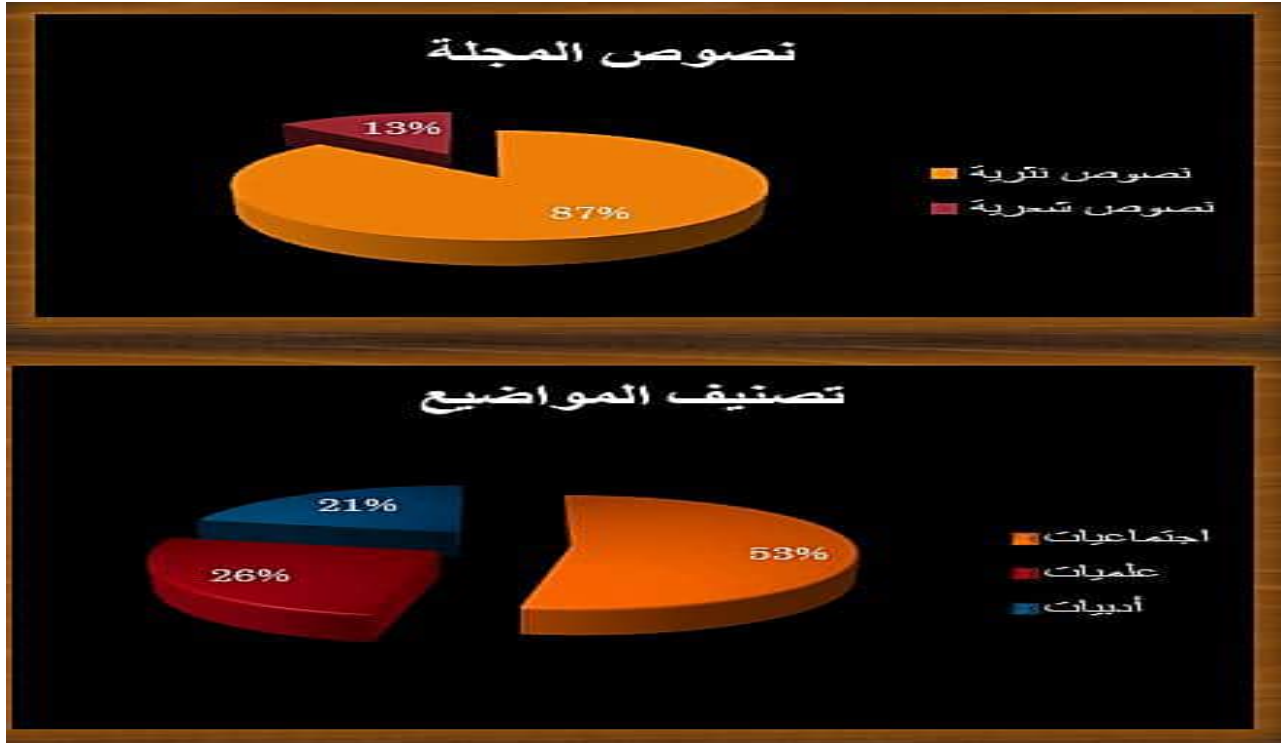
ونجد أيضاً أن طلبة البعثة لم تكن مساهماتهم في الكتابات المنشورة عبر صفحات الجرائد التونسية وفقط، فقد تحفوا الساحة الطلابية التونسية بمجلة يصدرونها، والتي كان يعتني بها ويتكفل بها كل من الطالبين مفدي زكرياء ورمضان حمود، والتي كانت من سنة 1925م إلى غاية 1930م².

وأغلب مواضيع هذه المجلة تكتب من طرف تلاميذ البعثة الميزابية، وتنوعت محتوياتها بين عالم الاجتماعيات الذي كان يضم أحوال المسلمين والعلم والتعليم والأخلاق وغيرها من المواضيع في هذا الجانب، وعالم العلوم الذي ضم الظواهر الطبيعية والفيزياء والكيمياء والانجازات العلمية المختلفة، عالم الأدبيات يحتوي على القصائد والأشعار والخواطر والحكم، وعالم المسامرات الذي يضم أسئلة ومسابقات وألغاز وغيرها.

¹ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: نشاط الميزابيين في الصحافة الوطنية التونسية، المرجع السابق، ص-ص(251-252).

² - مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية، المصدر السابق، ص14.

والمخطط الموالي يوضح نسبة نوعية نصوص المجلة (نصوص شعرية، نصوص نثرية)، وأيضاً نسبة تصنيف المواضيع.



مخطط يوضح نسبة نوعية النصوص المنشورة، ونسبة أنواع المواضيع المنشورة.¹

فكان من أبرز كتاب المجلة: مفدي زكريا، رمضان حمود، عيسى بن عبد الله، أحمد بن الحاج يحيى، سالم بن يعقوب، ذواق إبراهيم، سليمان الباروني، أبو راس عبد الله، محمد بن بكير، محمد بن يوسف اطفيش، بوزملاّل سليمان، عبد الله بغباجة، سليمان بوجناح.²

ج-2- المساهمة في المجال العلمي:

لم تختلف الإسهامات العلمية للميزابيين في تونس عن الإسهامات الثقافية، فلقد أحيوا الحياة العلمية التونسية بالعديد من الإنتاجات والنشاطات، ولقد أعتبر الميزابيون مقارنة بالجموعات الجزائرية الأخرى المهاجرة بتونس، أكثر حيوية وأكثر ثقافة.³

¹ - عمر بن بالحاج داود: قراءة لعينة من أعداد الوفاق، محاضرة غير منشورة، بني يزقن يوم 7 أكتوبر 2011م، ولقد استعمل 26 عينة من المجلة (ع:12/ع:39) باستثناء الأعداد 17.18.20.

² - عمر بن بالحاج داود: المرجع السابق.

³ - مختار هواري: المرجع السابق، ص7.

ج-2-أ- مكتبة الاستقامة ودورها في الحراك العلمي والفكري التونسي:

كان الشيخ محمد بن صالح الثميني والشيخ قاسم بن عيسى والشيخ أبي اليقظان يملكان مكتبة تسمى "مكتبة الاستقامة"، وكانت عبارة عن شركة تجارية لبيع الكتب، وكان لها الفضل الكبير في تزويد المثقفين التونسيين والجزائريين، لما يجد في عالم المطبوعات العربية¹.

وأيضاً إلى جانب المكتبة هناك مطبعة للكتب في حي glaciers، فقامت كل من المكتبة و المطبعة بدور هام في الحركة النهضة الفكرية والعلمية بتونس والجزائر، من خلال المطبوعات الفكرية والعلمية والأدبية التي كانت تصدرها أو تجلبها من مختلف البلاد العربية. وكانت عبارة عن همزة وصل بين تونس والجزائر، يبعث منها إلى قادة النهضة بميزاب وأبناء الحركة الوطنية بتونس، والمشرق، وما يصدر هناك من مطبوعات فكرية وأدبية².

ونجد في وادي ميزاب، أن قادة النهضة الإصلاحية اهتموا بجلب المنتج الفكري والأدبي إلى واديهما، فوقع التنسيق بينهم وبين رفقائهم في تونس لموافاتهم في هذا المجال، فكان لمعهد الحياة بريد خاص يصله أسبوعياً من تونس يحوي هذه الجرائد والمجلات، وكان قادة الإصلاح وطلبة المعهد ينتظرونه بشغف وحب واشتياق لينهلوا من الجديد³.

ومن مهام المطبعة والمكتبة أيضاً كان طبع جريدة أبي اليقظان "وادي ميزاب"، التي كانت تحرر في الجزائر وتطبع في تونس، ولكن الشيخ أبي اليقظان انفصل عن هذه الشركة - المكتبة والمطبعة - بعد أن تم مصادرة جريدة وادي ميزاب⁴.

ولم تكن المكتبة ناشرة للعلم والمعرفة فقط، فنجدها أيضاً كانت تلعب دوراً هاماً في الحياة السياسية التونسية، وذلك راجع لدخول مسؤوليها في معترك النضال الوطني التونسي، إذ كانت مجتمعة للأحرار من الوطنيين، وبخاصة أعضاء الحزب الدستوري التونسي⁵.

لذلك عندما قام الرئيس الحبيب بورقيبة مؤسس الحزب الدستوري الجديد بشن حملة على خصومه، بعد أن أنتخب رئيساً لجمهورية تونس أمر أعوانه بتتبع خصومه أينما كانوا وحشماً حلوا إلا مكتبة الاستقامة التي كان يملكها الشيخ محمد الثميني قال لهم: «فلا أسمح لأحد منكم بدخولها مهما كان الشخص الذي هو فيها، لأن

¹ - محمد ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، المرجع السابق، ص 180.

² - جمعية التراث: المرجع السابق، ج 4، ص 804.

³ - قاسم بن أحمد الشيخ بالحاج: معالم النهضة الإصلاحية، المرجع السابق، ص 272.

⁴ - محمد ناصر: أبو اليقظان وجهاد الكلمة، ص 180.

⁵ - جمعية التراث: المرجع السابق، ج 4، ص 804.

هذه المكتبة كانت في عهد الحماية مأوى لكل الأحرار»¹، وظل الرئيس التونسي الحبيب بورقيبة يتعهد المكتبة بالزيارة كل سنة، اعترافاً منه على جهود صاحبها وأياديه البيضاء على تونس في كل الجوانب العلمية والثقافية والنضالية².

ج-2-ب- دورة الطلبة الميزابيين في تغيير قرار معهد الزيتونة في الاعتراف بشهادة معهد الحياة³:

كان الطلبة الميزابيين على طول الفترة التي قضاها في تونس، وخاصة إذا تحدثنا عن انحراطهم في الدراسة بجامع الزيتونة، منتسبين أحراراً فقط، ولم يكونوا يدرسون بالطريقة النظامية ومسجلين كباقي الطلبة الآخرين، حيث لم يتحصل معظمهم على الشهادات التي كانت تمنح من طرف جامع الزيتونة في تلك الفترة، كشهادة التحصيل أو الأهلية أو العالمية، والسبب في ذلك هو أن الطلبة الميزابيين كانوا لا يتابعون جميع الدروس التي تلقى في جامع الزيتونة، بل كان أغلبهم يذهب إلى هناك لتقويم اللسان ودراسة التاريخ العام وبعض العلوم الشرعية الأخرى على كبار مشايخ الزيتونة، ولقد كانت الشهادات لا تعطى إلا لمن أتم جميع الدروس وواظب عليها وتفوق فيها.

وقد كان الطلبة الميزابيون يختارون بعض الحلقات التي يشرف عليها كبار العلماء والفقهاء من الزيتونة ويحضرونها كطلبة علم مستمعين فقط، ومع هذا فلقد تحصلوا على إجازات من طرف مشايخ الزيتونة في مختلف الفنون والعلوم، فلقد كان الشيخ محمد بن يوسف الحنفي (مفتي الحنفية) يسهر مع تحضير الدروس إلى وقت متأخر من الليل فتقول له زوجته: قم لتنام، فيقول لها: " كيف ينام من يصبح بين أسد وغمر"، ويعني بالأسد الشيخ أبي اسحاق اطفيش وبالنمر الشيخ يوسف بن بكير هو علي، وغيرهم من الطلبة النجباء الذين لا يسكتون على محاججته كلما ظهر خطأ أو تناقض في كلامه⁴.

فنجد على سبيل المثال بعض الإجازات التي تلقاها الشيخ بكير بن محمد أرشوم من طرف بعض مشايخ الزيتونة، ومنها:

إجازة الشيخ: محمد بن عمر الزغواني يوم 29 جوان 1954م، وكانت في علم التفسير، ومما جاء فيها «...سمع مني الشيخ الفاضل المجاز أبواباً كثيرة من كتاب الإيمان من الصحيحين وتفسير سورة يونس وبعضاً من تفسير سورة هود من تفسير أنوار التنزيل للقاضي البيضاوي أجزته في الباقي من الكتب الثلاثة إجازة تامة بالعموم

¹ - عيسى قرقب: المرجع السابق، ص 86.

² - محمد ناصر: الشيخ القراي حياته وآثاره، ص 191.

³ - معهد الحياة بالقرارة، من أبرز مظاهر ونتائج الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب، تأسس على يد جملة من المصلحين والعلماء بمنطقة وادي ميزاب، ولعل من أبرزهم الشيخ إبراهيم بيوض وكان ذلك في يوم 21 ماي 1925 في حفل بهيج أقيم بمنطقة القرارة، ولقد درس في هذا المعهد كبار العلماء والفقهاء الإباضيين، وخرج جملة من الطلبة النجباء كانت منهم لهم بعثات علمية إلى تونس. ينظر: سعيد بن الحاج شريفي: معهد الحياة نشأته وتطوره، تح: محمد ناصر، ط2، نشر جمعية الحياة وجمعية التراث، 2009م، ينظر كله.

⁴ - أحمد بن حمو كروم: يوسف بن بكير حمو علي (1887/1984) حياته وآثاره، المرجع السابق، ص 16.

متصفه، وبلاستغراق ملتحفه، على الشرط المعتر عند أهل الأثر في ذلك بتقوى الله العظيم في السر والعلن والظن أنه لا ينساني من دعواته الصالحة في مظان الإجابة...».

إجازة الشيخ: علي التريكي يوم 1 أفريل 1955م، وكانت في علم القراءات، وجاء فيها:«... فعلم القراءات من أفخر العلوم قدرا، وأعلاها ذكرا، وأتمها ثبوتة وأجرا، وكان ممن كرع من زلاته وروى من صفاء كماله، الفقيه النبيه النجيب ابننا الروحي الشيخ بكير ابن الأجل محمد أرشوم فقرا على العبد الفقير حزبا وربعا بقراءة الإمام نافع ابن أبي رؤيم ومضمن ما في كتاب الدرر اللوامع للعام المقرئ الشيخ أبي الحسن سيدي علي الرباطي المعروف بابن بري بشرح الطود الهمام الشيخ سيدي إبراهيم المارغني شيخ القراء والمقرئين بالجامع الأعظم...، فأقول وبالله بلوغ المأمول قد أجزت لابننا المذكور في الإقراء بقراءة الإمام نافع عن طريق أبي نشيط عن قالون...»¹.

لكن الطلبة الميزابيين بعد ذلك قرروا الدخول إلى جامع الزيتونة بصفة رسمية للحصول على الشهادات العلمية التي يقدمها هذا الصرح العلمي وإكمال الدراسات العليا به، وهو ما يرويه الشيخ صالح باجو الذي كان من أوائل الطلبة الميزابيين الذين تحصلوا على شهادة العالمية من جامع الزيتونة فيقول: «... كنا ندرس في جامع الزيتونة في نظام الحلقات، فكنا نختار بعض المشايخ كالزغواني واللقاني والطاهر بن عاشور وغيرهم من العلماء ونجلس للاستماع على دروسهم والاستفادة منها، وبعد ذلك قررنا نحن الطلبة الميزابيين في تقديم طلب إلى مشيخة الزيتونة من أجل فتح امتحان معادلة لشهادة التحصيل وهي تعادل البكالوريا في نظام معهد الحياة الذي تخرج منه هؤلاء الطلبة، وبعد المشاورة التي قام بها مشايخ جامع الزيتونة في امتحان لمعادلة شهادة معهد الحياة، قبلوا الطلب المقدم من طرفنا، واشتروطوا علينا شرطا كان صعبا جدا وهو تحضير مقررات الثلاثة سنوات في ظرف شهر واحد، ولقد احتزنا في كيفية إعداد وتحضير تلك الدروس الصعبة في مختلف العلوم الشرعية وكان من ضمننا رسالة أبي زيد القيرواني وشرحها و القصيدة العاصمية والتي يفوق عدد أبياتها الألف وغيرها من العلوم في الفقه والحديث والتفسير، وهكذا قررنا نحن الطلبة وكان عددا (16) طالبا، في رفع التحدي وبدأنا التحضير لهذا الامتحان، وكنا نراجع ونحضر ليلا ونهارا، ثم شاركنا في الامتحان وكان من نصيبنا النجاح جميعا، وهكذا أصبحنا طلبة بصفة رسمية في جامع الزيتونة، وبعد ذلك حصلنا على شهادة العالمية، كل حسب تخصصه في الأدب أو العلوم الشرعية»².

¹ - محمد بكير محمد أرشوم: صفحات مشرقة من مسيرة الشيخ بكير بن محمد أرشوم، ط1، د.د.ن، 2007م، ص-ص(139-145).

² - لقاء مع صالح باجو، المصدر السابق.

وبالفعل استطاع الطلبة الميزابيون ترك بصمة علمية بجامع الزيتونة، وبعد ظهور الحكومة الجزائرية المؤقتة قامت بترسيم معهد الحياة حيث أصبحت شهادته معترف بها في جامع الزيتونة¹، وكل هذا بفضل الجهود الطلابية العلمي والفكري في رحاب الجامع وفي تونس.

ومن بين النشاطات العلمية التي قام بها الطلبة الميزابيون في تونس أيضاً، انخراطهم في اتحاد الطلبة الجزائريين بتونس الذي كان تحت إشراف جبهة التحرير الوطني، فأغنوا فيها غناء حسناً، وكانوا من أكبر أسباب نشاطها وجدواها على الثورة، وكان أغلب رؤساء الخلايا لناحية الطلبة في الجبهة منهم، اختيروا لكفاءاتهم العقلية والخلقية، فقاموا بواجبهم أحسن قيام، وكان رئيس ناحية الطلبة في جبهة التحرير هو محمد بن عمر لعساكر رئيس البعثة البيوضية في تونس، واختير لكفاءته وإخلاصه، فقام بشؤون رئاسته أحسن قيام².

ومن المهام التي كلف بها الطلبة أيضاً، هي تعليم اللاجئين الموجودين بتونس، وكما يروي الشيخ يحيى أبي اليقظان، أنه كان من ضمن الطلبة الذين كلفوا بتعليم اللاجئين بتونس، فكانوا يقومون بتعليم الأطفال والمدينين بصفة عامة في الفترة الصباحية، أما في الفترة المسائية فلقد كانوا ينتقلون إلى مراكز جيش التحرير ويقومون أيضاً بتقديم دروس لصالح أفراد الجيش الوطني³.

بفضل كل هذه الجهود التي قام بها المهاجرون الميزابيون في تونس، سواءً منهم الطلبة أو الذين كانوا يمارسون النشاطات الاقتصادية والتجارية، تمكنوا من فرض الاحترام والتقدير من كل طوائف المجتمع التونسي، سواءً العامة، أو النخبة، أو الفئة الحاكمة، فلقد كانت إسهاماتهم كما تطرقنا متعددة ومختلفة مست جل الجوانب في الحياة التونسية.

¹ - لقاء مع يحيى أبي اليقظان: المصدر السابق.

² - محمد علي دبوز: أعلام الإصلاح في الجزائر، ج3، ص276.

³ - لقاء مع يحيى أبي اليقظان: المصدر السابق.

الخاتمة

بعد دراستنا السابقة لظاهرة الهجرة الميزابية إلى البلاد التونسية، وتأثيراتها على الحياة الفكرية والسياسية التونسية خلال فترة الحماية الفرنسية على تونس 1881-1956م، توصلنا إلى النتائج التالية:

إن للرواسب التاريخية والمذهبية التي كانت بين المنطقتين منذ عهود تاريخية بعيدة، جعلت رابطة العلاقات متينة خاصة إذا تعلق الأمر بجزيرة جربة التونسية ومنطقة الجريد التونسي اللذين يعدان من مناطق التواجد الإباضي ببلاد المغرب.

إن الخدمات الجلييلة التي قدمها الميزابيون للدولة العثمانية، جعلت لديهم مكانة مرموقة في البلاد السلطاني، هذا الأمر الذي أثر على طبيعة الاحتلال الفرنسي للمنطقة وعقد معاهدة الحماية بين الطرفين، مما جعل المنطقة تشهد وضعية خاصة على باقي المناطق الجزائرية وهو ما أثر على نوعية وطبيعة الهجرة الميزابية نحو تونس.

تعد الهجرة الميزابية هجرة رجالية في أغلب الأحيان، وذلك راجع إلى طبيعة العرف الميزابي، وإلى خصائص المذهب الإباضي الذي يفرض عدم خروج المرأة من وادي ميزاب إلا لحاجة ماسة، ما أدى إلى تأثير ذلك على نوعية الهجرة وفترات تواجد الأشخاص في البلد المهاجر إليه.

كانت أغلب الهجرات التي انطلقت من وادي ميزاب، هي هجرات مؤقتة من أجل العمل وكسب الرزق والعودة إلى أرض الوطن، ونادرا ما تكون هناك الهجرة النهائية التي يستقر أصحابها في البلد المهاجر إليه، وذلك يعود إلى طبيعة التربية الروحية التي يتلقاها الميزابيون منذ صغرهم في خدمة وحب وتعمير منطقة وادي ميزاب.

لعب قانون التجنيد الإجباري الذي أصدره الاستعمار الفرنسي سنة 1912م، دورا في حركة تنقل الأفراد وخاصة الفئة الشبان التي هربت من منطقة وادي ميزاب نحو المناطق الشمالية، أو خارج الجزائر نحو تونس.

كان دور الحركة الإصلاحية بمنطقة وادي ميزاب الدور الريادي والفعال في تنظيم البعثات العلمية الميزابية نحو البلاد التونسية، وكان الشيخ أبي اليقظان رائد الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب، هو المشرف على البعثات الميزابية الأولى منذ سنة 1913م وإلى غاية سنة 1925م.

تعد الحركة النهضوية التي ابتدأت منذ عهد الشيخ أبي زكرياء يحيى الأفضلي (1714/1788م) وإلى غاية فترة الشيخ اطفيش قطب الأئمة (1821/1914م)، ذات تأثير على حركة الهجرة الميزابية إلى تونس وخاصة الهجرة العلمية .

لعب الميزابيون دورا مهما في الحركة الوطنية التونسية، وذلك من خلال انضمامهم في اللجنة التنفيذية وفي أمانة الحزب الحر الدستوري بقيادة عبد العزيز الثعالبي، وكانوا من المناضلين في الصفوف الأولى.

كان الميزابيون الممول الأول لحركة عبد العزيز الثعالبي الوطنية، وكانت الأموال التي تضخ في خزانة الحزب جلها أموال تبرع بها ميزابيون في تونس أو في الجزائر، وكان الشيخ صالح بن يحيى صاحب الريادة في هذا الميدان من خلال جولاته الميدانية بالجزائر من أجل تدعيم الحزب.

لقد اختار الميزابيون المساهمة النضال ضمن الحركة الوطنية التونسية، وخوض غمارها لأنهم كانوا يرون أن نجاح القضية التونسية هي نجاح القضية الميزابية، لأن كلاهما كان تحت نظام الحماية الفرنسية، وتحصل التونسيون على حقوقهم هو فوز لمطالب الميزابيين أيضا الذين كانوا يطالبون فرنسا تطبيق بنود المعاهدة التي أبرموها معها منذ دخولهم إلى منطقة ميزاب.

إن تيار الجمود والمعارضة الذي وقف في وجه البعثات العلمية الميزابية الأولى، كان محفزا للإصلاحيين أكثر مما كان مثبطا لهم، وذلك من خلال مواصلتهم المهمة الفكرية والعلمية من أجل تغيير الوضعية التي تشهدها وادي ميزاب من جمود فكري وتحلف علمي.

استحوذ المهاجرون الميزابيون في تونس على بعض المهن، فكانوا المستحوزين على تسيير الحمامات في تونس، وكانت جل الحمامات التونسية في نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين مستغلة من طرفهم، ويرجع ذلك إلى احترافهم لهذه المهنة منذ التواجد العثماني بالجزائر.

رغم الكثرة العددية المهمة للطلبة الميزابيين بتونس وبجامع الزيتونة، إلا أنهم لم يسعوا إلى الحصول على الشهادات العلمية التي كانت تمنح من طرف جامع الزيتونة، وكانوا يحضرون كطلبة مستمعين فقط لبعض حلقات علماء الزيتونة، واستمرت هذه الوضعية إلى غاية فترة الخمسينيات أين طلب حينها الطلبة الميزابيون من مشيخة جامع الزيتونة الاعتراف بمعادلة شهادة معهد الحياة بشهادة التحصيل لجامع الزيتونة، والانخراط في الجامعة الزيتونية بصفة رسمية.

كانت دار البعثة الميزابية في تونس، خلية علمية، وساحة فكرية، ومنتدى ثقافي شامل، جمعت بين الإنتاج الإبداعي والفكري من طرف تلاميذ البعثة كمجلة الوفاق التي أصدرها مفدي زكرياء ورمضان حمود، وأيضا من

خلال اللقاءات التي كان ينظمها المشرفون على البعثة للطلبة مع كبار العلماء والزعماء كأمثال عبد العزيز الثعالبي وعبد الحميد بن باديس والفاضل بن عاشور والعقيد عميروش وغيرهم.

لم تكن للخصوصية المذهبية التي تميز الميزابيين عن غيرهم من التونسيين من أصحاب المذهب المالكي أو المذهب الحنفي الذي كان منتشر في تلك الفترة أي تأثيرات سلبية، بل تعايش الطرفان بكل أخوة واحترام وتقدير، ولكن هذا لم يسمح بإعطاء خصوصية لهم في المحاكم الشرعية كما كان لهم في الجزائر محاكم شرعية تسير بتعاليم المذهب الإباضي.

أث الميزابيون الساحة الصحفية التونسية بكم هائل من المقالات والدراسات والقصائد، عبر مختلف مراحل تواجدهم هناك، فلقد كانت الصحف التونسية متنفسا ومنبرا فكريا وأديبا للطلبة والشخصيات الميزابية المتواجدة في تونس.

كانت المؤسسات التجارية والاقتصادية للميزابيين في تونس عبارة عن مؤسسات عائلية تضم أفراد العائلة الواحدة، وتشغل الموظفين والعمال الميزابيين في أغلب الأحيان، وهو ما شجع العديد من الميزابيين على الهجرة للعمل في تونس نظرا لهذه الخصوصية.

كانت الهجرة العلمية الميزابية إلى تونس تمتاز بطابع الفردية، فكان بعض الطلبة أو العلماء ينتقلون إلى جامع الزيتونة أو إلى جزيرة جربة، من أجل تلقي بعض العلوم من علمائها، ولكن مع نهايات الحرب العالمية الأولى تطورت هذه الهجرة إلى طابع الجماعية، وانتظمت في بعثات طلابية علمية منذ هذه الفترة إلى غاية الاستقلال.

لقد كانت البعثات العلمية الميزابية مكلفة ماليا للمشرفين عليها، لهذا نجد التكافل والتعاون والتآزر بين أفراد المجتمع الميزابي والذي يمتاز بالتنظيم الاجتماعي الهرمي المحكم، يلتف حول هذه المبادرات ويدعمها ماليا ومعنويا، وكانت العشائر الميزابية تتكفل بالطلبة التابعين إليها، وكان بعض أصحاب الأموال يتكفلون ببعض الطلبة الذي يريدون الانضمام للبعثة ولا يملكون الدعم المالي الكافي.

منذ اندلاع حرب التحرير بالجزائر، انتقل صداها إلى تونس، وكانت حينها ساحة للنشاط والنضال الثوري من خلال المنظمات المدنية والطلابية التي أنشأتها جبهة التحرير، ولم يتوانى الطلبة الميزابيون في الدخول إلى هذه المنظمات بل كانوا ضمن المسؤولين عن العديد من فروعها والمشاركين في ندواتها ومؤتمراتها خاصة الاتحاد العام

للطلبة الجزائريين، كما كان الطلبة صوت الثورة النابض من خلال المشاركة في الملتقيات والندوات الثقافية التونسية أو عبر أثر الإذاعة الوطنية التونسية أيضا من خلال إلقاء الخطب والشعر والأناشيد الحماسية.

وفي ختام الدراسة نستطيع القول أن كل هذه الإسهامات التي قدمها الميزابيون في الحياة الفكرية والسياسية التونسية، كان لها دور إيجابي وفعال على الحياة العامة التي طبعت منطقة وادي ميزاب بعد عودة هؤلاء إليها، خاصة في الميدان العلمي والفكري والسياسي، فلقد تأسست العديد من الجمعيات الإصلاحية والتعليمية، وما معهد الحياة في القرارة إلا نتاج الحركة الإصلاحية الميزابية، وأيضا في الميدان الصحفي من خلال جرائد أبي يقظان التي أتحفت الساحة الصحفية والإعلامية الجزائرية بالعديد من الجرائد الإصلاحية والوطنية، أما سياسيا فلقد كان النضال في مختلف صفوف الحركة الوطنية، وجبهة التحرير فيما بعد دليل واضح على متانة التكوين النضالي والسياسي الذي اكتسبه الميزابية بتونس.

الملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم
وعلى الله وعلى سيدنا محمد وآله
القرارة ٤٣ - ١ - ١٩٥٧

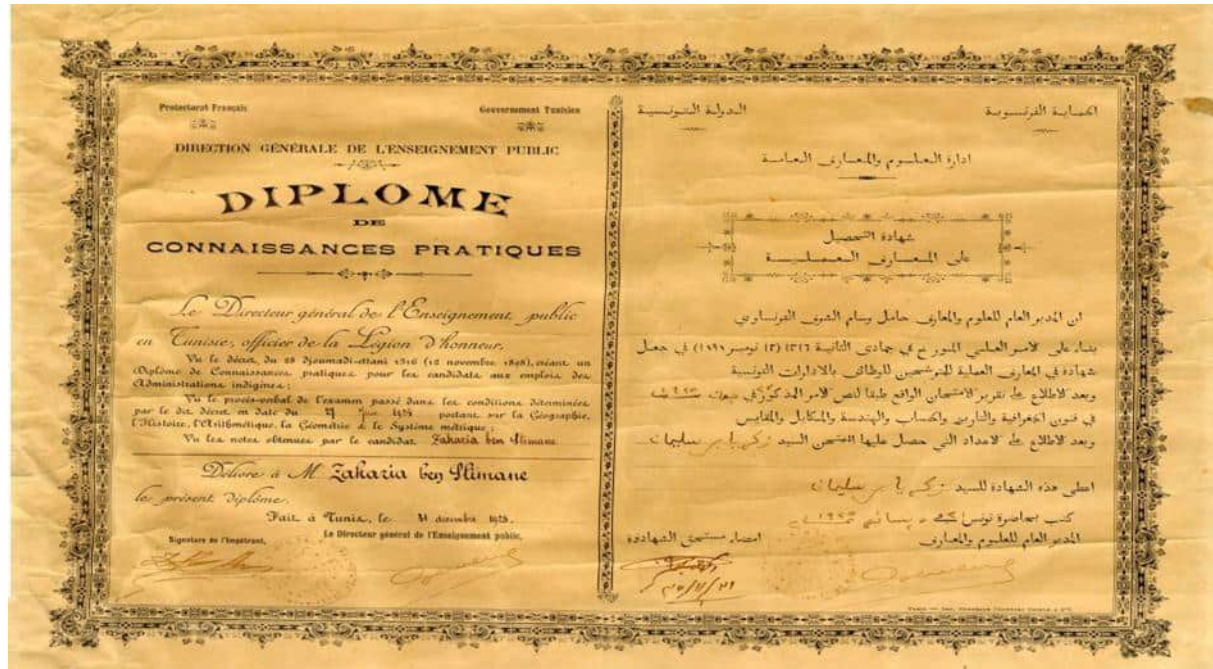
عنا الفاضل المحترم الفيلسوف السيد الحاج يحيى بن حمزة
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
وبعد فقد وصلني جوابكم فسررت باستعدادكم لخدمة
العلم، وكنت من قبل متيقنا انكم مستعدون لهذا والكثير
وقد كتبت لوكيل الجوز حال ما قرأت جوابكم فندرت
عليه تراخيه وسيبعث اليكم عنهما بطله جوابي، وارجو
ان تقول لها عبدك ان ينجدها ليكنها باسرع طريقة
يستطيعها ليسرق الى مثلهم سف ليدفعها اليه
اقترح عليه هذا فان هذه الطريقة ممكنة ومن يستطيعونها
لايجاد تلاميذهم، وقد كتب الى الجوز ليصف
انزمتهم وازمة نخار فبكت لما قرأت جوابي، وسياتيكم
من بكوش يحيى مبلغ نخار اضعه الى دراهم الجوز
فان لم يصلك فارجو ان تكتب الى بكوش النعل به
وهو مدرس في التل كما تعرف، كما ارجو ان تحبر الجوز
اذا اجدته ليضمنه وليراقب وصولها وعنوانه تجده
في البعثة هناك.
سلام على المؤلفات المحفراء، وعلى الكفنة العفراء
وعلى نفحات سوق العطارين، واماواج البحر في عام
الانف وعلى كل مجال في مدينة السمح والبعاء.
اما اعل ابن خلدون فلا تسلم على احد منهم فانهم
في البراءة اجمعين اكتبين اجمعين والسلام
منك محمد

رسالة مرسلة إلى الشيخ يحيى بن حمزة الواهج من بلدة القرارة، يوم 23 جانفي 1957م. سلمت لنا من طرف يوسف

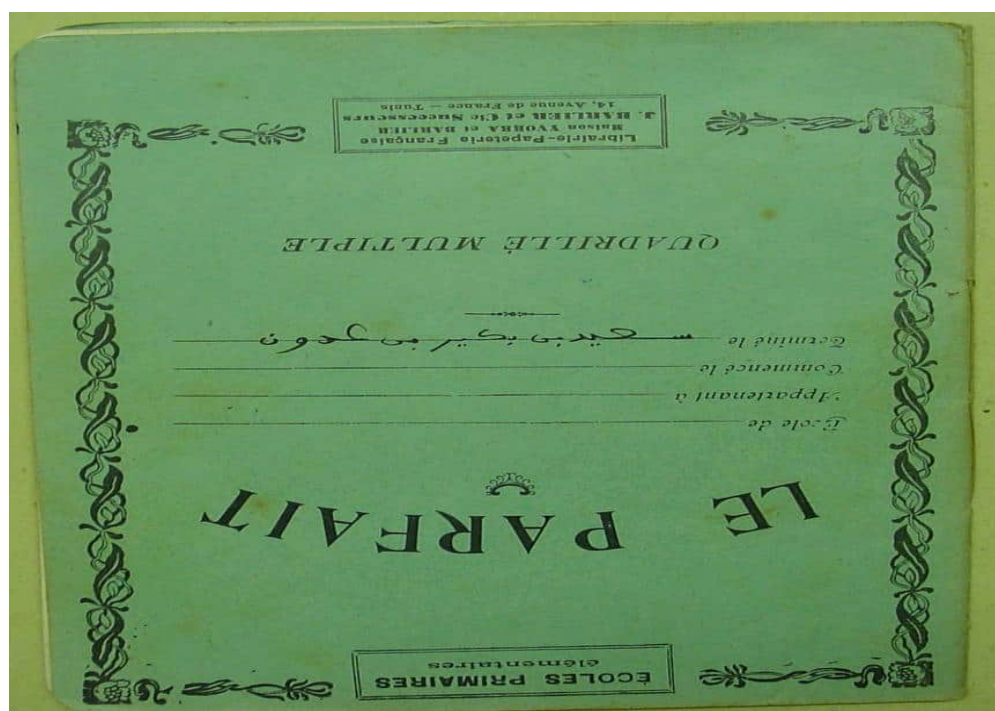
الواهج، ابن الشيخ يحيى الواهج.



شهادة التحصيل في مبادئ العلوم العربية والفرنسية من طرف المدرسة القرآنية الأهلية الحرة بتونس، سلمت
الشهادة للتلميذ مفدي زكرياء سنة 1923م.

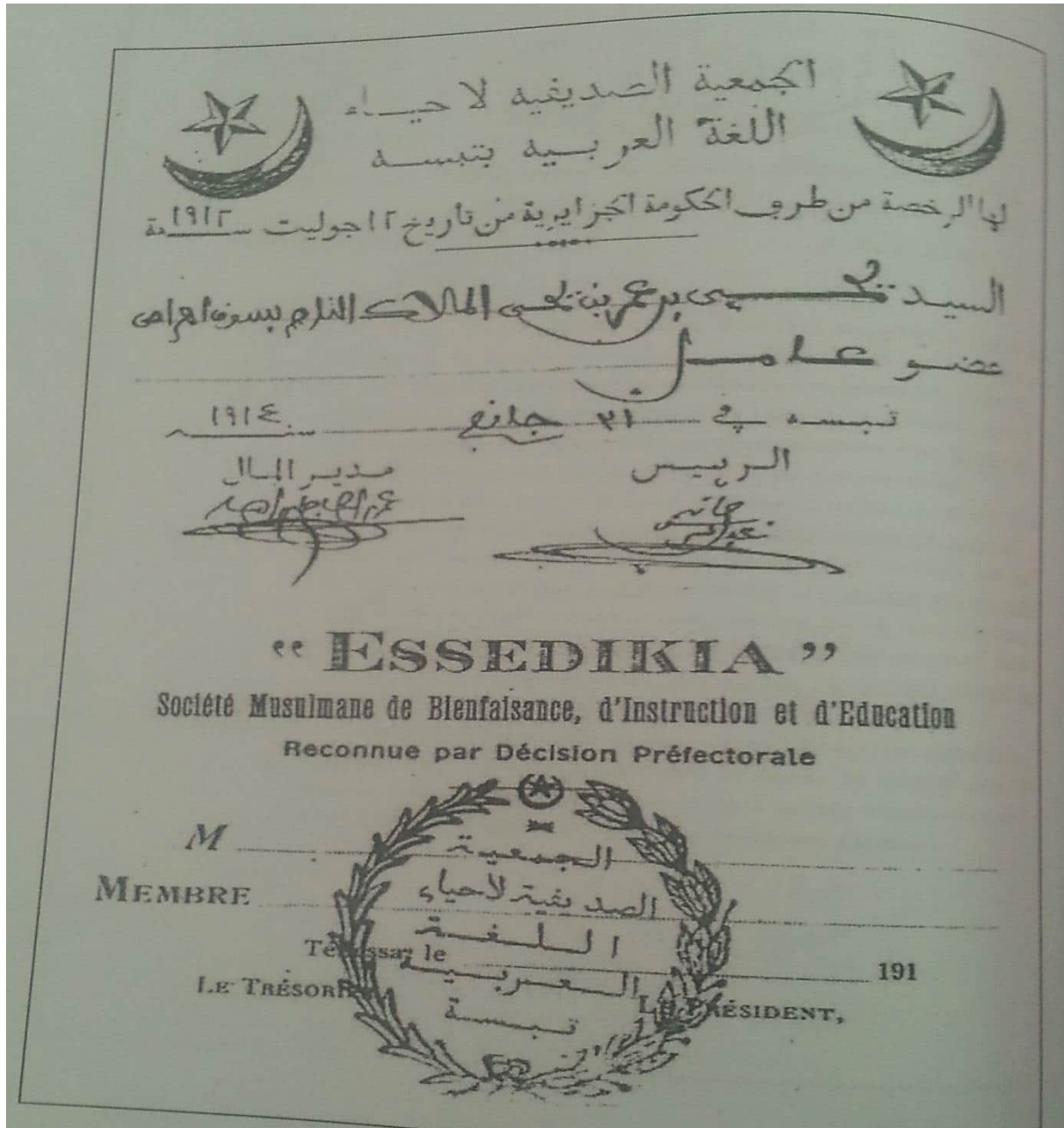


شهادة التحصيل على المعارف العملية، سلمت للتلميذ مفدي زكرياء بعد نجاحه في فنون الجغرافيا والتاريخ
والحساب والهندسة والمكاييل والمقاييس، كما هو مذكور في الشهادة، سلمت له سنة 1925م.

[illegible]

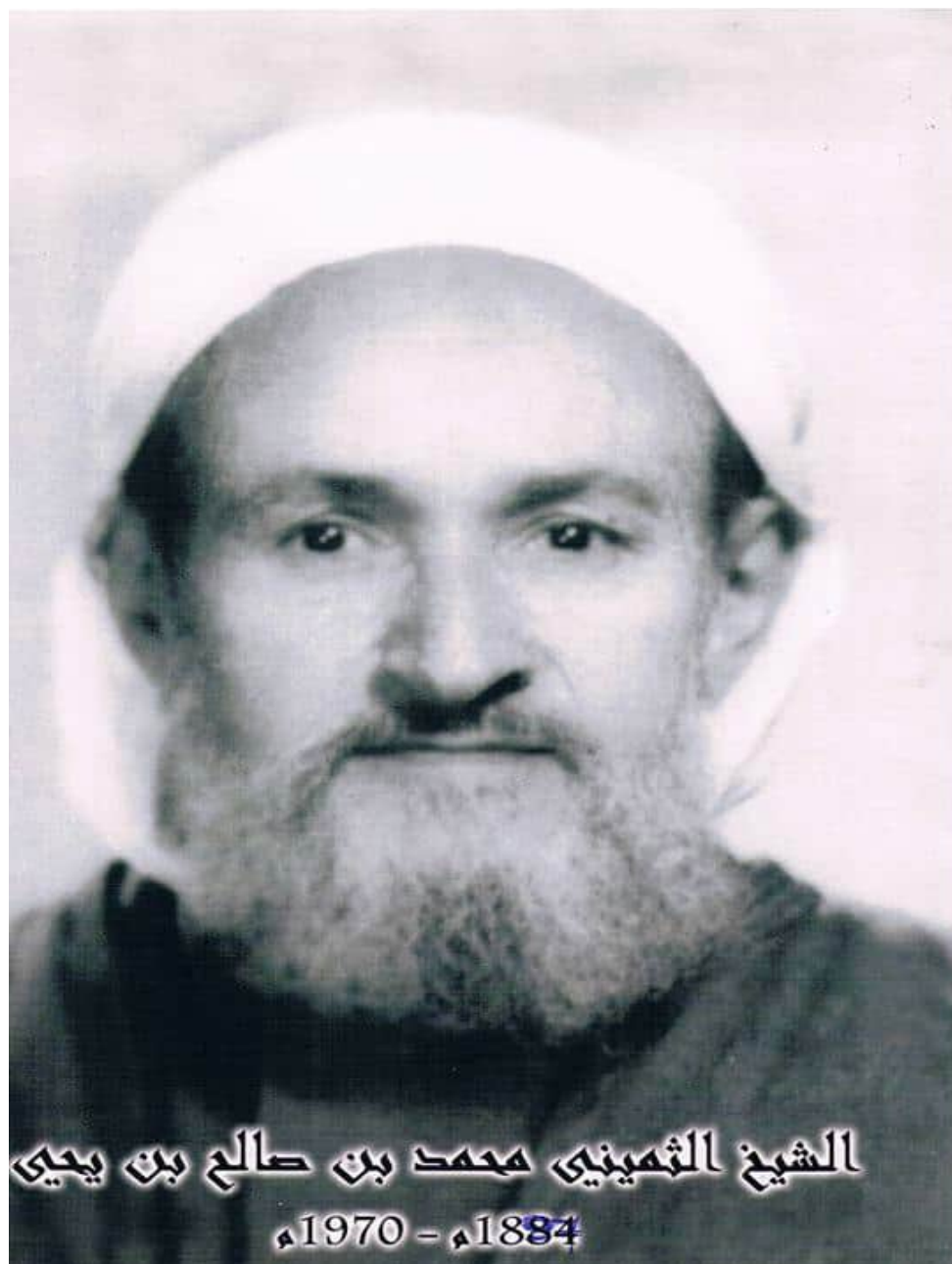
عينة لأحد كرايس المصاريف للطلبة الميزايين " الطالب سعيد بن بكير بن عدون"، سلمت لنا النسخة من طرف

الدكتور مصطفى حمودة.

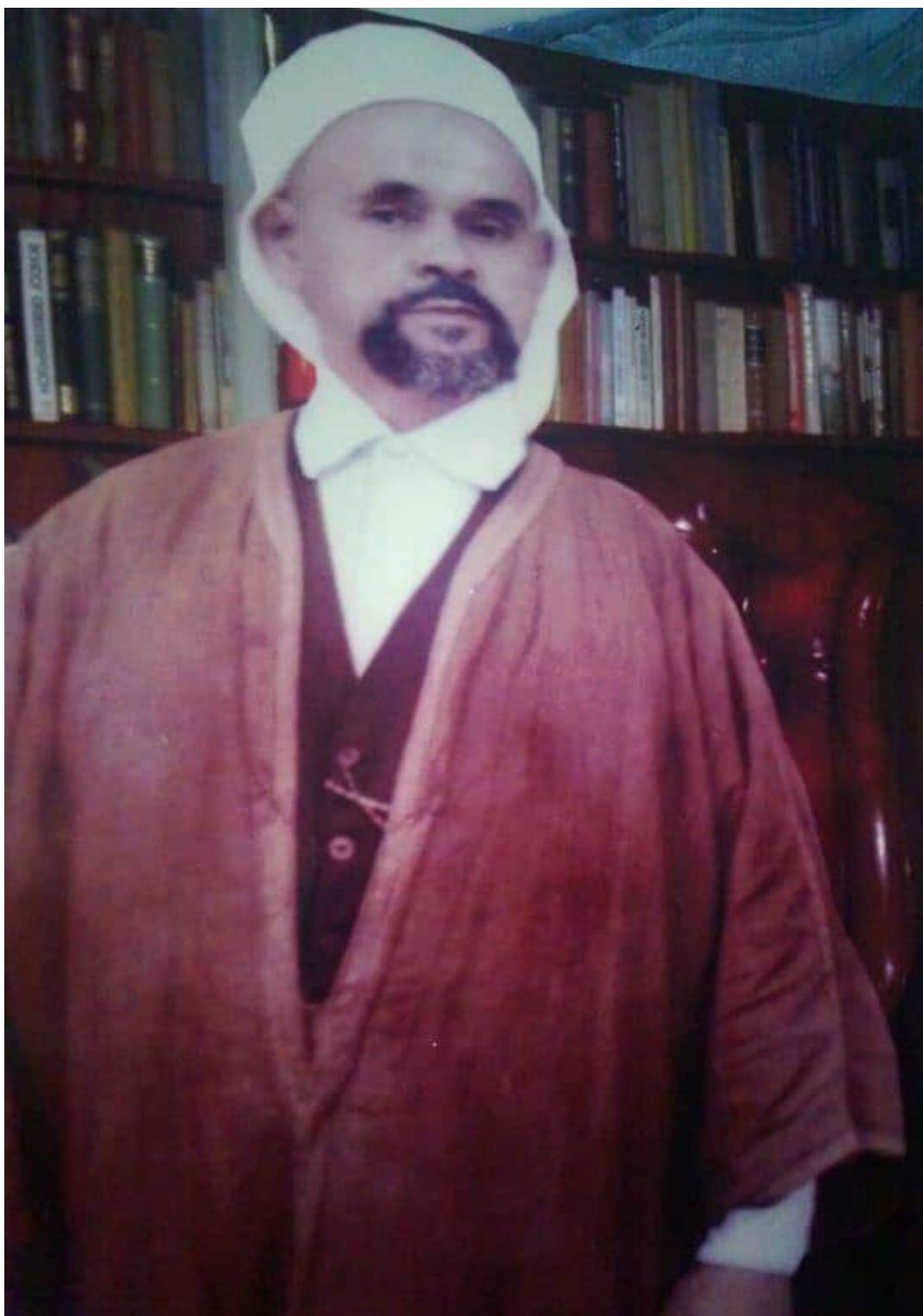


بطاقة عضوية في الجمعية الصديقية لإحياء اللغة العربية بتبسة بتاريخ 21 جانفي 1914م.

المصدر: الحاج موسى بن عمر: المرجع السابق، ص 582.



صورة للشيخ محمد بن صالح بن يحيى الثميني عليه رحمة الله، من طرف الاستاذة سناء الباروني (تونس)، ولقد سلمت لها هذه الصورة من طرف حفيدة الشيخ.



صورة للشيخ يحيى بن حمو الواهج عليه رحمة الله، الذي كان ممولا للعديد من البعثات العلمية، ومتكفلا بعدد من الطلبة الميزانيين ماديا. سلمت لنا الصورة من طرف ابنه " يوسف لواهج".

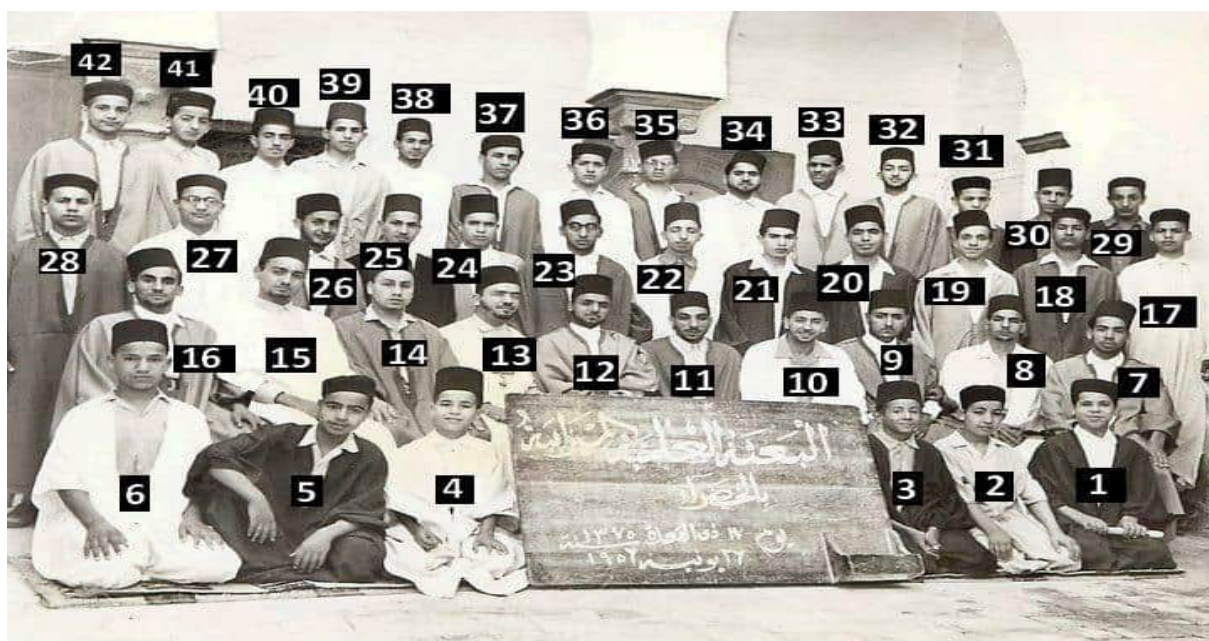


صورة لبعض قيادات الحزب الدستوري ويظهر الشيخ صالح بن يحيى أول الجالسين على يسار الصورة، صاحب البرنس والعمامة البيضاء. الصورة من طرف الدكتور يحيى بن بهون.



صورة للبعثة العلمية البيوضية إلى تونس سنة 1954م، ويظهر في الصورة الشيخ إبراهيم بيوض يتوسط الجالسين بلباسه الأبيض وعلى يمينه الشيخ محمد لعساكر رئيس البعثة، وعلى يساره الحاج يحيى بن حمو الواهج.

الملحق رقم: 08



صورة للبيعة العلمية البقظانية بتونس، سنة 1925م.



صورة جماعية للبيعة العلمية الميزابية بتونس سنة 1927م، الصورة من موقع: témoins-de-lhistoire

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ- القرآن الكريم

ب- المخطوطات:

- 1- رسالة مرسلّة إلى الشيخ يحيى بن حمّو الواهج من بلدة القرارة، يوم 23 جانفي 1957م. سلمت لنا من طرف يوسف الواهج، إبن الشيخ يحيى الواهج.
- 2- نسخة عن كرايس أحد الطلبة الميزابيين بتونس (سعيد بن بكير عدون)

ج- الوثائق الأرشيفية:

- 1- A.N.T: S: A, C: 0001, DOC: 2/17.
- 2- I.S.H.M.N. Dossier 199 , doc04875 , Cartons 26 H 9 Bobines A 58 05/10/1955.
- 3- I.S.H.M.N. Dossier 199 doc1866/s , Cartons 26 H 9 Bobines A 58 26/10/1955.

د- المقابلات الشخصية:

- 1- لقاء شفوي مع الشيخ صالح بن إبراهيم باجو، يوم 31 ديسمبر 2013م، على الساعة 10 صباحا، ببيته بالقرارة.
- 2- لقاء شفوي مع الشيخ يحيى أبي اليقظان، يوم 31 ديسمبر 2013م، ببيت الشيخ صالح باجو، بالقرارة.

هـ - المصادر باللغة العربية:

- 1- أبي اليقظان إبراهيم عيسى: تاريخ صحف أبي اليقظان، تق، تع: محمد ناصر، د.ط، دار هومة، 2003م.
- 2- أبي اليقظان إبراهيم عيسى: ارشاد الحائرين، مطبعة العرب، تونس، 1923م.

- 3- أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر: كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح: اسماعيل العربي، المكتبة الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1979.
- 4- ابن عاشور محمد الفاضل: الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ط3، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م.
- 5- الأزدي أبوبكر بن محمد: جمهرة اللغة، تح: رمزي منير البعلبكي، ط1، دار العلم للملايين، بيروت، ج2، 1987م.
- 6- الجرجاني علي بن محمد: كتاب التعريفات، ط1، تح: جماعة علماء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983م.
- 7- الجزري مجد الدين: النهاية في غريب الحديث والأثر، تح: طاهر أحمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ج5، 1979م.
- 8- الزبيدي محمد بن محمد: تاج العروس من جواهر القاموس، د.ط، تح: مجموعة محققين، دار الهداية، د.م.ن، ج14، د.ت.
- 9- الفراهيدي الخليل بن أحمد: كتاب العين، تح: مهدي المخزومي، إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، ج6.
- 10- الفيروزآبادي: القاموس المحيط، تح: محمد نعيم العرقسوسي، ط8، مؤسسة الرسالة، لبنان، 2005م.
- 11- الفيومي أحمد بن محمد: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، د.ط، المكتبة العلمية، بيروت، ج2، د.ت.
- 12- الكاملي أبي راس عبد الله بن محمد: أسحق إبراهيم أطفيش، د.ط، الشهاب، قسنطينة، 1966م.
- 13- المدني أحمد توفيق: حياة كفاح مذكرات، ج1، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2010م.
- 14- الميورقي أبي نصر: تفسير غريب ما في الصحيحين البخاري ومسلم، ط1، تح: زبدة محمد سعيد، مكتبة السنة، مصر، 1995م.
- 15- النووي محي الدين يحيى بن شرف: تحرير الفاظ التنبيه، ط1، تح: عبد الغني الدقر، دار القلم، دمشق، 1987م.

- 16- الهنائي علي بن الحسن: المنجد في اللغة والأعلام، ط 28، منشورات دار الشروق، بيروت، 1986م.
- 17- بفايفر سيمون: مذكرات جزائرية عشية الاحتلال، تر: ابو العيد دودو، دار هومة، الجزائر، 2009م.
- 18- بكلي عبد الرحمن بن عمر: جمهرة رسائل البكري، نشر مكتبة البكري، المطبعة العربية، غرداية، 2007م.
- 19- بكلي عبد الرحمن بن عمر: تقارير البكري حول مدرسة وجمعية الفتح للتربية والتعليم في بريان، المطبعة العربية، غرداية، 2009م.
- 20- بن ابراهيم عمر بن عيسى: بيان حقيقة عن التجنيد الاجباري وما نتج عنه بوادي ميزاب، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1350هـ.
- 21- بن عبد الكريم محمد: حكم الهجرة من خلال ثلاث رسائل جزائرية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 22- بن منظور: لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت، ج5، 1994م.
- 23- بن بهون يحيى: رحلة القطب، تح: يحيى بن بهون، ط1، غرداية، 2007م.
- 24- بن بهون يحيى: رحلة المصعبي، تح: يحيى بن بهون، ط1، غرداية، 2006م.
- 25- خرفي صالح: من أعماق الصحراء، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1991م.
- 26- خوجة حمدان بن عثمان: المرأة، تق-تع-تح: محمد العربي الزيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.
- 27- دبوز محمد علي: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج1، ج2، ج3، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م.
- 28- دبوز محمد علي: أعلام الإصلاح في الجزائر من عام 1340هـ/1921م إلى عام 1395هـ/1975م، ط1، ج1، ج2، ج3، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م.
- 29- مفدي زكرياء: تاريخ الصحافة العربية في الجزائر، تح: أحمد حمدي، مؤسسة مفدي زكرياء، دار هومة، الجزائر، 2003م.

30- مؤلف مجهول: سيرة المجاهد خير الدين بربروس، تح: عبد الله حمادي، دار القصبة، الجزائر، 2009م.

31- ناصر محمد: الشيخ القرايحي حياته وآثاره، ح1، نشر جمعية النهضة، العطف، غرداية. د. ت.

و- المصادر باللغة الأجنبية:

1- Le commandant robin: **le Mzab et son annexion a la France**,
imprimeur libraire de l'académie, Alger, 1884.

ز- المراجع باللغة العربية:

1- اجيرون شارل روبير: الجزائريون المسلمون وفرنسا 1871.1919، ج2، تر: حاج مسعود بلعربي، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2007م.

2- اجيرون شارل روبير: تاريخ الجزائر المعاصرة، تر: عيسى عصفور، ط2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.

3- أرشوم محمد بكير محمد: صفحات مشرقة من مسيرة الشيخ بكير بن محمد أرشوم، ط1، د. د. ن، 2007م.

4- اعوش بكيير بن سعيد: وادي ميزاب في ظل الحضارة الاسلامية دينيا تاريخيا، اجتماعي، المطبعة العربية، غرداية، 1991م.

5- اسماوي صالح بن عمر: العزابة ودروهم في المجتمع الاباضي بميزاب، ج1، ج2، ط1، مطبعة الفنون الجميلة، الجزائر، 2008م.

6- الجابري محمد الصالح: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس (1900-1962)، د. ط، دار الحكمة، الجزائر.

7- الجابري محمد الصالح: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962م، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983م.

- 8- الحاج سعيد يوسف بن بكير: تاريخ بني ميزاب دراسة اجتماعية واقتصادية وسياسية، ط2، المطبعة العربية، غرداية، 2006م.
- 9- السائحي عبد القادر موهوبي: ومضات تاريخية واجتماعية لمدن وادي ريغ وميزاب و ورقلة والطيبات والعلية والحجيرة، دار البصائر، الجزائر، 2011م.
- 10- السقار منقذ بن محمود: الاستعمار في العصر الحديث ودوافعه الدينية، موقع المكتبة الشاملة الالكترونية.
- 11- الشيخ بالحاج قاسم بن احمد: معالم النهضة الإصلاحية عند اباضية الجزائر 1157هـ/1744م إلى 1382هـ/1962م، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 2011م.
- 12- الشيخ بالحاج قاسم بن أحمد: الشاعر صالح الخرفي صفحات في مساره الفكري والأدبي، ط1، نشر جمعية أنغام الحياة الثقافية القرارة، 2014م.
- 13- الشيخ بالحاج قاسم بن أحمد: أقلام الميزابيين في الصحافة التونسية 1920-1962م، ط1، نشر جمعية التراث، غرداية، 2006م.
- 14- المسيري عبد الوهاب: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ج19.
- 15- الماجري عبد الكريم: هجرة الجزائريين والطرابلسية والمغاربة الجواننة إلى تونس (1831-1937)، ط1، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرسم، تونس، 2010م.
- 16- المليي مبارك: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر.
- 17- الهاشمي سعيد بن محمد بن سعيد: العلاقات الثقافية العمانية الجزائرية في العصر الحديث من خلال فكر الشيخ قطب الائمة ابن اطفيش، منشورات مخبر البحث التاريخي "مصادر وتراجم"، جامعة وهران، ط1، 2013م.
- 18- المليي مبارك بن محمد: تاريخ الجزائر في القديم والحديث، تق، تص: محمد المليي، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.
- 19- باجو صالح إبراهيم: لبيك يا وطني، ط1، نشر جمعية التراث، غرداية، 2010م.

- 20- بشيشي الأمين ، عبد الرحمن بن حميدة: تاريخ ملحمة نشيد قسما، د.ط، مؤسسة مفدي زكريا، منشورات الفاء، الجزائر، 2008م.
- 21- بن ادريسو صالح: الشيخ ابراهيم بيوض في قلب الثورة، ط1، e box editions ، 2015م.
- 22- بن بهون يحي حاج احمد: ديوان ابن بحمان (الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الشميني)، دار الهدى، عين مليلة، 2007م.
- 23- بيوض ابراهيم: حياة واثار الشيخ محمد علي دبوز، ط1، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م.
- 24- بوحوش عمار: التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط1، 1997م.
- 25- بوعزيز يحي: سياسة التسلط الاستعماري والحركة الوطنية الجزائرية 1830-1954، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- 26- بوطيبي محمد: دور المثقفين الجزائريين في لحركة الوطنية التونسية ما بين 1900-1930، ط1، دار الهدى، عين مليلة، 2012م.
- 27- بوحجام محمد ناصر: أبو اليقظان في الدوريات العربية، د.ط، المطبعة العربية، غرداية، 1985م.
- 28- جمعية التراث: معجم اعلام الاباضية، ج1، ج2، ج3، ط1، المطبعة العربية، غرداية، 1999م.
- 29- حوتيه محمد الصالح: توات والازواد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007م.
- 30- حلوش عبد القادر: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، د.ط، دار الأمة، الجزائر، 2010م.
- 31- خليفات محمد: النظم الاجتماعية والتربوية عند الاباضية في افريقية في مرحلة الكتمان، مجدلاوي، د.ت.
- 32- دبوز محمد علي: تاريخ المغرب الكبير، ط1، ج2، عالم المعرفة، الجزائر، 2013م.
- 33- زوزو عبد الحميد: الدور السياسي للهجرة إلى فرنسا بين الحربين 1919. 1939، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- 34- سعد الله ابو القاسم: الحركة الوطنية الجزائرية 1900-1930، ج1، ج2، دار الغرب الاسلامي، لبنان، ط4، 1992م.

- 35- سعد الله أبو القاسم: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي، ط2، دار الغرب الإسلامي، لبنان، 1990م.
- 36- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي 1830-1954م، ج6، ط1، بيروت، لبنان، 1998م.
- 37- شافو رضوان: جوانب من السياسة الاستعمارية بالصحراء الجزائرية من خلال تقارير السلطة الفرنسية والوثائق الأرشيفية، ط1، دار قانة، باتنة، 2014
- 38- شترة خير الدين: اسهامات النخبة الجزائرية في الحياة السياسية والفكرية التونسية 1900/1939م، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2009م.
- 39- شترة خير الدين: الطلبة الجزائريون بجامع الزيتونة 1900-1956م، ج1، ج2، ج3، طبعة خاصة، دار البصائر، الجزائر، 2009م.
- 40- شريفي سعيد بن بالحاج: معهد الحياة نشأته وتطوره، تح: محمد ناصر، ط2، نشر جمعية الحياة وجمعية التراث، 2009م.
- 41- شوقي عبد الكريم: دور العقيد عميروش في الثورة الجزائرية 1954م، دار هومة، الجزائر، 2003م.
- 42- صالح باجيه: الإباضية بالجريد في العصور الإسلامية الأولى، ط1، دار بوسلامة، تونس، 1976م.
- 43- طرشون نادية وآخرون: "الهجرة الجزائرية نحو المشرق العربي أثناء الاحتلال"، سلسلة المشاريع الوطنية للبحث، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، دار هومة، الجزائر، 2007م.
- 44- عقيب السعيد: دور الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين خلال ثورة التحرير 1955-1962م، د.ط، مؤسسة كوشكار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008م.
- 45- عوادي عبد القادر عزام: هجرة سكان وادي سوف إلى تونس خلال 1912-1962 تونس العاصمة نموذجا، ط1، دار الملية، قسنطينة، 2014م.
- 46- فخار حمو بن عمر: إبراهيم بن بابا بوعروة حياته وآثاره، تق: مصطفى صالح باجو، د.ط، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، 2003م.

- 47- قداش محفوظ: تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية، تر: أحمد بن البار، ج1، ط1، دار الأمة، الجزائر، 2008م.
- 48- قنانش محمد ومحفوظ قداش: نجم الشمال الافريقي 1926-1937 (وثائق وشهادات لدراسة تاريخ الحركة الوطنية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1984م.
- 49- قوبع عبد القادر: الحركة الاصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920 و1954م، دار طليطلة، الجزائر، 2013م.
- 50- لقبال موسى: المغرب الاسلامي منذ بناء معسكر القرن حتى انتهاء ثورات الخوارج سياسة ونظم، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 51- كروم أحمد بن حمو: العلامة الجليل يوسف بن بكير حمو علي (1887-1984)، نشر جمعية الأمل للتربية والثقافة، غرداية، 1995م.
- 52- مجموعة مؤلفين: موسوعة أعلام الجزائر 1830/1954م، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م.
- 53- مجموعة من الباحثين: الجزائر في التاريخ العهد الاسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 54- مجموعة من الباحثين: معجم مصطلحات الاباضية، ج1، ج2، ج3، ط2، دار الوعي، الجزائر، 2012م.
- 55- محمد بن قاسم ناصر بوحجام: حياة الشيخين الحاج ابراهيم الابركي، الحاج عمر بن يحيى رحمهما الله، الاسبوع الثقافي الثالث، جمعية شباب القدماء (القرارة)، 1979م.
- 56- مرموري حسن: التوارق بين السلطة التقليدية و الادارة الفرنسية في بداية القرن العشرين، ط1، مطبعة مزوار، الجزائر، 2010م.
- 57- مفدي زكرياء: اضواء على وادي ميزاب ماضيه وحاضره، تح: ابراهيم بحاز، ط1، منشورات الفاء، الجزائر، 2010م.

- 58- مفدي زكرياء: حصص إذاعية، تح: مطفي بكير حمودة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2007م.
- 59- مياسي ابراهيم: الاحتلال الفرنسي للصحراء الجزائرية 1837-1934م، دار هومه، الجزائر، 2012م.
- 60- مياسي ابراهيم: مقاربات في تاريخ الجزائر 1830/1962م، دار هومة، الجزائر، 2007م.
- 61- ناصر محمد: حلقة العزابة ودورها في بناء المجتمع المسجدي، مكتبة الضامري، سلطنة عمان، 1989م.
- 62- ناصر محمد: ديوان أبي اليقظان، ج1، ط1، جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، د.ت.
- 63- ناصر محمد: مفدي زكرياء شاعر النضال والثورة، د.ط، نشر جمعية التراث، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1989م.
- 64- ناصر محمد: الشيخ إبراهيم اطفيش في جهاده الاسلامي، د.ط، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991م.
- 65- نويهض عادل: معجم اعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، لبنان، 1980م.
- 66- يحيى معمر علي: الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة الاباضية في الجزائر، ط3، مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، سلطنة عمان، 2008م.
- 67- يوسف مناصرة: الحزب الحر الدستوري التونسي 1919-1934، ط1، دار الغرب الاسلامي، د.ت.

ح - أطروحات ورسائل التخرج:

- 1- الجفالي يوسف: الجالية الجزائرية بجهة الكاف من 1881 إلى 1929م، رسالة الكفاءة في البحث، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، تونس، اشراف: الكراي القسنطيني، السنة الجامعية: 1992/1993م.

- 2- بك محمد: محمد الأمين العمودي ودوره في الإصلاح من خلال جريدة الدفاع، مقدمة لنيل شهادة الماجستير في تاريخ الاوراس الحديث، اشراف: بوبكر حفظ الله، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2009/2008م.
- 3- بن جابو أحمد: المهاجرون الجزائريون ونشاطهم في تونس (1830-1954)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: يوسف مناصرية، جامعة تلمسان، 2011-2010م.
- 4- بن رايح سليمان: العلاقات الجزائرية العربية بين الحربين (1919-1939)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، إشراف صالح فركوس، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2008-2007م.
- 5- بن شوش محمد: التعليم في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي (1830-1870)، رسالة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: بن يوسف تلمساني، جامعة بن يوسف بن خدة/الجزائر، 2008/2007م.
- 6- بن عمر الحاج موسى: القضايا الوطنية والعربية الاسلامية من منظور اعلام مزاب 1902/1962، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: شاوش حباسي، جامعة الجزائر، 2008/2007م.
- 7- حاج احمد حاج ابراهيم: المؤسسة التنصيرية في الصحراء الجزائرية في نهاية القرن 19م (مزاب والاهقار نموذجاً)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: فاطمة الزهراء قشي، جامعة قسنطينة2، الموسم الجامعي: 2011-2012م.
- 8- حاج احمد نور الدين: المنهج الدعوي للإمام المغيلي من خلال الرسائل التي بعثها للملوك والأمراء والعلماء، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الشريعة الاسلامية، اشراف الدكتور: مولود سعادة، جامعة باتنة، 2011/2010م.

- 9- خليفني عبد القادر: أحمد توفيق المدني ودوره في الحياة السياسية والثقافية في تونس والجزائر(1899-1983)، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري قسنطينة، 2006-2007.
- 10- زغينة محمد: أبو اليقظان ونثره، دكتورا دولة في الأدب الحديث، اشراف: العربي دحو، جامعة باتنة، 1998-1999م.
- 11- زقب عثمان: الاوضاع الاجتماعية والاقتصادية في منطقة وادي سوف 1918-1947م وتأثيرها على العلاقات مع تونس وليبيا، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة باتنة، اشراف: يوسف مناصرية، 2005/2006م.
- 12- شايب قدارة: الحزب الدستوري التونسي الجديد وحزب الشعب الجزائري 1934-1954م دراسة مقارنة، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتورا الدولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف الدكتور: عبد الرحيم سكفالي، جامعة منتوري- قسنطينة، 2006/2007م.
- 13- عسول صالح: اللاجئون الجزائريون بتونس ودورهم في الثورة 1956-1962، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، إشراف: يوسف مناصرية، جامعة الحاج لخضر باتنة، 2008-2009م.
- 14- غنابزة علي: مجتمع وادي سوف من الاحتلال الفرنسي إلى بداية الثورة التحريرية 1888-1954م، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتورا في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عمر بن خروف، جامعة الجزائر، 2008/2009م.
- 15- فرج محمود فرج: اقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، اطروحة لنيل الدكتورا في التاريخ.
- 16- فلاحي رابح: جامع الزيتونة والحركة الاصلاحية في الجزائر 1908-1954م، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: عبد الكريم بوصفصاف، جامعة منتوري- قسنطينة، 2007-2008م.

- 17- قرقب عيسى: الامام إبراهيم بيوض رائد الحركة الإصلاحية في الجنوب الجزائري (1920-1981)، بحث دكتوراه الدولة في التاريخ الحديث والمعاصر، اشراف: ابراهيم فخار، جامعة قسنطينة، 1995-1996م.
- 18- قليل مليكة: هجرة الجزائريين من الاوراس إلى فرنسا (1900.1939)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير، اشراف الدكتور لمياء بوقريوة، جامعة باتنة، 2008/2009.
- 19- قوبع عبد القادر: الحركة الإصلاحية في منطقتي الزيبان وميزاب بين سنتي 1920-1954م، مذكرة لنيل شهادة ماجستير في التاريخ المعاصر، اشراف: مولود عومير، جامعة الجزائر، 2007-2008م.
- 20- وقاد محمد: جماعة بني ميزاب وتفاعلاتها الاقتصادية والاجتماعية بمدينة الجزائر اواخر العهد العثماني (1112هـ -1246هـ/1700م-1830م)، مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، اشراف الدكتور: فلة موساوي القشاعي، جامعة الجزائر، 2009/2010م.
- 21- haguï Jamal: **les algériens originaires du sud dans la ville de tunis pendant l'époque colonial (1881-1956) (mozabites, souafas, ouarglias)**, mémoire DEA, université de manouba, année universitaire 2003-2004.

ط - المجلات والدوريات:

- 1- أبو بكر صالح بن عبد الله: "إصلاح ذات البين وتجربة المجتمع الميزابي الإباضي في الجزائر"، مجلة الحياة، العدد 17، اوت 2013م، المطبعة العربية، غرداية، 2013م.
- 2- أبوزيد أحمد: "الهجرة واسطورة العودة"، مجلة عالم الفكر، العدد الثاني، المجلد السابع عشر، جويلية، اوت، سبتمبر 1986م، الكويت.
- 3- الشيخ بالحاج قاسم بن أحمد: "آثار النهضة العلمية التونسية في فكر الحركة الإصلاحية بوادي ميزاب خلال القرن العشرين"، مجلة الحياة، ع: 11، أكتوبر 2007م، جمعية التراث، المطبعة العربية.

- 4- الشيخ بالحاج قاسم بن أحمد: "نشاط الميزابيين في الصحافة الوطنية التونسية"، مجلة الحياة، ع: 09، أكتوبر 2005م، جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية، 2005م.
- 5- بن باحمد ناصر بالحاج: "موقف سكان وادي مزاب من التجنيد الاجباري في الجيش الفرنسي (ما بين 1912-1925)"، مجلة الحياة، العدد 11، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية.
- 6- بن عميرة محمد: "الصفريّة منذ ظهورها إلى انقراضها"، مجلة الثقافة، العدد 61، السنة الحادية عشر، يناير- فبراير 1981.
- 7- تركي رابح: "الجالية الجزائرية في اروبا وخاصة فرنسا ومشاكلها والأخطار المحدقة بإسلامها وعروبته"، مجلة الثقافة، العدد 93، الجزائر، ماي-جوان 1986م.
- 8- حمودة مصطفى بن الحاج بكير: "أبو اسحاق اطفيش الجزائري محققا كتاب " الملاحن " لابن دريد أنموذجا"، مجلة المنهاج، العدد: الأول، نوفمبر 2011م، جمعية الشيخ أبي اسحاق اطفيش لخدمة التراث، غرداية.
- 9- حمودة مصطفى بن الحاج بكير: "البعثة العلمية بتونس: أهداف وعوائق"، مجلة الحياة، ع: 17، أوت 2013م، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، غرداية.
- 10- شقرون أحمد: "دور الاحتلال الاستيطاني في سياسة فرنسا في الجزائر وفي تنظيم المستعمرة"، مجلة المصادر، العدد 17، السداسي الاول 2008م.
- 11- مريوش أحمد: "السياسة الفرنسية في الجزائر وردود الفعل الوطنية ما بين (1900/1930)"، مجلة المصادر، العدد 20، السداسي الثاني 2009م.
- 12- ناصر محمد صالح: "القيم الإسلامية في نظام التعليم بوادي ميزاب " معهد الحياة نموذجا"، مجلة الحياة، ع: 01، جانفي 1998م، نشر جمعية التراث، المطبعة العربية، الجزائر.
- 13- Amal N. Ghazal: "TENSIONS OF NATIONOMISM : THE MZABI STUDENT MISSIONS IN TUNIS AND THE POLITICS OF ANTICOLONIALISM", int. J. Middle East Studies, 47, 2015

- 14- Marty: " **les algériens à tunis**", revue I.B.LA, N43, et N44, tunis, 11ème année, 3ème et 4ème trimestre 1948.

ي - المحاضرات والمدونات:

- 1- بن باحمد ناصر بالحاج: **الصلات الثقافية بين إباحية الجزائر وتونس والإباحية بها في نهاية القرن 19م وبداية القرن 20م**، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م.
- 2- بن حراث علي: **أسباب تركيز الرحلة العلمية الجزائرية على تونس**، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م.
- 3- طلاي ابراهيم محمد: **العلاقة بين سكان جربة ووادي ميزاب**، الايام الدراسية من الشيخ عمي سعيد بن علي الجري إلى الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد، محاضرة مرقونة، مؤسسة الشيخ عمي سعيد.
- 4- مياسي ابراهيم: **التوسع الاستعماري في الجنوب الجزائري**، دراسات وبحوث الملتقى الوطني الاول حول فصل الصحراء عن الجزائر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر 1954م، دار القصبة، الجزائر.
- 5- هوارى مختار: **وضعية الجالية الميزابية بتونس خلال فترة الحماية الفرنسية عليها**، الملتقى الدولي حول التواصل بين الجنوب الشرقي الجزائري وتونس، جامعة الوادي، يومي 10-11 نوفمبر 2013م.

ك - أعمال غير منشورة:

- 1- بلغيث محمد الأمين: **فصول في تاريخ الجزائر المعاصر**، بحث غير منشور (مخ).
- 2- خواجه عبد العزيز: **قراءة في كرايس مصاريف البعثة المزابية إلى تونس**، بحث غير منشور.
- 3- داود عمر بن بالحاج: **قراءة لعينة من أعداد الوفاق**، محاضرة غير منشورة، بني يزقن يوم 7 أكتوبر 2011م.

الفهارس

فهرس الأعلام

ابراهيم بن بابا بوعروة: 124.

ابراهيم بيوض: 10، 13، 86، 97، 99، 145، 153.

ابراهيم افندي: 28.

إبراهيم بن بيحمان: 24، 60، 61، 92.

ابن خلدون: 10، 12.

ابن عربي: 70.

ابن منظور: 70.

ابن زعمون: 30.

ابو يعقوب بن يوسف بن عدون: 61، 102.

أبو اليقظان: 12، 19، 23، 38، 64، 82، 99، 100، 102، 103، 110، 111، 112،
120، 121، 123، 124، 125، 133، 134، 135، 136، 140، 141، 142، 143،
145، 146، 152، 155

ابو العباس بن سعيد الدرجيني: 73.

ابو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي: 24، 25،

أبو عمار عبد الكافي: 21.

أبي زكرياء يحيى الأفضلي: 24، 60، 61، 62، 63، 76، 77، 93، 102.

ابي بلال بن مرداس: 11.

أبي القاسم الشابي: 141، 149.

أبي جعفر المنصور: 18.

أبي الخطاب عبد الأعلى المعافري: 18، 19.

- أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة: 18.
- أحمد بن بابا عيسى: 30.
- أحمد توفيق المدني: 14، 80، 144، 147.
- الأخوة بربروس: 22، 23.
- الأمير خالد: 97، 146.
- الأمير عبد القادر: 30، 31.
- الحاج داود بن محمد اميني: 30.
- الحاج يوسف بن حمو: 60.
- الجزري: 70.
- الداي حسين : 28.
- الشريف بن عبد الله: 30، 31، 32.
- الشاذلي المورالي: 124.
- العقيد عميروش: 136.
- الفيروزابادي: 70.
- الفاضل بن عاشور: 137.
- أحمد بن يوسف بن عيسى اطفيش: 11، 12، 28، 32، 35، 36، 62، 63، 64، 66، 84، 85، 92، 93، 94، 97، 99، 102، 112، 118، 135.
- المنصور بن ناصر: 20.
- الميورقي: 70.
- الناصر بن شهرة: 32.
- اوغستان برنار: 35.

با عبد الرحمن الكرثي: 57، 90.

بالحاج بن كاسي: 62.

بجيو بن موسى العطفراوي: 22.

بكير العنق: 97، 103، 110.

بكير بن محمد بن بكير المليكي: 23.

بن داود العطفراوي:

بيير روفو: 14.

بيليسيه: 32.

بوعمامة: 35.

بوجناح سليمان: 86، 151.

حسان بن نعمان: 15.

حسين باشا: 23.

حسن باشا: 24.

حسن قلاقي: 85، 144.

حنظلة بن صفوان: 16.

حمو بن يحي يدر: 30.

حمو والحاج اليزقني: 61.

حمدان خوجة: 95.

جابر بن زيد: 16، 17، 18.

جونار: 71.

- دايفيد سيللي: 71.
- دي بولينياك: 28.
- دي بورمون: 29.
- دولاتور دوفيرني: 35.
- دوباراي: 79.
- راندون: 31، 33، 46، 79.
- رمضان حمود: 141، 142، 150، 151.
- زكرياء زكري بن سعيد: 37.
- زكرياء يحي بن أبي بكر: 11.
- سلمة بن سعد: 17، 18.
- سليمان الباروني: 64، 99، 110، 135، 136، 145، 151.
- سيدي السعدي: 30.
- سليمان بن عيسى: 62.
- سيمون بفايفر: 28.
- سليمان بن داود العظفاوي: 30.
- شكيب ارسلان: 97.
- صالح خري: 137، 138، 142، 149،
- صالح لعللي: 123.
- صالح الثميني: 120، 134، 152.
- صالح بن باعللي: 112، 133، 134.

صالح بن يحيى: 85، 112، 120، 121، 134، 143، 144، 145، 146.

صالح باي: 24، 28.

ضياء الدين الثميني: 24، 60، 61، 62، 63، 92، 102.

عباس بن حمانة: 97، 98.

عبد الرحمن بكلي: 12، 82، 126،

عبد الله بن أبي السرح: 15.

عبد الله بن الزبير: 15.

عبد الله بن جعفر: 15.

عبد الله بن العباس: 15.

عبد الله بن اباض: 16، 17.

عبد الرحمن بن رستم: 18، 19.

عبد الكريم المغيلي: 51.

عبد العزيز الشعالي: 82، 85، 97، 112، 134، 139، 143، 144، 145، 146، 147.

عبد الحميد بن باديس: 100، 133، 134، 141.

عبد القادر المجاوي: 112.

عروج: 22، 23.

عقبة بن نافع: 15.

علي يحيى معمر: 10، 11، 73.

عمر بن الخطاب: 15.

عمر بن باحمد بالولو: 65.

- عمر بن عيسى بن ابراهيم: 38.
- عمر بن يحيى: 97، 99، 111، 121.
- عمر بن بكير: 115.
- عمي سعيد الجري: 33، 51، 57، 74، 75.
- عنبة بن سحيم الكلبي: 15.
- غرافة ابراهيم: 86.
- فرحات عباس: 137.
- فصيل بن أبي مسور: 74.
- فلاترس: 29.
- قريزي: 66.
- لافيجري: 66.
- لويس تيرمان: 35.
- محمد علي دوز: 13، 50، 60، 143.
- محمد بن ادريسو: 62.
- محمد بن العنابي: 95.
- محمد بن رجال: 97.
- محمد بن العربي: 97.
- محمد بن عاشور:
- محمد لعساكر: 126، 136، 137، 155.
- محمد التريكي: 137.

مرغريت: 33،

مسيرة المطغري: 15.

مامة بنت سليمان: 34.

موسى بن نصير: 15.

مفدى زكرياء: 19، 86، 112، 137، 140، 141، 142، 148، 149، 150، 151.

نافع بن الأزرق: 16، 17.

نابليون الثالث: 34.

هشام بن عبد الملك: 16.

هنري دوفرييه: 29.

يعقوب بن أفلح: 20.

يوسف بن محمد المصعبي المليكي: 75، 76.

يحيى بن حمو الواهج: 125، 126،

وليام شالر: 12.

فهرس الأماكن والبلدان

تم استثناء كل من " وادي ميزاب، تونس " لكثرة ورودهما في الرسالة.

أريغ: 11، 20، 21، 40، 73.

أدرار: 51.

افريقية: 15، 16، 17، 18.

إفريقيا: 22.

البليدة: 45، 46، 47.

الأغواط: 8، 24، 30، 32، 33، 35، 36، 45، 52، 79، 129،

الحراش: 38، 47.

الجزائر: 8، 10، 12، 13، 14، 19، 22، 23، 24، 25، 27، 28، 29، 31، 32، 33، 37، 38،

45، 46، 47، 52، 55، 57، 62، 63، 72، 73، 74، 78، 80، 84، 87، 88، 90، 92، 93،

94، 95، 97، 99، 101، 102، 107، 114، 115، 117، 119، 129، 133، 134، 136،

137، 139، 142، 143، 144، 145، 146، 152،

الجريد التونسي: 69، 73، 88،

الجلفة: 30، 31، 45، 47، 64،

السودان: 44، 46، 51.

الصين: 72.

القرارة: 8، 10، 13، 21، 28، 29، 41، 46، 62، 64، 89، 91، 97، 99، 109، 111، 121،

126، 137، 153.

العطف: 8، 9، 12، 20، 21، 23، 29، 34، 38، 46، 50، 65، 82، 91، 96، 115.

العلمة: 46.

الكاف: 106.

المدية: 31، 45.

المغرب الأقصى: 78، 82، 143.

النمسا: 71.

اليابان: 72.

اليونان: 71.

الولايات المتحدة: 71.

أم البواقي: 81

ايطاليا: 72.

باريس: 29، 37، 38، 85، 95، 97، 145.

باتنة: 46، 81، 137.

بجاية: 81.

بريان: 8، 12، 13، 21، 30، 32، 34، 91، 113، 125.

بريكة: 81.

بسكرة: 47.

بنزرت: 106، 109.

بني يزقن: 8، 9، 19، 21، 22، 24، 29، 30، 32، 34، 37، 46، 48، 60، 61، 62، 63،
64، 65، 66، 76، 89، 94، 97، 99، 100، 102، 109، 112، 115، 119، 135، 145.

بولونيا: 72.

بونورة: 8، 21، 34، 64، 91، 115.

تبسة: 81، 96، 97، 98، 99، 110، 111، 120، 132.

- تقرت: 47، 121.
- تلمسان: 81، 101.
- تمنراست: 8.
- تمنطيط: 51.
- تيزي وزو: 81.
- تيهت: 19، 20.
- توات: 29، 44، 46، 51.
- توزر: 107.
- حجيرة: 8.
- جزيرة حربة: 19، 20، 21، 23، 25، 51، 60، 62، 69، 73، 74، 75، 76، 77، 89، 92،
103، 106، 107، 113، 139.
- خنشلة: 46.
- روما: 71.
- زنڭبار: 60، 73.
- سدراثة: 20، 40.
- سطيف: 46، 47.
- سكيكدة: 29، 47.
- سلطنة عمان: 60.
- سيدي فرج: 28، 30.
- سوريا: 82.
- سوسة: 89.

سوق أهراس: 46.

طرابلس: 18.

عناية: 29، 47، 101، 114، 145.

عين صالح: 46.

عين البيضاء: 111.

غدامس: 46، 88.

غرداية: 8، 9، 11، 29، 32، 33، 34، 35، 36، 44، 46، 50، 57، 58، 65، 66، 75، 80،
83، 88، 89، 91، 96، 97، 100، 115، 141.

غليزان: 46، 47.

فنلندا: 72.

قلمة: 46، 145.

فرنسا: 14، 28، 29، 30، 32، 33، 35، 36، 42، 46، 65، 71، 79، 81، 84، 85، 87،
96، 116، 135، 143، 144، 147.

قسنطينة: 8، 24، 37، 46، 47، 88، 98، 121.

قصر البخاري: 30.

قفصة: 106.

كندا: 71.

ليبيا: 46، 48، 64، 73، 74، 84، 94، 110، 135، 143، 145.

متليلي: 8، 9، 21، 29، 36، 66.

مستغانم: 47.

مصر: 46، 60، 61، 65، 76، 77، 82، 112، 138، 143، 147.

معسكر: 101.

مليكة: 8، 9، 21، 23، 25، 30، 34، 46، 57، 65، 76، 91، 92، 96، 115، 146.

نفطة: 73.

وادي سوف: 73، 108.

وارجلان: 19، 20، 21، 44، 57، 73.

ورقلة: 8، 11، 31، 36، 80.

وهران: 8، 29، 34، 35، 37، 47، 101.

الإهداء

شكر و عرفان

المقدمة

1 - 6

8 - 25

الفصل التمهيدي: التعريف بمنطقة وادي ميزاب

1 - الواقع الجغرافي والطبيعي لوادي ميزاب 8

أ - الموقع الفلكي 8

ب - الطقس 9

ج - أصل التسمية وأصل السكان 10

ج - 1 - أصل تسمية وادي ميزاب 10

ج - 2 - أصل بني ميزاب 11

2 - التطور التاريخي والسياسي 14

أ - وادي ميزاب خلال العصور القديمة 14

ب - وادي ميزاب خلال الفتح الإسلامي 15

ب - 1 - ظهور الحركات الخارجية ببلاد المغرب 15

ب - 2 - ظهور الإباضية في بلاد المغرب 16

ب - 3 - انتشار المذهب الإباضي ببلاد المغرب 17

ج - الوجود العثماني بالجزائر وعلاقته بوادي ميزاب 22

الفصل الأول: الأوضاع العامة لوادي ميزاب خلال الفترة الاستعمارية

1 - الأوضاع السياسية 27

أ - الاحتلال الفرنسي للجزائر ومشاركة الميزابيين في مقاومة الاستعمار منذ دخوله 28

30	ب - مشاركة الميزابيين في المقاومة الشعبية وعقد معاهدة الحماية بين الفرنسيين والميزابيين
35	ج - قرار إلغاء معاهدة الحماية وإلحاق وادي ميزاب رسميا بإدارة الاحتلال الفرنسي
36	د - قانون التجنيد الإجباري وموقف سكان وادي ميزاب منه
39	2 - الأوضاع الاقتصادية
40	أ - الفلاحة
44	ب - التجارة
48	ج - الصناعة
49	3 - الأوضاع الاجتماعية والثقافية
49	أ - الأوضاع الاجتماعية
50	أ - 1- أصل سكان وادي ميزاب
51	أ - 2- اليهود بمنطقة وادي ميزاب
55	أ - 3- المستوى المعيشي للمجتمع الميزابي
56	أ - 4- النظام الاجتماعي لبني ميزاب
58	ب - الأوضاع الثقافية
58	ب - 1- دور هيئة العزابة في الحياة الثقافية
60	ب - 2- دور رجال النهضة الإصلاحية في الحركة العلمية والثقافية
65	ب - 3- التعليم الفرنسي
105 - 69	الفصل الثاني: بدايات الهجرة وأسبابها
69	1 - الجذور التاريخية للهجرة الميزابية إلى تونس
69	أ - مفهوم الهجرة

72	ب - الهجرة واللجوء
73	ج - الجذور التاريخية للهجرة الميزابية إلى تونس
73	ج-1- التواصل بين الميزابيين بالجزائر والإباضيين في تونس
74	ج-2- دور الشيخ فضيل بن أبي مسور وأبنائه في ربط العلاقات الدينية والاجتماعية بين المنطقتين
76	ج-3- مرحلة الشيخ أبي زكرياء يحي الأفضلي ودوره في التواصل الحضاري بين القطرين
78	2 - أسباب ودوافع هجرة سكان وادي ميزاب إلى تونس
78	أ - الأسباب السياسية
79	أ-1- معاهدة الحماية الفرنسية مع سكان وادي ميزاب ودورها في الحراك السياسي
81	أ-2- قانون التجنيد الإجباري
84	أ-3- النشاط السياسي للميزابيين بين الجزائر وتونس
86	ب - الأسباب الاقتصادية والاجتماعية
86	ب-1- الأسباب الاقتصادية
90	ب-2- الأسباب الاجتماعية
93	ج- الأسباب الثقافية
93	ج-1- النهضة العلمية بميزاب بقيادة الشيخ اطفيش قطب الأئمة
94	ج-2- حالة التعليم بمنطقة وادي ميزاب خلال فترة الاستعمار الفرنسي
96	ج-3- المدرسة الصديقية ودورها في انطلاق البعثات العلمية
99	ج-4- نشأة أول بعثة علمية ميزابية إلى تونس
100	3 - أنواع الهجرات الميزابية إلى تونس

102	أ - الهجرة الفردية
103	ب - الهجرة الجماعية
103	ج- الهجرة العلمية
104	د- الهجرة العمالية
106 - 155	الفصل الثالث: المهاجرون الميزابيون وأوضاعهم وإسهاماتهم في الحياة التونسية
106	1 - أماكن استقرار المهاجرين بتونس
106	أ - أماكن تواجد الميزابيين بتونس
110	ب - مقرات البعثات العلمية "دار البعثة"
113	2 - أوضاع المهاجرين الميزابيين إلى تونس
114	أ - التنظيم الإداري للمهاجرين الميزابيين
117	ب- الخصوصية المذهبية لمهاجري بني ميزاب ودورها في شبكة العلاقات المختلفة
119	ج- المرأة الميزابية ودورها في ظروف المهاجر الميزابي
120	د- وضعية البعثات العلمية الميزابية بتونس
128	3 - الأنشطة والأعمال التي مارسها المهاجرون في تونس
129	أ - أهم الأنشطة والأعمال التي الممارسة من طرف الميزابيين في تونس
133	ب- نشاطات البعثات العلمية بتونس
133	ب-1- استقبال البعثات العلمية للشخصيات والزعامات الوطنية والإسلامية
137	ب-2- البعثة الميزابية تشرف على النشيد الوطني الجزائر "قسما"
139	4 - إسهامات المهاجرين الميزابيين في الحياة السياسية والفكرية التونسية
139	أ - في مجال الصحافة

140	أ-1- الشيخ إبراهيم أبو اليقظان
141	أ-2- مفدي زكرياء
142	ب- في مجال السياسة
144	ب-1- الشيخ صالح بن يحي ودوره في دعم الحزب الحر الدستوري
146	ب-2- الشيخ أبي اسحاق اطفيش ودوره في دعم الحزب الحر الدستوري
148	ج- في المجال الثقافي والعلمي
148	ج-1- المساهمة في المجال الثقافي
148	ج-1-أ- الطلبة الميزابيون والمساهمات الأدبية والثقافية
150	ج-1-ب- مجلة الوفاق
151	ج-2- المساهمة في المجال العلمي
152	ج-2-أ- مكتبة الاستقامة ودورها في الحراك العلمي والفكري التونسي
153	ج-2-ب- دور الطلبة الميزابيين في تغيير قرار معهد الزيتونة في الاعتراف بشهادة معهد الحياة
160-157	الخاتمة
169 - 162	الملاحق
184 - 171	قائمة المصادر والمراجع
202-186	الفهارس
186	فهرس الأعلام
193	فهرس الأماكن والبلدان
197	فهرس الموضوعات

Résumé

Le mouvement de l'immigration vers la Tunisie est considéré des plus importants phénomènes qu'a connu les deux régions depuis plusieurs périodes de temps, et peut-être le plus important est la période qui a dominé la présence coloniale pour les deux pays, il était de ces relations dans de nombreux aspects différents touché les aspects politiques, intellectuelles, culturelles, sociales et économiques, afin que la Tunisie et malgré la présence coloniale sur mais il était dans un état de liberté politique et intellectuelle contrairement à ce qui était le cas en Algérie, où il y avait l'oppression, l'injustice et l'arbitraire dans le droit des Algériens qui ont touché tous les domaines. le colonialisme français a combattu les Algériens dans leur religion, leur langue et leur identité et même leur argent et de leur terre et de leur dignité, ce qui a forcé les Algériens de vivre la pauvreté dans leur patrie et de penser à quitter le pays et chercher un endroit où ils trouvent un moyen de liberté et de vie décent qui lui manquait dans leur patrie.

Le pays le plus proche pour eux en termes de frontière

Le pays le plus proche de lui en termes de frontières géographiques, d'identité de la religion, la langue, les coutumes et les traditions, était la Tunisie où il a cherché refuge pour échapper à l'oppression et l'humiliation qui a été connu dans son pays

La Tunisie a adopté les immigrés algériens

les deux peuples sont fusionnés en communication intellectuelle, scientifique et politique et la présence algérienne se prolonge dans la vie la lutte tunisienne

Les Algériens ont émigré au pays tunisien dans des différentes régions, et peut-être le plus importantes sont les zones frontalières où qui étaient près de la frontière algéro-tunisienne, et parmi les plus importants des point de départ des migrations nous trouver la zone de oued M'zab qui était un domaine important pour la migration vers la Tunisie, et dans le contexte du travail et le commerce qui était en vogue entre eux, ou dans le contexte de la recherche de la connaissance dans la

Mosquée Zitouna et nous constatons que les Mouzabites dans leurs habitudes et coutumes ne considèrent pas l'homme, un homme moins séjourné loin de la famille et des proches, donc nous les trouvons migrent et quittent leur lieu de résidence, certains d'entre eux migrent migration interne dans les différentes régions du pays, et certains d'entre eux choisir la migration externe, et dans ce choix la Tunisie a été la destination préférée.

L'immigration des mouzabites est des plus importantes migrations algériennes à la tunisie en vue de l'héritage de profondes répercussions sur divers aspects de la vie tunisienne politique et intellectuelle, En outre, la période allant du début de la protection à la Tunisie en 1881 jusqu'à l'indépendance en 1956, le mouvement d'une migration sans précédent de missions scientifiques et des étudiants mouzabites voler vers les métropoles tunisiennes, En plus des changements politiques et sociaux imprévus sur le tunisie et l'Algérie française coloniale en raison des effets de l'attaque et des inconvénients. à cause de les influences et les inconvénients impérialistes français.

Parmi les résultats les plus importants de cette étude, nous trouvons:

Les dépôts historiques et religieux qui étaient entre les deux régions depuis les époques historiques lointaines, l'Association a fait un relations solides, surtout quand il vient à l'île tunisienne de Djerba et la région de djirid tunisienne Qui sont parmi les régions de la presence des ibadites au pays du Maghreb. .

les mouzabites ont choisi de contribuer à la lutte au sein du mouvement national tunisien, et combattre parce qu'ils croient que le succès de l'affaire tunisienne est le succès de l'affaire des mouzabites , parce que les deux étaient dans le système de protection française, et si les Tunisiens obtiennent leurs droits est une victoire pour les demandes les Mouzabites aussi.

Les Mouzabites ont participé le secteur de la presse tunisienne et ont contribué une énorme quantité d'articles, d'études et de poèmes, à travers les différentes

étapes de leur présence là-bas .Les journaux tunisiens ont été une sortie et une plate-forme intellectuellement et moralement pour les étudiants et personnalités Mouzabites stationnés en Tunisie.